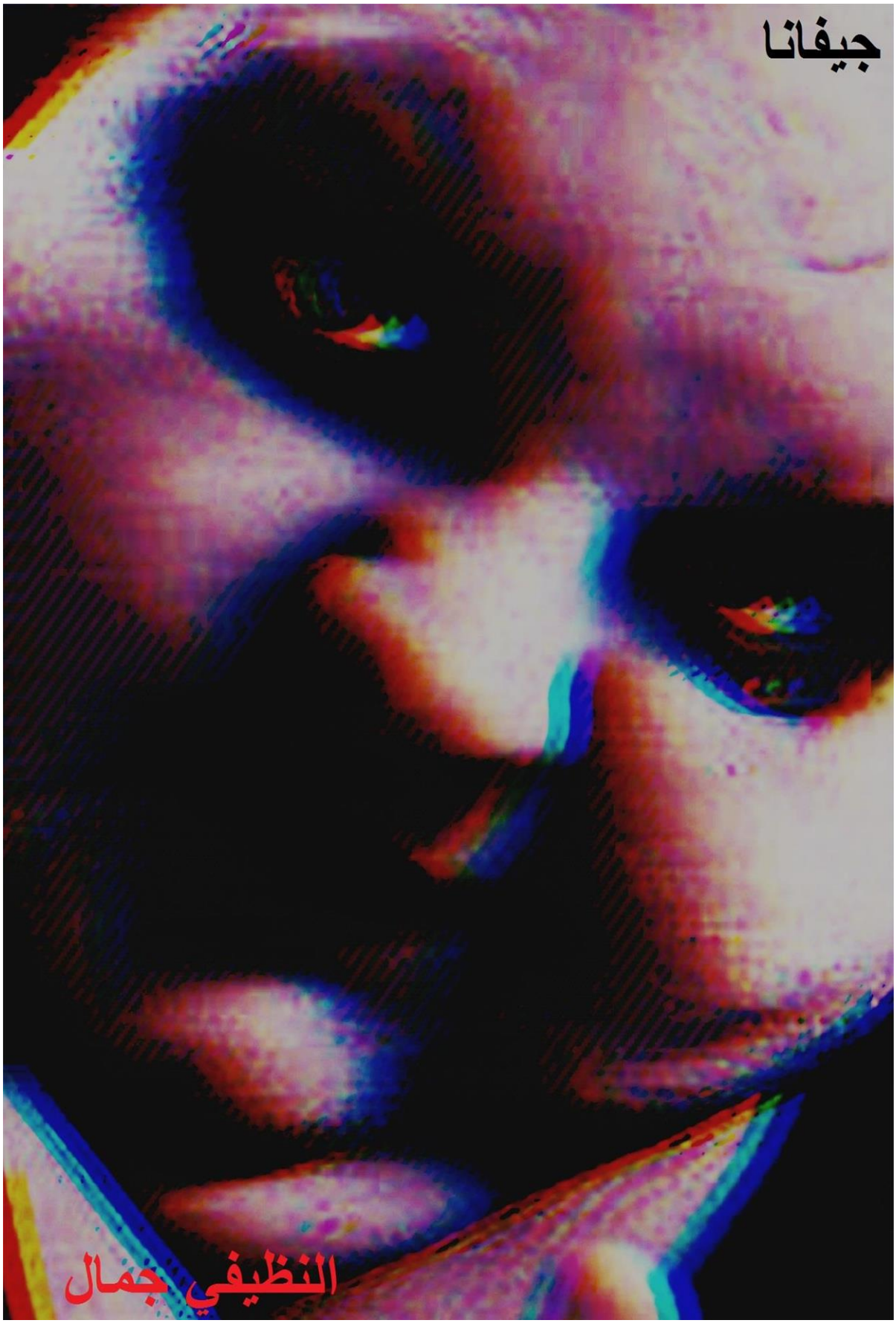
جيفانا
النظيفي جمال

جيفانا

و تحسب أنك جرم *** و فيك انطوى العالم الأكبر

داؤك منك و ما تبصر *** داؤك فيك و ما تشعر

تحسب أنك جرم صغير *** و فيك انطوى العالم الأكبر

بادجيو

أنت ..

نعم أنت ..

أترك ما بيدك .. ضعه حيث وجدته .. و ارحل ..

لماذا لا زلت تقرأ ؟

هيا .. ارم الكتاب أرضا و ارحل ..

لماذا لا زلت تقرأ ؟

لماذا تصر على القراءة ؟

أنظر حولك عن يمينك و يسارك .. هل ترى شيئا غريبا قرب الكتاب ؟

إذا كان الجواب -نعم-..

خده بعيدا الى مكان آمن .. ثم اقرأ ..

أما إذا لم تجد شيئا .. فأنصحك بترك الكتاب حيث وجدته ..

قد تعرض نفسك للخطر...

أرى أنك مصر على القراءة .. لا أعلم إن كنت قد وجدت حول الكتاب ما يثير انتباهك .. لكن المهم .. أنصت أيها الغريب ..

فليكن في علمك أن ما ستقرأ سيعرضك للخطر حتما.. لذلك لا أنصحك بالمتابعة ..

أرى أنك مصمم .. حسنا ..

أرجو أن تكون واعيا بما تفعل لأن الصفحات القادمة ستتحدث عن أشياء لا يجوز لك معرفتها..

لقد حذرتك ..

إنها فرصتك الأخيرة لترك الكتاب من يدك ...

عجيب أمرك .. أنت مصمم على معرفة السر..

لا بأس ..

ما دمت شجاعا الى هذا الحد ..

أتمنى أن تستفيد من قصتي و أن تحسن التصرف..

هذه قصتي و هذه الأحداث الغريبة عايشتها و رأيتها بعين اليقين ..

أنا الآن متواجد بمغارة ثلجية بالقطب الشمالي و لعلك ستسألني السؤال التالي ..

- ما الذي جعلك تحط الرحال بمغارة ثلجية بالقطب الشمالي ؟
  و الجواب له مقدمات ..
  ما دمت مصمما على القراءة ..
  فستجد الجواب في السطور القادمة ..
  لا أعلم في أي سنة أنت الآن أيها القارئ, لكني كتبت هذه السطور في أواخر سنة 2014

المكان : مغارة ثلجية بالقطب الشمالي

لا أعلم من أين أبدأ ؟

لكن يجب أن أبدأ..

لا أستطيع أن أحدِّث أحداً بما رأيت ..

لا أستطيع .. إنـــــه ..

آه .....]يا جـــــيفانا...

لا أستطيع أن أخبر به أحداً .. لو علم الجميع به ستختفي الإنسانية ..

إنّهم مجانين ...

لكن .. لكني لا أستطيع أن أسكت عن ما رأيت ..

رأسي ستنفجر يجب أن أكتب كل ما رأيت من البداية ...

إذا كتبته .. من الممكن أن ينير طريق البشرية نحو مستقبل أفضل ..

أو مظلم .. لا أدري .. السر الذي بين يدي الآن سلاح ذو حدين ..

ما أعرف الآن هو أنّي لا أستطيع أن أكتم ما في صدري .. يجب أن أكتب كلَّ شيء رأيته ..

لا يمكنني أن أكتم ســــــــــــراً كهذا ... سأخبأ كل ما سأكتب للأجيال القادمة ..

نعم .. الأجيال القادمة ستعرف كيف تتعامل مع الأمر و ما الذي يجب فعله ..

أتمنى أن تكون منهم ...

سأكتب كلّ شيء ...

من أين سأبدأ ؟

آه رأسي .. سأبدأ من البداية عند ذلك الاتصال الهاتفي الذي غيّر حياتي ..

نعم غيّر حياتي .. لولا ذلك الاتصال لَما كنت أكتب هذه السطور الآن و هنا في هذا الركن من الكوكب و هذا البرد القاتل ..

تغيّرَت حياتي للأفضل ؟ لا أدري ..

أنا سعيد بما أعلم .. ولكني حزين على الإنسانية ..

خصوصاً نحن ..

إنها مصيبة أن لا نحيط بهِ و نتركه للآخرين .. لكني سأكتب كل ما علمت وكل ما رأيت من أجل الإنسانية القادمة .. من أجل المؤمن و غير المؤمن .. من أجل الأبيض و الأسود و الأَصفر و الأحمر .. من أجل الجميع .. يجب أن يحيط به الجميع ..

لكن ليس الآن .. ليس لإنسان هذا الزمان ..

أكتب هذه السطور وأنا مطارد من طرف أقوى منظمة في العالم .. أقوى من كل دول العالم مجتمعة .. كل أجهزتها تبحث عني الآن ...

إنّها تعلم أني أحمل ســـــراً بإمكانه تدميرها إن صحّ القول.

لأنّ ما لدي سيجعل بلداً مثل المغرب ينافس الولايات المتحدة الأمريكية في كل شيء .. نعم كل شيء , بل بإمكاننا أن نستعمرهم في أيام ...

أو نزيلهم من خارطة العالم فلا يسمع بهم أحد ...

بإمكان الصومال أن تهزم روسيا ...

بإمكان من يملك هذا السر أن يحكم العالم .. لذلك لا أستطيع أن أخبر به أحداً الآن .. سأكتبه و أتركه هنا الى أن يجد من يستحقه ..و قد تكون أنت من يستحقه..

سأكتبه كأنه يحصل لأوّل مرة .. كما أحسسته أول مرة ..

سأكتبه و كأني أعيشه أوّل مرة ..

سأبدأ من الهاتف الذي غيّر حياتي و الذي سيغير العالم يوما ما ..

أنا الدكتور كوفي عماد , طبيب نفسي لدي دكتوراه في البرمجة اللغوية العصبية حاصل على ماجستير في علم النفس من إحدى الجامعات بأمريكا ولديّ دراسات علمية مختلفة في السلوكيات و تكوُّن شخصية الإنسان بهدف فهمه و تفسير تصرفاته و التنبؤ بها إن أمكن ...

أعيش بالمغرب و بالضبط بالعاصمة الرباط , لدي عيادة في حي راقي بالمدينة و حياتي جد مستقرة , كنت على وشك دخول عش الزوجية مع حبيبتي نوار قبل تلك

المكالمة الهاتفية التي غيرة حياتي رأساً على عقب , كنت أحضر يومها لمراسيم الخطبة التي كان من المقرر إقامتها غداة تلك المكالمة , لم أذهب للعيادة , تركت فقط الكاتبة لتلقّي المكالمات و إعطاء المواعيد , كنت قد نسيت بطاقتي البنكية و بعض الأغراض هناك مما جعلني أعود لمقر العمل , فوجئت بالسكرتيرة على وشك الاتصال بي و هي خائفة وجلة ..

سألتها عما بها لتجيبني بأن حسن اتصل بها عشرات المرات و أنّه يريد رؤيتي فوراً .. وعندما أخبرَتْهُ بغيابي جُنّ جنونه و هدّدها بأنه سيضع حدّاً لحياته إن لم أذهب فوراً لزيارته ...

رنّ الهاتف وهي تحدّثني بما حصل .. كانت متأكدة بأنه السيد بادجيو حسن ..

سأكتب في مذكرتي هاته كُلّ حواراتي كما سمعتها بالحرف حتى يستوعب الذي سيجدها كلَّ ما حصل معي و كل ما شاهدته ...

كان صوته مرتجفا في الهاتف .. لم يكن يقوى على الحديث لقد قررت أن أذهب لرؤيته بعد أوّل كلمة قالها و قبل أن أفهم ما حصل , ذلك أنّي فهمت من تقطُّع و تلعثم الحروف بحنجرته أنّ حالته النفسية منهارة و على وشك أن تلعب بعقله , لا يمكن أن أتركه يؤذي نفسه ..

رفعت السماعة بسرعة وحاورته بهدوء حتى أعرف ما به ..

- ما بك حسن ؟
- دكتت... دكتور .. الحمد لله .. لقد اتصلت عشرات المرّات .. يجب أن تأتي حالاً ..
- حاضر حسن .. لا تقلق .. دقائق معدودة و ستجدني عندك في المنزل .. هدِّأ من روعك ..
- أسرع دكتور .. لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا ... كل شيء يتحرك حولي ... كل شيء يحوم حولي .. حتى التلفاز ..
- لا تقلق .. فقط أغمض عينيك ..
- لقد فعلت دكتور كما قلت مرّاتٍ عديدة .. لكن دون فائدة ...
- حاضر .. سأقلع حالاً .

كانت حالة حسن من أشدِّ الحالات صعوبة , حيث لم يكن باستطاعته الحضور للعيادة , ذلك أنّ وزنه لم يكن ليسمح بتنقله , شاب وسيم في مقتبل العمر بملامح طفولية وشعر أشقر و عينان زرقاوان ووجنتين حمراوان من شدّة الخجل لكنه كان يزن 245 كيلوغرام , لم يكن يعاني من أمراض عضوية تمنعه من الحصول على وزن مناسب , لكن شراهته و حبه للأكل كانتا سبباً في وزنه الزائد , لم يكن لديه أصدقاء أو أسرة .. توفي والداه و هو في سن العاشرة في حادثة سير مميتة ..

كانت أمه إيطالية الجنسية أخذ منها ملامحها الجميلة .. هذا ما أخبرتني به عمته ..

حيائه كان سبب محنته .. حرّم على نفسه الخروج من المنزل الصغير الذي تركه له والده في ذلك الحي الشعبي بالعاصمة بسبب وزنه الزائد ..

كانت لديه عمة تصرف عليه و تعوُله , لم يكن بإمكانها البقاء معه طيلة اليوم لأنّها تعمل موظفة و لديها مسؤولية رعاية أسرتها أيضاً ..

لقد نالت منه الوحدة و أصبح يتوهم أشياء لا وجود لها إلّا في مخيلته .. كان يُحب أفلام الخيال العلمي لأنها كانت تخرجه من واقعه المرير لكن المشكل تطوّر شيئاً فشيئاً , ليتحول الى إدمان ..

الإدمان الذي أخرجه من عالمه الحقيقي و أدخله عالماً مجهولاً لم يستطع عقله و إدراكه مجاراته , ذلك كان سبب قدوم عمته أول مرة عندي في العيادة لطلب المساعدة , لقد رفض جلُّ الأطباء الذين زارتهم قبلي التنقل الى منزل ابن أخيها كما رفضتُ أيضا , ولم أعلم لما توسّلها و إلحاحها جعلاني أوافق على زيارته ..... ظننت أنّ الأمر قد يكون يسيراً و الحالة قد يسهل علاجها ..

و رغم أنّي وجدت الأمر مخالفاً لما دار في ذهني , إلاّ أنّني واظبت على زيارته من باب التحدّي لهذه الحالة المستعصية , فشفاء أي مريض بسببي كان يعتبر إنجازاً أضيفه الى رصيدي بالإضافة الى السعادة التي كنت أشعر بها إثر ذلك ..

لم تتحسن حالته في الزيارات الأولى لانعدام الثقة عنده في الآخرين , لكن مع توالي الزيارات تمكنت من إخراجه من الوهم الدائم الى الواقع و لو للحظات ,

كنت أعتبرها بداية حسنة , ذلك أنه من الصعب جدّاً أن تقنع شخصاً ما بشيء يؤمن بنقيضه إيماناً قاطعاً...

كالذي يعتقد أن الله خلقه ليعذبه في الدنيا و الآخرة .. فبناء على معتقده يمكن للشخص أن يتمرّد على مجتمعه أو يصاب بحالة من اليأس الشديد , أو يضطهد من حوله .. ونفس الشخص إذا غيّر معتقده و اقتنع بأنّ الرب يمتحنه هنا لينجيه في حياة أخرى أيّاً كانت نتيجة الامتحان , هنا أيضاً سيغير الاعتقاد تصرفاته بنسبة 180 درجة ....

كذلك كان حسن .. لقد كان يعيش الخيال بدل الاستمتاع به , وكان التحدي أن أجعله يؤمن بأن ما يراه مجرد خيال و أنّ عليه العودة الى الواقع ..

دخلت مكتبي للبحث عن الملف الخاص به , كنت أسجِّل كلَّ ما كان يدور بيننا بالهاتف الذكي ثم أدخله الحاسوب , أخذت نسخة معي في هاتفي النقال كنت أريد أن أتذكر آخر زيارة له وأنا في الطريق .. نزلت درج العمارة مسرعاً .. أوقفني العم نوح حارس العمارة العجوز يسألني عن هرولتي , فأخبرته بأنّ لدي حالة جد مستعجلة و لا أستطيع أن أشرح له , استقلتُ سيارتي و اتجهت نحو الحي الشعبي حيث يسكن حسن , شغّلت مكبر الصوت في هاتفي لأسمع حديثي الأخير معه .. كنت أريد أن أسمع آخر اللقاء فقط ..

- .....
- ومضت عيناه ثم احمرّتا بشدّة لتنطلق منهما إشعاعات الليزر الحارقة اتجاه ذلك الوحش ذو المخالب العظيمة و الأنياب القاتلة.....

ركض بسرعة خارقة لِإنقاذ حبيبته حتى لا يتمكن فيجيتا الحيوان المفترس المستنسخ في مختبرات زود الشرير الذي يريد أن يدمر كوكب الأرض ....

خرّت تلك الكتلة العظيمة التي تشبه دينصورات ما قبل التاريخ أرضاً بسبب ضربة الليزر التي وجهها كايل الرجل الخارق للوحش.....

لكن الضربة لم تكن كافية للقضاء عليه .....

حمل لويس الجميلة بين ذراعيه قبل أن يطير بعيداً ليبعدها عن الصراع المدمر بينه و بين فيجيتا .....

أنزلها بسكينة و هدوء في الحقول البعيدة .....

إنّها في أمان الآن .....

قبَّلها و حلق عاليا في الأجواء , يجب عليه أن ينقذ كوكب الأرض قبل أن يدمره زود بأفكاره الشريرة ...

- لقد انقطع التيار الكهربائي في غرفتي الصغيرة بينما كنت أشاهد الرجل الخارق على القناة الوطنية ... لكن لا بأس .. أعرف النهاية .. لقد رأيتها أكثر من مائة مرّة .. إنّه رائع .. لقد تمكن كايل من القضاء على زود .. لقد فصل رأسه عن جسده في آخر المطاف ..
- لكن ... لماذا رأيت الفيلم أكثر من مائة مرّة ... ألم تحس بالملل و أنت تعيد مشاهدته ؟
- الملل .. لا .. مستحيل .. لا يوجد أحد على وجه الأرض يمكن أن يمل من مشاهدة الرجل الخارق .. إنّه الرجل الخارق .. ألا تفهم ؟ إنّه البطل ..بطلنا .
- ليس لِكُلّ الناس مثل اهتماماتك حسن .. أنت تحب أفلام الخيال العلمي .. لكن ليس جلُّ الناس مثلك ..
- أعلم دكتور .. أعلم .. لكني لا أستطيع فهم شخص لا يحب الرجل الخارق حتى لو كانت اهتماماته مختلفة ... إنّه يمثل أحسن ما في الإنسان .. إنه يمثلنا جميعا ضد قوى الشر التي تحيط بكوكبنا ..
- لكن يا حسن .. لا توجد قوة تريد تدمير كوكبنا .. إنّه مجرد فيلم .. فيلم خيالي لا غير .
- هذا ما تظن دكتور .. لكني أعلم يقيناً أنه موجود .. إنه ينتظر فقط أن يظهر زود و أتباعه ليحدد هدفه .. إنه يبحث عنه .. كما أنّ زود سيظهر عاجلا أم آجلاً و يجب على الجميع أن يستعد لمساعدة كايل ... وإلّا سنموت جميعاً .
- ..... حسنا .. لقد انتهينا اليوم .. لقائنا الأسبوع المقبل ..

- لكن دكتور .. لم تقل لي ماذا أفعل إذا ما ظهر زود في شاشات التلفاز وهدّدنا بالفناء ؟
- إذا ما ظهر زود يجب أن تأتي لزيارتي فوراً .. عيادتي مفتوحة لك دوماً , حتى دون موعد .
- هل تمزح دكتور ؟
- لا .. لا أمزح ..
- أنظر دكتور الي جيداً ... هل بمقدور شخص مثلي أن يزورك في عيادتك ؟
- و لما لا ؟ إذا أردت حقاً زيارتي فستفعل ..
- لا أظن دكتور عماد .. لا يمكن لهيكلي العظمي وعضلاتي الهزيلة أن تحمل أكوام اللحم و الشحم التي تشبه أمواج البحر فوق بطني و فخذاي ... ألم تر أنّي بالكاد أرفع رأسي لأتكلّم معك دكتور .. لقد انتفخت رقبتي والتحمت بأكتافي .. كيف يمكنني أن أزورك دكتور ؟
- تفاءل خيراً حسن .. تفاءل خيراً ..
- شكراً دكتور أنت تعلم أنّ موضوع زود الشرير يؤرقني كثيراً .. فأنا لا أنام تقريباً من كثرة التفكير فيه .. ناهيك عن الأشياء التي تتحرك هنا دون أن يلمسها أحد ..
- سأكتب لك بعض المهدئات لتنام....
- شكراً دكتور ..

كان هذا آخر حوار دار بيني و بين بادجيو حسن ..
مررت عبر الطريق الساحلي حتى أصل بسرعة الى منزله , فكلّ ثانية قد تعني الكثير ..
كان يسكن في منزل صغير في زقاق ضيق قرب حي الأحباس الشهير بالأكواخ العشوائية حوله , منزل من ثلاث طوابق صغيرة الحجم , طرقت الباب الخشبي المثقّب قبل أن يُفتح من طرف العجوز التي تعيش بالطابق السفلي , القيت السلام و صعدت ببطء شديد خشية أن أتعثر على الدرج بسبب الظلام , كنت أشفق على هؤلاء البشر الذين يعيشون في تلك ظروف ..

طرقت باب حسن قبل أن أفتحه .. و دخلت غرفته الصغيرة لأتفاجأ بأثاثها مبعثراً و رائحة كريهة ... كانت رائحة سريره المتسخ تبعث في النفس الرغبة في التقيؤ , لكني تفاجأت أكثر عند رؤية جهاز التلفاز محفورا في الركن الأيمن من سقف الغرفة و كأنّ قوة هائلة رمت به هناك بعنف جعلت أجزائه تلتصق بالحائط ثمَّ العجيب في الأمر هو
اختفـــــــــــــــــــــــــــــــاء بادجيو حسن ..
السمين ذو ال 245 كيلوغرام و الذي لا يستطيع أن يتحرك متراً واحدا اتجاه دورة المياه دون مساعدة ...

دخلت الغرفة الصغيرة الأخرى ثم الحمام ثم دورة المياه دون جدوى ..
لقد اختفى ..
كاد عقلي يجن ..
خرجت من المنزل و نزلت الدرج بسرعة لأطرق باب العجوز التي فتحت لي الباب لأسألها عن حسن علّها ترشدني و تخبرني بالذي حصل , فلا يمكن إخراج جثة و جسم بذلك الوزن دون أن تدري أو ترى شيئاً , كما لا يمكن لحسن أن يخرج بنفسه ..
تأخرت قليلا قبل أن تفتح لي بابها و تخبرني بالذي لم أكن أريد سماعه ..
إنها لا تعلم شيئا و لم تر أحدا يدخل أو يخرج من المنزل ..
لقد توقف دماغي عن التفكير بالمنطق آنذاك و كل أسئلتي كانت تصطدم بعرض الحائط و لا أفق لأجوبة عقلانية تشفي الغليل ..
اتصلت فوراً بعمّة حسن في محاولة أخيرة لمعرفة ما وقع في تلك الغرفة لأصطدم بجهلها كليا لما رددتُ على مسامعها عبر الهاتف ... نصحتها أن تبلغ الشرطة فوراً قبل أن أضع الهاتف في جيبي ..
لم أتذكر الخطوات التي حملتني لسيارتي و لا طريق العودة الى العيادة و لا المشاغل التي كان عليّ القيام بها بعد ذلك , لقد أصبح عقلي سحابة من الفراغ تدور فيه أسئلة خواء و إجابات لا معنى لها ..
استمرت تلك الحالة قرابة الساعة قبل أن أستفيق من سكرتها و أعود الى الواقع و المنطق , لقد كان وقع الصدمة شديدا لأني لا أؤمن بكل ما هو خرافي و خارج نطاق العقل .. لقد كانت لحظة مشاهدتي للتلفاز ملتصقاً

بركن الغرفة بالحائط قاسية على عقلي لأنه لم يجد إجابات و زاد الطين بلة اختفاء المريض ..
إذن ما الذي حصل ؟
عدت الى العمارة حيث عيادتي استوقفني العجوز حارس العمارة مرة أخرى يسألني عن المريض الذي كنت أهرول لإنقاذه لكني لم أجبه ..
استأذنته بلطف .. صعدت الى عيادتي , لم أكلم كاتبي ..
دخلت مكتبي و استلقيت فوق السرير الذي أستعمل للحديث مع الزوار بعد أن شغلت موسيقى لشوبان حتى أهدِّأ من حدّة التوتر الذي أصابني و أفكر بعقلانية و هدوء ..
كنت أعلم أنّ هناك أشياء عدة تحدث حولنا و في عالمنا لم يستطع العلم في أغلب الأحيان أن يجد لها تفسيرا علمياً و لم يتمكن من فهمها و سبر غورها و هي ترتبط بقوى الإنسان الخفية بداخله و تعرف بالحاسة السادسة أو علم البارا سيكولوجي و الإدراك الحسي الخارق , لكن ما رأيت لا علاقة له بحاسة سادسة ..
هل يعقل أن يكون حسن هو سبب رمي التلفاز بتلك القوة الهائلة .. لقد فرضت عدّة مرّات إمكانية انفجار التلفاز بسبب مس كهربائي أو ما شابه لكن العقل يرمي بهذه الفرضية عرض الحائط لأنه حتى لو انفجر التلفاز بقوة هائلة فلن تلتصق أجزائه بالسقف بل ستتناثر في أرجاء الغرفة و يسقط صندوق الجهاز أرضاً ..
لقد حدّثني حسن عدة مرات عن تحرك التلفاز لكني كنت أتجاهل كلامه بخصوص هذه النقطة بالذات و لا أعيرها اهتماما لسببين ..
أولهما ولعه بأفلام الخيال العلمي و انغماسه وسط أحداثها بشكل جنوني مما قد يسبب له بعض الأوهام و الوساوس ..
ثانيا .. أن الامر محسوم عندي سلفا حول علم البارا سيكولوجي لأني قمت بأبحاث كثيرة حوله و أصبحت أومن بأن لكل ظاهرة تفسير علمي عقلاني يمكن أن يشرح و يفسر الأمور التي لا يستسيغها الإنسان في بادئ الأمر و أنه عاجلا أم آجلا سيتمكن الإنسان من فك الألوف من الألغاز التي مازالت تغذي خيال الناس بالخرافات و التفاهات ..

بقيت على تلك الحال من الشرود و التفكير و التحليل و العودة الى الحدث كما رأيته ... حاولت ترتيب الأفكار و تجميعها بحيث أخرج و لو بشيء يقربني من الفهم الى أن نال منّي التعب دون جدوى .. لم يستطع جسدي مجاراة الهوس الذي أصابني و التفكير بقوة لمحاولة فهم الموضوع لتكون له الكلمة الأخيرة ...

النوم ..

لقد نمت فوق السرير ثم استرخيت ..

لقد نمت لتتحول حياتي ..

لقد نمت لأشاهد ما لم أكن أتخيّل في يوم من الأيام أنه سيحدث لي ..

لقد نمت لأحيا و أعيش من جديد ..

لقد نمت لأرى ما لم و لن يخطر على قلبك أو عقلك ..

لقد نمت لأرى بادجيو حسن .. الوحـــــــــــــش .

الحـــبـــل

بعد أن غفوت بقليل أحسست بباب العيادة يفتح و سمعت صوت خطوات بطيئة على السجاد الأحمر في مكتبي ..

ظننت في بادئ الأمر أنها الكاتبة التي دخلت من أجل ملف أو ما شابه ..

لكني تذكرت أنها لا تدخل مكتبي دون استئذان ..

حدثت نفسي أن الأمر مهم لكي تدخل دون إذن مع العلم أني ألغيت كل المواعيد ..

حاولت أن أنهض لكي أستفسر عن الأمر لكني لم أستطع أن أفتح عيناي ..

حاولت بكل ما أوتيت من قوة .. لكني لم أفلح ..

انتابني شعور بالخوف و الرهبة ..

لقد فقدت القدرة على الحركة في لحظة جعلتني أفهم ذِكْراً نردده دون انقطاع لكن في غالب الأحيان دون فهم ..

فهمت كلمة أنه لا حـــــول و لا قـــــوة إلا بـــــــالله ..

فهمت أنني أحتاج الى طاقة و حول كي أفتح عيني فقط ..

و أغلبنا يؤمن أنه من عند الله .. لكن ننسى كما نسيت أنا ..

إنه يشبه الإحساس بالموت .. أو دُنوّه ..

لا أدري لكنه شعور يجعلك تحس بتفاهتك و قلّة حيلتك ..

توقف هذا الشعور عندما سمعت صوتا قريبا مني يحاول أن يوقظني بلطف ..

لم يكن صوت الكاتبة .. لكنه كان مألوفا عندي ..

إنه صوت حـســـن .. نعم حسن السمين الذي لا يستطيع الوقوف ..

- استيقظ دكتور عماد ..
- لا أستطيع ..
- حاول دكتور .. تستطيع .. ألم تقل لي آخر مرة أنه إذا أردتُ زيارتك سأستطيع , ها أنا هنا, لقد تمكنت من الفرار من الجزيرة و جئت لزيارتك ..
- صدقني لا أستطيع أن أفتح عيناي و لا شفتاي .. لا أستطيع أن أحرك شيئا ..
- أعلم دكتور .. حاول أن تطرد الخوف و ستتمكن من فتحهما .. إنه أمر يسير للغاية ..

كان حسن يكلمني بالتخاطر .. لم أستطع تحريك شفتاي .. لكنه كان يسمعني و يكلمني .. كنت أسمع صوته الطفولي داخل عقلي وليس عبر مسامعي .. استجمعت قواي و طردت الخوف الذي أصابني جراء فقدي لقوتي و كررت المحاولة ..
لقد تمكنت من فتحهما أخيراً ..
إنه فعلا حـــــســـــن ..
لقد كانت أول مرة أراه واقفا على قدميه ..
كانت أكوام الشحم تتدلى من فخديه على ركبتيه و من صدره على بطنه ..
كان بيده حبل متين كالذي يستعمل في ربط الخروف بالأسطح في عيد الأضحى ... لم يكن يلبس سوى سروال نوم قصير يستعمل عادة في السباحة لكنه كان كما عهدته في زياراتي السابقة ..
لم يكن هناك فرق سوى أنه يقف أمامي ..
بعدما فتحت عيناي و رأيته وسط المكتب واقفا يتحدث الى .. لم تكن كلماته تلقى استجابة من سمعي .. ولم يلق مني الموقف ردة الفعل الطبيعية ..
لقد بدأت في التفكير تواً في المشهد .. و تساءلت في الحين إن كان حلما أو حقيقة ..
لم يتطلب الأمر الكثير لأفهم أنه حلم .. نعم كنت أحلم و هذا أمر طبيعي جداً لأنني أجهدت نفسي في البحث عن تفسير لقصة حسن , و قد أثّر علي الأمر و ها أنا أشاهده الآن في أحلامي ..
أغمضت عيناي بقوّة ثم فتحتهما و أنا واقف أمام تلك الكتلة الهائلة من اللحم و الشحم علني أستيقظ .. لكن دون جدوى ..

كررت العملية عدة مرّات دون جدوى ..
كان حسن يحدثني أثناء محاولتي الاستيقاظ , لكني لم أكن أصغي إليه , كنت مرتبكاً جرّاء فقدي للقدرة على الحركة , و عندما رأيته أمامي بدأت أفكر في الاستيقاظ فقط .. و لم أحاول أبدا التركيز و الاستماع لما يقول إلا بعد أن فشلت تماما في العودة الى الواقع .. ثم دار الحديث التالي بيني و بينه ..

- دكتور عماد هل تسمعني ؟ هل تسمعني دكتور عماد ؟
- نعم حسن .. الآن أسمعك .. أحاول الاستيقاظ لكن دون جدوى ..
- لكنك مستيقظ دكتور عماد ..
- لا يمكن أن أكون مستيقظا الآن حسن .. أنت مجرد أفكار تدور في رأسي .. وستختفي حينما أستيقظ .. (جلست على كرسي مكتبي)
- لا دكتور أنت لا تحلم .. إنها الحقيقة .. أنت في الواقع .. أنت لا تحلم ..
- ...
- ....
- .....
- لماذا لا تصدقني ؟ لماذا لا تتكلم معي ؟ ما بك دكتور ؟
- ..... ليس ..... ليس ...ليس أني لا أريد أن أكلمك أو أجيبك .. و لكني لا أريد أن أضيّع و قتي في النوم أكثر .. و لا أريد أ ن أحدث نفسي .. أنا أعلم يقينا أنك غير موجود بعيادتي .. و أنك من وحي خيالي .. و إذا تحدثت معك فلن أكون محدثا شخصا آخر غيري .. لأني أحلم .. فهمت ..
- أرى أنك متأكد من نفسك دكتور .. كيف أثبت لك أنك لا تحلم ؟؟؟
- لا يمكن لك أن تثبت لي هذا الأمر .. لأن الأحلام واقعية تماما كالواقع و لا يمكن للإنسان أن يدرك أنه يحلم إلا بعد أن يستيقظ ..
- هذا هو الإثبات الذي تريد دكتور .. إذا كان لا يمكن أن يعرف شخص بأنه يحلم إلاّ بعد أن يستيقظ .. فكيف عرفت أنك تحلم بعد أن نمت مباشرة ؟ أليس هذا دليلا على أنك لا تحلم ؟
- تحليل ذكي بادجيو .. -أبتسم- لكنك نسيت أنني طبيب ..
- هل هذا الاستثناء علمي أم هو مجرد فكرة ؟

- ليس علمياً .. لكني فهمت المسألة لأني أطلت التفكير في موضوع اختفائك لساعات و هذا ما جعلني أحلم بك بمجرد أن أغمضت عيني .. والدليل القاطع أنني أحلم .. هو أنك تتحدث بأسلوب جيد و منطقي يشبه طريقة حديثي و شرحي لأفكاري للناس .. مع العلم أن مستواك الدراسي حسن جد متوسط .. فكيف لك أن تحدثني بهذا الأسلوب ؟
- أرى أنك مصمم على رأيك .. سأثبت لك أنك لا تحلم دكتور لأني أحتاج مساعدتك .. أولا أنت لا تعلم ما حصل معي و ما عشته قبل أن نلتقي هنا .. لقد صدقت .. إن مستواي الدراسي و العلمي كان جدّ متوسط , لكني الآن أعلم الكثير الكثير مما تجهل , هل تعلم أن مساحة الأرض تبلغ خمسمائة و عشرة مليون كيلومتر مربع ؟ هل تعلم أن الزرافة تنام تسع دقائق فقط لان رقبتها الطويلة لا تسمح لها بالنوم أكثر من ذلك ؟ هل تعلم أنّ السلحفاة لا تسمع ؟ هل تعلم أنّ جناح الذبابة يضرب أكثر من ثلاثين مرة في الثانية ؟ هل تعلم أن النسر لا يموت بل ينتحر إذا اقترب أجله بسبب المرض ؟ هل تعلم أنّ طول نهر النيل هو أربعون الف و مائة و سبعة و خمسون ميل بالضبط ؟ و الكثير الكثير ... لا تقل لي دكتور أن لديك هذه المعلومات في عقلك الباطن ؟ ثانيا انت تعلم أنّ الأشياء تتغير في الأحلام ذاتيا إذا نظرت إليها مرتين متتاليتين و جعلت بين المرة و المرة بعض الوقت ؟

لقد كانت صعقة داخل الحلم الذي أصبحت أشك في كونه حلما ... ما الذي أسمعه من حسن ؟ إنها معلومات جديدة لم يكن لدي علم مسبق بها ما عدا السلحفاة التي لا تسمع .. لقد سبق و شاهدت هذه المعلومة على قناة الناشيونال جيوغرافيك .. لكن الباقي كانت معلومات أسمعها لأول مرة .. تمالكت نفسي ساعتها و حاولت أن لا تظهر علي حالة الارتباك التي جعلني أحس بها .. ما العمل ؟؟ هل أنا أحلم ؟ مستحيل ... أسرعت في الإجابة حتى لا يحس بأنّي ارتبكت بسبب معلوماته .. و كذبت ..

- صحيح و هذه معلوماتي .. توجد في العقل الباطن لدي .. ها أنت تتحدث بها لقد قلت لك انني لا أحدث سوى نفسي في هذا المشهد ..
- لكن هذا لا يمنعك من أن تجرب دكتور لتقطع الشك باليقين ..

- لا أريد حسن ... أنا متأكد ممّا أقول ..
- أنظر الى ساعتك دكتور .. لن تتغير مهما فعلت .. سيتقدّم الوقت بشكل عادي .. أنظر بنفسك .. حاول أن لا تتنفس .. لو كنت تحلم ستستمر في استنشاق الهواء ..
- لماذا تريد أن تثبت لي أنني لا أحلم ؟
- لقد قلت لك دكتور أنني أحتاج مساعدتك .. لقد تمكنت من الفرار من الجزيرة و أريد أن أريك شيئا هناك ..
- أي جزيرة و أي شيء ؟
- يجب أن تصدقني أولا .. ثم يجب أن تتأكد من أنك لا تحلم لكي تتمكن من مساعدتي ..

لقد أيقظ كلام حسن الشك بداخلي وجعلني أقوم بما ذكر سالفا دون أن تبدو حالة التردد على محياي .. لقد نظرت في الساعة وأنا أجلس على كرسي مكتبي دون أن يشعر بي .. و أعدت النظر بعد لحظات خلال حديثنا .. لو كنت أحلم فعلا لأختل توقيت الساعة لأن كل ما يدور في الأحلام هو من تركيب و ترتيب عقلنا الباطن .. لذلك لا يمكنه أن يدقق في جميع الأمور لأنها تكون اعتباطية و دون ترتيب .. وهذا هو السبب في أنها تكون غالباً خليطا من كل شيء في حياتنا اليومية ممزوجا بكلِّ غريب و عجيب نراه و نسمعه لكني أعترف أن هذا الحلم ليس كباقي الأحلام .. إنه جدٌّ منضبط .. كل شيء في مكانه .. كل شيء مرتب و لا يتغير .. و معلومات أسمعها لأول مرة في حياتي لا يمكنني التدقيق في صحّتها الآن و في هذه الظروف ..

إذا ما القصة ؟

ما الجديد ؟

- كيف أمكنك الوقوف حسن ؟ لم تخرج من بيتك لسنين .. فكيف أمكنك الوقوف و الخروج ؟ هل فهمت لماذا أصرُّ أنه حُلم ؟
- لقد أخبرتك دكتور .. لقد شاهدت الكثير و عشت الكثير منذ آخر مكالمة بيننا ..

- ما الذي تقوله حسن ؟ ماذا عشت ؟؟ و ما الذي شاهدت ؟؟ مكالمتنا كانت صبيحة اليوم .. ما الذي عشته و شاهدته لكي تخبرني به منذ الصباح ؟؟
- صحيح دكتور معك حق في هذا التساؤل .. لكن ما سأحكي لك و ما أريدك أن تراه بعينك لن يستسيغه عقلك إذا سمعته فقط .. يجب أن تراه لتصدقني ..

قررت أن أعيش الحلم مع حسن .. فلا دليل قاطع على أني لا أحلم و الدليل على العكس هو حسن نفسه الذي لا يمكنه بالمنطق أن يقف .. ناهيك عن أن يتمكن من زيارتي هنا وهو يزن 245 كيلوغرام..
و يريدني أن أرافقه لأصدّقه ..
قررت أن أعيش الحلم لأنه مهما طال فلن يكون سوى ساعة من غفوة فوق السرير بعيادتي ..

- ما المطلوب مني الآن حـــــســـــن ؟؟
- يجب أن أخبرك بشيء دكتور قبل أن توافق على مساعدتي ..
- ما الأمر حسن .. ؟

يجب أن تعلم دكتور أن موافقتك على مساعدتي قد تكلفك الكثير .. لا أطلب منك دكتور أن تساعدني كطبيب و لكن كصديق .. أريد منك أن تنقذني من الجزيرة .. لكن الأمر ليس سهلا .. قد يكلفك حياتك دكتـــــــــــــــــور ..

- كيف أنقذك من الجزيرة و أنت أمامي ... و لماذا قد يكلفني إنقاذك حياتي ؟
- سأريك كيف ستنقذني إذا وافقت على أن تغامر بحياتك من أجل إنقاذي ..
- هل تعلم أني كنت أجهز مراسيم خطبة الفتاة التي ستكون شريكة حياتي اليوم؟ لقد قدّمت إنقاذ حياتك على مصالحي اليوم .. لكن في إطار عملي كطبيب .. إذا كنت تريد مساعدتي على هذا النحو فلن أبخل عليك بها.. لكن إذا كنت تنتظر أكثر من هذا فلن أكذبك القول .. لا أستطيع أن أغامر بحياتي من أجلك ..

ساد مكتب العيادة صمت طويل بعد رفضي مساعدته (حتى في الحلم) .. لم ينطق حسن بعد ردّي بكلمة واحدة .. كانت نظراته اتجاهي توحي بأنّه

أنزعج من إجابتي .. اتجهت تلك النظرات بعد ذلك الى السجادة الحمراء التي كان يقف عليها .. كانت شفتاه تتحرك و كأنه يقرأ تعويذه سحرية طويلة معقدة لم أفهم منها شيئا .. ثم توقف .. رفع رأسه اتجاهي ثم ابتسم في وجهي قبل أن يجيبني ..

- كنت أظنك صديقي دكتور عماد .. لكن على ما يبدو أنت لست سوى طبيب يعمل بالأجرة .. شكرا لأنك أصغيت إلي و أعتذر عن الإزعاج الذي سببته لك دكتور ..

أنهى جوابه ثم اعتذر و استدار بسرعة و خطى خطوات سريعة نحو باب مكتبي , كانت أمواج الشحم على جسمه تصدر أصواتا كالتصفيق و بقوة نتيجة السرعة التي تحرك بها والأرض تهتز مع كل خطوة .. وقف قرب باب المكتب برهة ممسكا بمقبضه و الحبل بيده الأخرى قبل أن يودعني و يخرج ..

كنت مستعداً لمساعدته لكن عندما تحدث عن أنّ الأمر قد يؤدي بحياتي لم أتردد في الرفض .. إلا حياتي .. لن أضحي بها لأحد .. ليس لدي أطفال بعد .. و حبيبتي التي أنوي خطبتها لم تصل الى تلكم المكانة بحياتي لأضحي بها من أجلها .. و والداي توفيا منذ زمن ..

لكن ... لكن ... إنه مجرد حلم ... لما لا أساعده ..

حاولت أن أستيقظ مرة أخرى لكن دون جدوى .. صفعت نفسي بقوة...

دون جدوى...

مع أني متأكد من أنني أحلم إلا أني رفضت مساعدته .. ولما لا أساعده ما دام مجرد حلم .. لما لا ؟؟؟؟؟

طرحت السؤال عدة مرات قبل أن أركض خلفه و ألحق به ..

ما دمت أحلم فلن يحصل لي شيء و أي مكروه سأحسُّ به أو أعيشه سيكون سببا في أن أستيقظ .. إذاً ما المانع في أن أعيش حلمي كأنه واقع ..

نزلت درج العمارة بسرعة حتى لا أفقده و خرجت الى الشارع .. لقد اختفى لا أثر له هنا ... سألت العجوز نوح حارس العمارة عنه .. فلا يمكن أن تخطئه عين

..السمين العاري الذي يلبس سروال السباحة القصير .. لم يجبني الحارس لكنه أشار بيده اتجاهي .. لم أفهم قصده إلا بعد أن ركزت جيدا في عينيه ..

فوجئت بحـــــســـــــن خلفي قرب سيارتي التي أركنها أمام باب العمارة ..

لم يذهب بعيدا ..

- كنت أعلم أنك ستأتي معي لإنقاذي دكتور (مبتسما)
- كيف ذلك ؟
- أنت إنسان قبل أن تكون طبيبا دكتور عماد ... طلبت منك أن تنقذني .. و لقد فاز خيرك على خوفك ... اليس كذلك ؟
- لا ... أنا مجرد طبيب عادي جدا .. و أنا هنا لست لإنقاذك و لكن لأنني لا أستطيع أن أستيقظ .. بإمكاني أن أغامر بحياتي داخل الحلم فقط و لكن ليس في الواقع ..
- لكن دكتور عماد .. لن تستطيع أن تنقذني إذا كنت تظن أنك تحلم .. يجب أن تأخذ الأمور على محمل الجد لكي تتمكن من إخراجي من الجزيرة ..
- كيف أخرجك و أنت معي الآن يا حسن ؟؟؟؟؟ هل تريد أن تجنني ؟؟؟؟
- لا أستطيع أن أخبرك الآن ... لن تصدقني حتى ترى بعينيك ..
- لنفرض أنني لا أحلم حسن .. ما الذي تريدني أن أفعله الآن ؟
- لا ... لا ... لا أستطيع أن أريك الجزيرة و أنت تؤمن بأنك تحلم ..
- لا عليك حسن .. أنا معك .. لا تخش شيئا ..
- أنت من يجب أن يخشى ما ستراه دكتور ...
- لا عليك حسن أنا مستعد ..
- حسنا دكتور .. لم تسر الأمور كما توقعتها و لكن .. المهم أنك قبلت مساعدتي .. أؤكد لك دكتور أن ما ستراه ليس حلما و لكنها الحقيقة .. لذلك لا تجازف بحياتك و تخاطر على أساس أنك ستستيقظ .. أرجوك ..
- مستعد دكتور ؟
- مستعد ... لكن ما المطلوب منّي الآن ؟

- يجب أن لا نبقى هنا وسط الشارع .. تعال معي هناك الى ذلك الزقاق الصغير على يمين العمارة ... دار الحوار كله أمام العجوز نوح قبل أ نختفي عن أنظاره داخل الزقاق ...
كل ما عليك فعله الآن هو أن تمسك بي من الخلف ... خد هذا الحبل سألفُه علي .. أمسكه من وراء ظهري .. قم بلفِّه على معصميك عدة مرات و تمسك بي جيداً دكتور عماد ..
- لماذا ... ماذا تريد أن تفعل حسن ؟؟
- لا عليك دكتور .. قم بلف الحبل على معصميك و تمسك بكل قوة ..

لم تكن لدي أدنى فكرة عن ما سيفعله حسن .. لكني نفذت ما قاله بالحرف .. ربطت الحبل الملتف حوله عدة مرات على معصماي و التصقت بظهره ..

استحملت رائحة العرق على وجهي فقط لعلمي بأنني أغطّ في نوم عميق داخل عيادتي .. سألني إن كنت مستعدا مرة أخرى قبل أن أرُدَّ بالإيجاب , ثمّ رفع ذراعيه العظيمتين ببطء حتى استقاما مع كتفيه و ضمّهما الى بعضهما كالذي يريد أن يشجع فريقه المفضّل بالتصفيق ..

إلا أنّ حسن صفّق و فعلها مرة واحدة و بقوة هائلة .....

لقد ارتجت الأرض و ارتججت معها .. أحسست بأضراسي توجعني من شدة التقاء كفّيه ببعضهما البعض ..لو كنت أحلم لاستيقظت .. لكن لم يحدث .. ما زلت هنا ملتصقا بظهره .. لقد أحدث شبه انفجار صوتي بيده .. قام بعدها بالتحرك بي نحو الشارع قبالة العمارة بخطوات كبيرة كالتي يقوم بها محاربو السومو في اليابان .. كنت ملتصقا تماما به بواسطة الحبل الملتف حوله .. ألقيت النظر نحو الشارع الرئيسي للعمارة لأرى ردة فعل الناس اتجاه الصدى الذي أحدثه , لكني وجدتهم كالتماثيل في المتاحف .. السيارات تـــــــوقفت هي أيضا ..

لقد أوقـــــــــف هذا الوحــش الزمـــــن عند الناس ..

أحسست بنفسي أقترب الى الأرض معه و فهمت أنه أنحني قليلا كمن سيتخذ وضعية الجلوس .. إلا أن حسن لم يجلس .. لقد ضغط على الأرض تحت قدميه و دفع بنا عاليا بقوة أحدثت صدعا و حفرة كبيرة بالأرض ..

لقد قـــفـــز حسن بي عاليا و أنا على ظهره بقوة هائلة ...

إنه ليس حلما ..

و لو كان حلما ..

فإنه أروع حلم أعيشه في حياتي ... إنه .. إنه لم يقفز ... لا .... لا ... لا أصدق ...

إنّه .. يُـــحـــلّـــق ... إنـــي .. أطير على ظهر حسن و أرتفع معه ..

لم أنطق بكلمة واحدة أمام هذا المشهد الغريب العجيب الرائع ..

رياح قويـــة ..

كلّ بدني يشعُر بها وبقوتها ..

شعري القصير رفرف كالأعلام الوطنية فوق الأعمدة أثناء العواصف..

نظرت الى الأرض تحتنا... إنني أرى مدينة الرباط كاملة من شمالها الى جنوبها و من شرقها الى غربها ..

و البحر و الغابات حولها ..

ها هو نهر أبي رقراق الكبير يبدو كخيط رفيع .. كل شيء أصبح صغيرا في عيني ثمّ تافها .. توقف الوحـــــش في السماء عاليا لحظة قبل أن ينظر جهة المحيط و يخبرني بصوته الطفولي و نحن في الأعال أنّ وِجهتنا ستكون الى هناك ..

و أشار بكل ذراعه الى البحر ..

لم أعلم في البداية أنّه كان يطير ببطء حتى يحدد هدفه .. كان التحليق العمودي نزهة رائعة..

استقام أفقيا ببطء ....

ثمّ انطـــلـــق بسرعة خـارقة ..

لقد خلّف ورائنا انفجارا و هالة ذو بياض خفيف مستدير كالذي تحدثه طائرات ال F16 الأمريكية ..

لقد أحسست وجنتاي ترفرفان كأجنحة البعوض و لم يُغْنِ لحم وجهي من أن تظهر تفاصيل جمجمتي الصغيرة ..

سرعة مجنونة ..

لقد انطلق بأسرع من صوتنا .. أسرع من سرعة الصوت نحو الجزيرة .

تحت البحر

مرّت قرابة النصف ساعة و أنا على ظهر حسن و هو يطير بسرعة خارقة ..

لقد تجمدت عظامي من البرد و لم أعد أحسُّ بالألم الذي كنت أشعر به في معصماي عند بداية هذه الرحلة المكوكية القصيرة التي لن يكن لجسمي أن يتحملها أكثر من ذلك .. بدأ الدم يتجمد في عروقي من شدة القر .. لقد آثّر ضغط الجو و السرعة الفائقة على دورتي الدموية .. لم أعد أتحمل الصفير القاتل في آذاني .. صرخت بأعلى صوتي لكي يتوقف .. ثمّ صرخت و صرخت الى أن توقف في الجو بشكل عـــــــــــمـــــــودي و بـــــهـــدوء ..

لم أستطع أن أتمسك به كالبداية .. لقد خارت قِواي تماما .. أحسست بجسمي يتدلى من عليه رغم الحبل الملفوف حول يداي .. إني أسقط و أنزلق من على ظهره ببطء على ارتفاع 5000 متر في السماء أو أكثر .. لم يتبق لي من الطاقة حتى ما يمكنني من قول كلمة .. أنقذني .. لا تتركني أسقط .. حتى لو كنت أحلم لا أريد أن أستيقظ بهذا الشكل ..

أحسست بكفه السمينة تمسكني قبل أن أهوى في البحر .. كنت أفتح عيناي و أغلقهما بسبب حالة الفشل التي أصبحت أحس بها .. لا يوجد سوى المحيط تحتنا ..

- لا تخف دكتور عماد .. ما دمت معك لا تخش شيئا ..

لم أستطع أن أجيبه .. فلا طاقة تبقّت لدي لقول شيء .. كان يتحدث لوحده معي .. دون أن أجيبه ..

- اسمعني جيداً دكتور عماد و لا تخف .. سأتركك تـــقـــع للحظات و سأمسك بك قبل أن تسقط في قاع البحر .. لا تخف لن أتركك تقع.. موافق ؟

ماذا ؟؟؟
ما الذي يقوله هذا الأخرق .. لم يكن لدي من الطاقة لأضربه و أصرخ إن استطعت ..
يتركني أقع من السماء على بعد خمس كيلومترات من البحر ...
ما الذي جعلني أغوص في هذا الحلم الغبي ..
كان علي أن أتركه ينتحر في منزله ..
ما الذي جعلني أذهب لمساعدته ؟؟

- لماذا لا تجيب دكتور ؟؟ هل أنت موافق ؟؟ ..... أرى أنّ السرعة أثرت عليك ... أنت لا تستطيع أن تتكلم .. ناهيك أن أتركك تسبح في البحر للحظات .. لقد اقتربنا من الجزيرة .. خمس دقائق و نصل .. لكن يجب أن أؤمِّـــــــن دخولنا هناك ..
إنها مراقبة .. أغلق عينيك وافتحهما إن كنت موافقا..

الحمد لله .. إنه يستشيرني قبل أن يرميني بعرض البحر .. لقد قال..
إن كنتُ موافقا على عرضه يجب علي أن أغلق عيناي و أفتحهما ..
أغلقتهما طويلا حتى انكمش وجهي كله علّه يفهم أني غير موافق ..
انتظرت قرابة العشر ثوان حتى يفهم أني أرفض تماما أن يرميني بعرض البحر .. ثمّ فتحتهما .. فإذا به يبتســـم في وجهي و يخبرني بأنه منبهر جداً بشجـــاعتي .. و أن سقوطي سيستغرق ثمانية دقائق و هي كافية جداً لما يريد أن يقوم به ..

لقد تركني هذا الحـــيـــوان أسقط في عرض البحر و ليس لدي حتى القوة لأصرخ قبل الموت ..
لم يكن ينقصني شيء .. ما الذي كان ينقصني حتى أوافق على عرض هذا المخبول الذي يعشق السينما حتى الثمالة ... و ها أنا أغوص داخل حلم مجنون ..

لقد صرخت و صرخت دون أن أصرخ ... كل شيء كان بداخلي ..
المفروض أن أستيقظ الآن .. يجب أن أستيقظ ..
طردت الخوف من ذهني بقوة ..
إنّه حلم و سأستفيق حينما أسقط في عرض البحر ..
كررتها عدة مرّات حتى أطرد الإحساس بقرب الموت ..
لقد هويت بسرعة .. كان جسدي يتلوّى و يتدحرج و يتقلب في السماء مرات عديدة .. تمكنت بعد شيء من التركيز أن أحصل على التوازن المناسب الذي يسمح لي برؤية البحر تحتي مباشرة ..
إذا كنت أحلم فسأستفيق بعد السقوط مباشرة , لقد تمكنت من مشاهدة البحر بشكل واضح , كنت أريد أن أرى حسن الذي تركني و بقي متسمراً هناك حيت رماني , لكني إذا فعلتها سأفقد توازني .. قطع حبل هذه الخاطرة حسن نفسه ..
لقد مـــــرّ بجنبي بسرعة و نزل الى البحر .. لم أكن أعلم ما الذي يريد أن يفعله الوحش مرة أخرى ..
حاولت جيدا أن لا أفقده .. تتبّعته ببصري حتى أرى ما سيحدث علّني أفهم قصده و نيّته , أو أفهم الموضوع برُمّته , لكن ما رأيت لم يزد الطين إلاّ بلّه .. و ازددت حيرة بعد حيرة من هذا الحلم ..
لقد رأيته يسبقني الى سطح البحر و يلج فيه بقوة هائلة كقنبلة ديناميت عندما تنفجر في الماء و تخلِّف سحابة كبيرة بيضاء ..
...
.....
.....
.....
اختفى للحظات قبل أن يخرج من البحر و بقوة مرة أخرى ..
طار عاليا حتى اقترب مني و أنا أهوي طائرا في السماء ..
كانت مياه البحر تتقاطر من على بدنه الضخم و هو يحلق بنظره حيث كان.
ثم عاد مرة أخرى الى نفس المكان , انتظر قليلا .. ثم فهمت ..
لقد فـــــــجَّـــــرَ حسن غــواصـــة عظيمة تحت مياه البحر ..

لقد رأيت بأم عيني غواصة تأكلها النيران و هي تخرج من عرض البحر و قد شُطرت نصفين .. ثم رأيت عشرات البشر يخرجون منها و الأكيد أنهم كانوا يصطرخون من هول النيران التي كانت تلتهم جلود بعضهم و صعقة الموت غرقا لمن تمكن من النجاة من اللهب ..
لم يكتف حسن بتفجير الغواصة و إحراقها .. لقد كانت عودته المرة الثانية لسبب أخر .. لم أتمكن من رؤية الأمر بشكل دقيق و لكني شاهدت النتيجة. .

لقد رماهم الوحش بكرة لهب عظيمة خرجت من يديه أحرق بها الجميع أحياء فوق بقايا غواصتهم .. لقد قتل أناسا بعدما أصبحوا بلا حول و لا قوّة.
لقد أنساني المشهد نفسي و سقوطي من على كيلومترات من السماء..
اختطفني حسن لحظات قبل الوقوع .. و أمسكني بقوة هذه المرة بيده اليمنى و لفّها حول حوضي كنعجة صغيرة سيقودها صاحبها الى السوق ليبيعها و طار بقوة اتجاه الجزيرة المزعومة ..

- لم يتبق سوى دقيقة و نصل دكتور عماد (مبتسما)..
- .....
- أرى أنك أجهدت في هذه الرحلة .. ستتحسن بعد الوصول الى الجزيرة دكتور .. سترى ..

الجزيرة

وصلنا الجزيرة بعد خمس دقائق كما ذكر لي قبل أن يتجه نحوها ..
إنها فعلاً جزيرة وسط المحيط الأطلسي .. لقد فكرت ملياً قبل أن ينزل بي هناك ..
كيف يمكن أن تكون هذه الجزيرة حقيقة ؟
لقد أقلع بي حسن من مدينة الرباط التي تقع على ساحل المحيط الأطلسي ..
و طار بنا لمدة النصف ساعة أو يزيد حسب ساعتي اليدوية بسرعة خارقة أكاد أجزم أنها وصلت الى سرعة الصوت و التي هي على حد علمي تقارب الالف و مائتا كيلومتر في الساعة ..
بمعنى أننا قطعنا قرابة الستمائة و خمسون كيلومتر في البحر ..
إذن لا ينبغي أن توجد هنا أي جزيرة لأن أقربها منا نحن في المغرب حسب علمي أيضا هي جزر هاواي الشهيرة و تبعد عنا قرابة الأربعة ألاف كيلومتر ..
إذن ...
هذا دلـــيـــل آخر على أني أحلم .. نعم أنا أحلم ..

أحسست قبل الوصول بتحسن حالتي لأنه يطير بسرعة جد متوسطة و قريب جدا من سطح البحر الذي كان هادئا جدا و صافيا حيث كنت أرى مجموعات الدلافين الرائعة تسبح تحتنا و الشعب المرجانية الجميلة الحمراء و الأعشاب البحرية من كل لون و شكل.. كان مشهداً رائعا ..
نزل بي حسن على شاطئ الجزيرة بهدوء , زرعت قدماي وسط الرمال لتدبّ الحياة فيهما من جديد و في عروقي و جسدي أيضا..
رميت بنفسي في الرمال الذهبية الدافئة و غرست وجهي بها كما لو كنت أحضن شخصا عزيزا علي لم أره منذ زمن .. لقد كان إحساسا جميلا و شعورا بالعودة للحياة .. قمت ببطء ..
وقفت و عدت الى أمواج الشاطئ الهادئة و ارتميت بها لأعانقها أيضا ..
لقد قررت أني سأقضي شهر العسل مع خطيبتي بعد الزواج في جزيرة من جزر المالديف الرائعة..

لكن في الواقع .. ليس في الأحلام .. رغم أني أحسُّ بكل شيء هنا .. دفئ الشمس و الرمال الذهبية ... و روعة أمواج البحر الصافية الناصعة البياض ..
لقد نسيت حسن للحظات .. استدرت نحوه لأرى ما الذي كان يفعل بينما كنت ألعب كالأطفال .. كان واقفا ينتظرني أن أفرغ من اللعب و يحدق بي بنظرات بها شيء من الغضب .. كالأب الذي يراقب طفله يلعب..
أمعنت النظر به أيضا كما يفعل لكن المشهد خلفه جعلني أنساه مرة أخرى..
جـــــبـــــال عظيمة مغطاة عن بكرة أبيها بأشجار عظيمة كونت غابات رائعة..
جبال مكسوة بالخضرة من تحتها الى فوقها ..
إنها تشبه الغابات الموجودة في غينيا الاستوائية .. إلا أنها توجد وسط جزيرة في قلب البحر ..
كان مشهداً خلّابا آخر أراه ..

- ماذا تنتظر دكتور ؟
- ألم يحن الوقت لأستيقظ ؟
- يجب أن تخرج من الماء ..
- لماذا؟
- لأن أسماك القـــــــــــرش لن تترك لحما على عظامك إذا ما أحسّت بوجودك هناك ..

خرجت مسرعا بعد الذي سمعته .. لم أكن أعرف هل كان يمزح أم هي الحقيقة .. لكني لم أكن أرغب أن أستفيق على أسماك القرش و هي تنهش لحمي ..

- لم تكن تقصد سوى إخافتي يا هذا ...
- لا دكتور .. أنا لا أكذب .. توجد مئات الأنواع من أسماك القرش هنا و أصناف أخرى أشد فتكا بالإنسان .. لقد وجدت مرتعاً آمنا هنا بهذه الجزيرة .. لا يوجد من يقتلها أو يصطادها ..

- لقد سألتك و لم تجب .. ألم يحن الوقت لاستيقظ ؟
- لقد أخبرتك دكتور أنك لا تحلم .. لو كنت تحلم لما أثر الطيران عليك في الجو بفعل الضغط .. و لما أغمي عليك .. هل تذكر و لو مرّة أن قد أغمي عليك في حلم ما ؟
- صحيح لا أذكر و لكن .. أذكر أن في الأحلام فقط يوجد أشخاص يطيرون و يقذفون اللهب من أيديهم و يفجرون الغواصات في أعماق البحر ..
- أرى أن لا أمل فيك دكتور .. اتبعني و أسكت و لا تتكلم معي بعد الآن..
- أين تريدني أن أتبعك ؟ لن أفعل .. سأبقى هنا إلى أن أستيقظ .. المكان رائع..
- لا يمكنك أن تبقى هنا .. سوف تموت .. سيقتلونك ..
- لا أريد أن أسمع .. أنا متأكد أن كل ما أرى مجرد حلم .. لقد قررت أن أساعدك فقط هنا .. لكني عندما رأيتك تحرق بشرا أحياء علمت أنك لا تستحق أن يساعدك أحد ..
- أنت لا تعلم دكتور عماد ما الذي يفعل هؤلاء القوم في الجزيرة .. إن الجهل بالأشياء مصيبة .. فعلا مصيبة ..
- حسنا لماذا لا تخبرني بكل شيء حتى أصدقك و أنقذك كما تقول ..
- اتبعني دكتور و سترى بعينيك ..
- أجبني أولاً و إلاّ لن أتبعك حسن .. سأبقى هنا الى أن أستيقظ ..
- آه .... لقد كانت مـــــــــاريا على حـــــق .. ليتني لم آت بك الى هنا ..
- مـــــــــــاريا .. من هي مـــــاريا ؟؟
- إنس الأمر دكتور ...
- من هي مـــــاريا ؟؟
- لقد وقعت في ورطة .. لا يمكنني أن أتركك هنا لأنك ستموت و بطريقة بشعة و لا يمكنك أن تنقذني لأنك فعلا غبي رعديد .. لا أدري ما العمل ..
- أنا غبي .. و رعديد ... فعلا أنا غبي لأني قررت مساعدتك .. في الواقع و في الحلم ..
- أنـــــــــت لا تـــــــحـــــــــلـــــــــــم (يصرخ بقوة)

ارتعدت الأشجار خلفه و انفضت حوله دائرة كبيرة من الرمال الشاطئية بسبب صرخته .. لقد أغضبته فعلا ..

- ... يا إلهي ماذا فعلت .... لقد صدقت مـــــاريـــا .. ها أنا عرضت حياتك للخطر دون جدوى .. لقد أخطأت عندما أحضرتك الى هنا دون أن تصدق بأنّك لا تحلم .. يجب أن أعيدك إلى عيادتك قبل أن يصلوا .. لم يكن علي أن أغضب و أصرخ ..أنا متأكد من أنهم سمعوا صرختي .. خذ الحبل دكتور يجب أن أعيدك حالا ..

كانت هذه آخر جملة سمعتها من حسن الوحش الخارق قبل أن أشاهد ما لم يخطر على قلب بشر ...
قبل أن أسمع العجب و أرى العجب ..
قبل أن أرى القوة الحقيقية في كلِّ تجلِّياتها ..

الوحـــــــــيـــــــد

ما إن أكمل حسن جملته حتى بدأت الأرض ترتعد تحت قدماي .. لم يكن زلزالا و لكنه كان هديرا قويا يشبه الموجات الكهرومغناطيسية الهائلة أو كالصوت الذي تصدره المولدات الكهربائية التي توفر الطاقة للمدن ..

رأيت حسن ينظر الي بإشفاق قبل أن يرفع رأسه الى السماء و يعضَّ على أسنانه كالمصارع الغاضب الذي يوشك أن يبدأ مبارزة على حلبة القتال ...

رأيته يضغط برجله اليمنى بقوة و ينحني قليلا قبل أن ينطلق على يمينه بسرعة خارقة و يختفي ليترك ورائه عاصفة رملية كبيرة ..

لم تكد تختفي الرمال التي ترك عن يمينه حتى نزل من السماء ضوء أزرق شديد القوة خافت اللون أحدث بدوره انفجارا صغيرا في المكان الذي كان يقف فيه حسن لكنه كان كافيا ليقذفني الى الخلف ... كنت واقفا على مشارف الشاطئ فوق الرمال , لكن الضربة من السماء قذفتني اتجاه البحر بضعة أمتار..

لم أفهم ما الذي حصل حتى و جدت نفسي تحت الماء , كان علي أن أخرج بسرعة لأني لا أجيد السباحة و الغوص ..

سارعت في الأمر لكي أستنشق الحياة , و قبل أن أخرج من الماء اختطفني حسن بقوة رهيبة أوجعتني بأضلعي ..

لقد نزل الضـــــوء الأزرق مرة أخرى في المكان الذي كنت فيه و خلف انفجارا آخر في الماء .. لكنه هذه المرة ترك بركة من الدماء ..

لقد أنقذني حسن من الليزر الأزرق الذي ينزل من السماء و من أسماك القرش التي كانت تريد أن تفترسني حيا .. لقد فجرها الضوء الأزرق و جعلها أشلاء ..

عاد بي حسن الى الرمال بهدوء و وضعني أرضاً .. كانت أضلعي تؤلمني بسبب القوة التي أخرجني بها من الماء ..

رفع يده الى السماء و صرخ بقوة ..

- إذا كنتم تريدونني فيجب عليكم أن تتركوه و شأنه .. سأستسلم لكم بشرط أن تدعوه و شأنه..

لم أعرف مع من يتحدث حسن لكنه لم يتلق إجابة , كرّر العرض ثلاث مرات , عاد بعدها الهدوء الذي كان في الجزيرة عند وصولنا .. لقد اختفى ذلك الهدير القوي الذي لم يكن سوى الصوت الذي يسبق إطلاق الليزر علينا.
خرج فجأة أسفل الجبل قبالة الشاطئ و من بين أشجار الجزيرة شاب وسيم في الثلاثين من العمر يرتدي قميصا مزركشا بالألوان و الزهور مختلفة الألوان و سروالا أبيضا كما كان حافي القدمين , تحسبه سائحا في منتجع صيفي أو في جزر هاواي , سَوِي القامة معتدل الطول , أشقر ذو وجه ناصع البياض و عينان زرقاوان و أنف و شفتان نحيفان ذو ملامح بريئة و جميلة أحسب أنّ خطيبتي ستتركني إن تعرّفت على شاب كهذا ..
كان بصحبته عشرات الأشخاص اللذين يتبعونه مدججين بالأسلحة الاوتوماتيكية المختلفة يرتدون أقنعة سوداء و زيّاً أسود موحد , كانت الواقيات الصدرية السوداء تبدو جلية عليهم , و سراويلهم المثخنة بالجيوب الجانبية لحمل ما يكفي من الذخيرة تثقل مشيتهم ..
نظر السائح اتجاه حسن ثم دار الحديث التالي بينهما ..

- أرى أنهم يريدون القبض عـلـــيـــه بكل ما أوتوا من قوة لكي يرسلوا أقـــــــــــــــوى جندي لديهم .. أليس كذلك جـــــــــــاك ؟
- (مبتسما) أنت لا تعرف أهـــمـــيـــتـــه عندنا حسن .. هل كنت تظنه سينقذك منّا ؟
- لا أحد يعرف أهميته سوى الحـــــــكـــــيـــم .. وسينقذني .. لكن ليس الآن إنه غير مستعد ..
- إذا كان العجوز يرى أنه مهم .. إذا فهو مهم عندنا أيضا ..
- لن أطيل الحديث معك أيها المتعجرف ... يجب أن أعيده من حيث جئت به و لك أن أسلم نفسي .. إذا رفضتَ العرض فلن يكون من سبيل سوى القتال

.. و أنت تعلم جيدا أن بإمكاني أن أؤذيك جاك .. أما هؤلاء المرتزقة فسأحرقهم قبل أن ترمُش أعينهم ..

- سأقدم لك عرضا آخر أيها السمين الغبي .. سأقتلك ثم آخذ صديقك الى مختبراتنا لنرى ما الذي جعله مهما بأعين العـــــــــجـــــــــوز...

كنت على بعد عشرات الأمتار منهم أرى المشهد و أسمع دون أن أفهم شيئاً من حديثهم ..

أي حكيم ؟ ومن هو المهم ؟ من هو هذا العجوز ...

ابتسم جـــــــــاك في وجه حسن و طأطأ برأسه يمينا بهدوء و كأنه يستهزأ به ثمّ اخـــتـــفى من مكانه لأجده يحدق بي على بعد سنتمترات من وجهي و يبتسم ..

إنه أســـــــــرع من حسن بكثير .. لقد كانت سرعته آنية...

لم يتطلب الأمر حتى الجزء من الثانية لأجده يحدق بي و يقول ..

- ما الذي تملكه يا هذا حتى يقول عنك العجوز أنك الـــــوحـــــيـــــد؟؟؟

لم أستطع الإجابة أو الحركة أو حتى التنفس ..
من هؤلاء ؟
من هذا الذي يتكلم معي ؟
أي عجوز ؟
ما هذا الحلم الذي لا يـــــريد أن ينتهـــــــــــي ؟

عشت فترات صعبة في هذا الكابوس الذي كانت فيه مقابلة مـــاريـــا هي الحلم الرائع داخل الحلم ..

مـــــاريـــــــــــــــا

ارتجت الأرض من تحتي بينما كان جاك يحدق بوجهي عن قريب .. لم أرى ما حصل و لم يكترث جاك بالأمر بتاتاً .. و فهمت من صوت صراخ الجنود الذين قدموا معه أن حسن هاجمهم , استدرت مذعوراً نحوهم , وفوجئت بهم و قد اختفوا من المشهد و لا و جود لحسن أيضا ..
ما إن عدت لأنظر الى جاك بوجهي حتى اختفى من أمامي و انشطرت احدى الأشجار على يميني الى نصفين و انفجرت التي خلفها و اشتعلت الثالثة بالنيران ..
إنه حسن يخرج من بين الأشجار .. لقد حاول أن يقضي على جاك لكن الأخير اختفى قبل أن يلمسه السمين الخارق ..
ثم بدأت السماء فوقي تمتلئ صراخا و تـــــمـــــطـــــر بشراً ..
لقد قام حسن حين كان جاك يتأمّلني بخطف الجنود الى سماء الجزيرة و قذفهم هناك قبل أن يعود ليقاتل جاك ..
سقط الجنود صرعى حولي دون حراك و كأنهم دمى تم كسرها من طرف أطفال أشقياء .. ثمّ ظهر فجأة حسن بجانبي و علامات الغضب بادية على وجهه .. أمسك ذراعي و جذبني نحوه بقوة و أتخذ الوضعية التي يقوم بها قبل أن يطير ..
ضرب بساقيه بقوّة و قفز بنا قفزة هائلة في السماء لكن جاك الوسيم لم يسمح له بذلك ..
لقد لحق بنا جاك في السماء و أمسك حسن من الشحم المتدلي من بطنه بيده الصغيرة و بقوة رمى بنا نحن الاثنان نحو الشاطئ ..
إنّه شيء خارق لا يصدقه عقل ..
كان لا بدّ من أن أستيقظ من هذا الكابوس ..
ظننت أن رمية جاك القوية لنا كانت ستكون كفيلة بإيقاظي ..
لكن لم يحصل .. لقد قُذف حسن وسط الغابة بسبب وزنه و أخذ يتدحرج ككرة الثلج وسط الأشجار ..
قوة جاك أحدثت طريقا بجسم حسن وسط الغابة ..

أما أنا فكان سقوطي بشكل عمودي وسط رمال الشاطئ .. لم يُكسر عظم لكن قوة الارتطام بالأرض جعلتني أرغب في أن أتقيأ أحشائي .. تألمت كثيراً لدرجة الرغبة في البكاء .. أحسست بألمٍ فظيع ببطني..
كنت أشاهد جاك من موقعي و أتضور ألماً و هو يبتسم في السماء عاليا باسطا ذراعيه وكأنه المسيح المصلوب مُحْكِماً قبضة يديه كملاكم تمكن من القضاء على خصمه بالضربة القاضية رافعا رأسه نحو السماء في خشوع..
كان قميصه المزركش و سرواله الأبيض يرفرفان بسبب الرياح القوية التي خلفها صراع الجبابرة على ظهر الجزيرة الهادئة ..
سمعت خلفي صوت صرخة حسن المدوية وسط الأشجار ثم انفجار ..
علمت أنه ضرب بكفيه بقوة كما فعل أول مرة رأيته في الحلم .. تسمّر جاك في السماء بسبب الصعقة التي لم تنل مِنّي .. لقد فهمت أنّ لدى حسن القدرة على تحديد و إصابة أهدافه بدقّة بواسطة الانفجار الصوتي الذي تخلفه يداه .. ثمّ رأيته يخرج خلفي بين الأشجار بقوة خارقة نحو جاك الذي بدت عليه علامات الدهشة من قنبلة حسن التي تُوقف كل شيء ليدفعه الى الأعلى ثم الى الأعلى الى أن اختفيا في السماء ..
لم يتبق لدي من الطاقة ما يجعلني أتكلم أو أفكر أو أنطق .. كلّ ما أريد الآن هو أن أستيقظ .. مازال الألم فظيعا لا يطاق .. يجب أن أستيقظ من هذا الكابوس .. يا إلهي ...
وضعت رأسي على رمال الشاطئ و ركزت على الألم الذي أحس به علّني أخفف من حدته لأني أكيد سأستيقظ .. يجب علي فقط أن أركّز جيداً ..
كانت اللحظة الفارقة في قصتي هاته هي حين رفعت رأسي لأقلِّب بعيني عن المحاربان.. لكني لم أرهما بل رأيتها هـــــــــــــــــــي ..
كانت أوّل مرة أشاهدها .. إنها مـــــــــــــاريـــــــــــا ..

وجدتها تقف قرب قدماي و تقترب مني , رفعت رأسي لأدقق في أمر هذا الحلم ..
إنها شابة في مقتبل العمر متوسطة القامة ذو شعر قصير أسود ممزوج ببعض الخصلات البيضاء , عينان سوداوان كبيران و أنف طفولي وشفتان كبيرتان ذو ملامح آسيوية .. لكنها أجمل الآسيويات على الإطلاق ..

كانت ترتدي خماراً أسود لم يكن يغطي شعرها كلّه و قميصا و سروالا واسعين أنيقين لا يُظهران شيئا من ملامح جسمها .. إلا أن الرشاقة كانت جليّة من حركتها نحوي ..
كان الألم يمنعني كليا من الكلام و كنت أقرب الى الإغماء في أي حين منه الى الوعي .. لم أذكر كل كلامها إلا ما وعيت و سمعت ..

- دكتور هل تسمعني ؟
- ن.....ع.....
- لا تقلق دكتور .. أنا مـــــــاريـــــــــا .. أنا هنا لمساعدتك ..لكن يجب أن نسرع قبل أن يعود جاك .. لن يستطيع حسن أن يوقفه أكثر ..

أمسكَت بيدي و أغمضت عينيها قليلا قبل أن تفتحهما و تسألني ..

- هل تسكن مدينة الرباط ..... بالمغرب ؟
- ن.....
- أرى أن الإصابة خطيرة .. حرك فقط رأسك ..
- ....
- حسنا .. سأنقلك هناك دكتور .. لكني أريد منك أن تفكر في عيادتك الآن .. حاول أن تراها في مخيلتك ..
- ....
- هل فعلت ؟
- ....
- حسنا دكتور ..

أغمضت عيناي و عدت بمخيلتي الى العيادة كما قالت ثمّ فتحتهما ببطء ..

لقد خارت قواي كليا .. لم يعد بمقدوري حتى أن أفتحهما .. كان آخر شيء رأيته هو وجه مـــــاريـــــا الرائع ..

ثم الحرب فوق رأسها ..

برق و رعد و نيران و تفجيرات بسبب قتال جـــــــــــاك و حـــســـن في السماء .. إنها القوة في أبهى حللها .. إنها حرب الجبابرة...

لقد تغير احساس ظهري برمال الشاطئ ..

إنها ليست رمال الشاطئ ..

بل هو ســـــرير عـــــــيـــــادتـــــي ..

لقد أعادتني الى العيادة بمجرّد أن تخيّلتها و هي تمسك يدي ..

مـــــاريـــــا أيضا خـــــــــــارقـــــــــــة مثلهم ..

هـــــــــــا أنـــــــــــا في عـــــيـــــادتـــــي بصحبة حسناء جميلة لا أعلم عنها شيئا كالجزيرة و جاك و الجنود و الخوارق التي شاهدت ..

لم أكن أراها .. لا أستطيع .. كنت فقط أحس بها جواري و هي تتحدث إلي ..

- أعلم أنك تسمعني دكتور .. لقد عدت بك الى عيادتك .. لكنك مصاب و تحتاج الى العلاج فورا .. لديك نزيف داخلي حاد في المعي الدقيق .. سأجعل كاتبتك تتصل بالإسعاف حالا .. يجب أن تذهب الى المستشفى .. سأتركك دكتور .. يجب أن أعود لمساعدة حسن .. سيقتله جاك إن لم أنقذه .. يجب أن تعذره لأنه أدخلك في هذه المتاهة .. إنه يؤمن بأنك الوحـــــــيـــــد القادر على إنقاذه .. إنه يؤمن بكل ما يقوله الحكيم .. لقد نصحته بأن لا يحضرك الى الجزيرة لكنه لم ينصت الي .. أعلم أنّ الحـــــكـــــيـــــم دائماً على حق , لكنك غير مستعد الآن .. سيأتي اليوم الذي ستصبح فيه قادراً على مجابهة الجزيرة كما قال الحكيم.. آنذاك سأساندك لكي تنتصر عليهم .. كلنا نـــنـــتـــظـــرك دكتور عماد ..

ثم اختفى صوتها فجأة .. مازال الألم يعتصر أحشائي .. سمعت هاتف مكتبي يرن .. لا أحد يجيب .. ما زال يرن ..الى أن سمعت الكاتبة تدخل ..

ثم تـــصـــرخ و تـــــصـــــرخ الى أن اختفى صوتها هي أيضا ..

السؤال

لقد اختفى كلّ شيء فجأة و لم أعد أرى أو أسمع شيئا .. ظلام دامس و هدوء ثم هدوء بلا حدود .. لكنه هدوء يحمل بين ثناياه راحة لبدني .. لم أعد أحس بأضلعي تؤلمني نتيجة ما حصل لي مع حسن و اختفى الألم الذي تسبب لي فيه جاك ..
لكني لم أكن أعلم أين أنا ؟
هل استيقظت ؟
أم تراني ما زلت نائما ..
كانت الراحة التي أحس بها تمنعني من التفكير في الأمر مليّا ..
المهم أن لا شيء يوجعني ..
بقيت على تلك الحال ما لم أكن أستطيع تحديد زمانه أو مكانه الى أن بدأت أسمع الأصوات المختلفة تدور حولي .. كانت أصواتا مألوفة ..
أنا أعرفهم .. نعم أعرفهم ... بل هذا الصوت بالضبط ..أعرفه ..
إنّه صوت والـــــدة نـــــوار خطيبتي .. أو التي ستصبح خطيبتي ..
إنها تحدث شخصا ما قربي ..
إنه يشرح لها حالتي ..
أين أنا ؟
و ما الذي حصل ؟
كانت أول محاولة مني لأستيقظ بعد كلِّ ذلك الهدوء ..
لقد فتحت عيناي بعد جهد جهيد ..

إنني في غرفة كبيرة ناصعة البياض .. و هناك في ركن الغرفة قرب التلفاز الكبير المعلق توجد والدة نوار بجلبابها المغربي التقليدي الجميل تكلم شخصا .. يبدو من بدلته البيضاء أنه طبيب ..
ما الذي حصل ؟
لقد تقدمت الي والدة نوار بسرعة بعد أن رأتني و قد فتحت عيناي ..

- الحمد لله على سلامتك يا بني .. لقد ظننّا أننا سنفقدك ..

أجابها الطبيب الشاب بأن لا تقلق و أنّ حالتي ستتحسّن بعد أيّام لأني اجتزت مرحلة الخطر ..
لم أفهم ما الذي حدث .. أغمضت عيناي وغصت في الظلام الهادئ مرة أخرى ..
كنت أحس بالحركة حولي أحيانا و كنت متأكدا أنها دورية الممرضة و متابعة الطبيب لحالتي و زيارات نوار و عائلتها ..
بدأت نسبة الوعي بما يدور بجنباتي ترتفع .... لقد تمكنت من أن أفتح عيناي و أسمع .. لكن ما كان يهمني ساعتها هو القدرة على النطق .. كنت أحتاج أن أتكلم و أن أسئل وأعرف .. كنت أريد أن أعرف ما الذي حلّ بي لأرقد في المستشفى ..
كلُّ ما أذكر هو أنني كنت نائما في عيادتي ..
فُتح باب الغرفة و دخل الطبيب الشاب ليفاجئ بي و قد تمكنت من الوقوف و ليس النطق فقط .. كانت رغبتي في معرفة سبب ما حصل لي هي المولّد للطاقة التي جعلتني أقف .. ركض نحوي و أمسكني بلطف و أعادني الى سريري و هو يمزح معي ...

- لا .. لا .. ما هكذا ينبغي أن تكون الأمور .. اجلس أرجوك ..
- ما ... ما ... ال.....ذي حصل .. ؟؟
- لا تقلق دكتور عماد .. الأمور على أفضل ما يرام الآن .. لقد تجاوزت مرحلة الخطر ..
- ل...ل....لكن .... ما ... ما الذي حصل لي ..
- لقد تعرضت لنزيف حاد في المعـــي الدقيق دكتور ..لقد وجدتك كاتبتك في مكتب عيادتك أرضا قرب السرير الذي كنت مسترخيا عليه و قد تقيأت دما من فمك .. اتصلت بالإسعاف وأحضروك هنا الى مستشفى العاصمة..
أجريت لك عملية جراحية في الحين تُوّجت بالنجاح و الحمد لله ..
كما أظهرت الفحوصات كسرا خفيفا في ضلعك الأيمن .. ستتعافى منه قريبا دون عملية إنشاء الله .. هذا كل ما حصل دكتور ..

- لكن كيف يمكن أن يقع لي نزيف داخلي ؟ و كسر في ضلعي و أنا نائم ..
- بالنسبة للنزيف فهذا أمر عادي يقع للعديد من المرضى اللذين يشكون من مشاكل في جهازهم الهضمي أو عند التعرض لحادث أو عند ممارسة الرياضة بشكل عنيف .. لكن في حالتك أظن أنك قمت بمجهود لم تعره اهتمامك كان السبب في النزيف و عند نومك تطور الأمر .. أما بالنسبة لضلعك فليس لدي تفسير .. لكن الأكيد أنك تعلم السبب ..
- لا أعلم شيئا .. لم أقم بمجهود يذكر .. و لا أمارس الرياضة .. و ليس لدي مشاكل في جهازي الهضمي .. كيف يمكن أن يحصل لي نزيف و يكسر لي ضلع إذن ؟
- لا أعلم دكتور عماد .. من الممكن أن سقطتك من على سريرك حتى ولو على السجاد أدّت الى كسر الضلع .. و من الممكن أن تكون لديك مشاكل في جهازك الهضمي و أنت لا تعلم .. فالأعراض ليست حتمية لتشخيص المرض .. قد تكون مريضا لسنوات و أنت لا تدري .. المهم أنك بخير .. هذا هو ما يجب عليك أن تفكر فيه .. لقد بقيت خطيبتك نوار قربك هنا ليالي معدودات .. و ها أنت تتحسن بسرعة .. ألا ترى أنه يجب عليك أن تزفّ إليهم هذا الخبر السار بنفسك ..

لم أستطع أن أكمل حديثي مع الطبيب الشاب , كنت أشاهد شفتاه تتحركان و هو يكلمني لكن عقلي طار الى الجزيرة و حسن و الغواصة و جاك و جنوده و ماريا ..
إذا كنت أحلم فكيف لماريا أن تخبرني بنزيفي الداخلي ؟
إذا كنت أحلم .. فكيف علمت بحالتي قبل أن يشرحها لي الدكتور ؟
إذا أردت أن أتأكد من أنه مجرّد حلم فيجب علي أن أتحدث الى كاتبتي ...
يجب علي أن أتحدث الى حارس العمارة ..
لقد دخل حسن عندي العيادة أمام الكاتبة ..
و رآه حارس العمارة أيضا ..

- دكتور أين هاتفي النقال؟ أريد أن أجري مكالمة هاتفية مهمة ؟
- تريد أن تتكلم مع خطيبتك ؟ ستسعد كثيرا بالمكالمة ..
- أين هاتفي دكتور ؟

خرج الطبيب الشاب و نادى على الممرضة لتناولني هاتفي لأنها كانت ترتب أغراضي في الغرفة , اتصلت بالكاتبة فوراً في العيادة فلم تجب .. سألت الممرضة أي يوم نحن فأجابتني بأنه يوم السبت ..
لقد نمت بعيادتي يوم الثلاثاء .. مرت أربعة أيّام و أنا في المستشفى ..
اتصلت بهاتفها الخلوي لتجيبني فورا ..
فرحَت كثيراً بمكالمتي كما بدت علامات السعادة على نبرتها عندما سمعت صوتي .. سألتها فورا عن الذي حصل فأخبرتني بأنني غفوة قليلا قرابة الخمس دقائق بعد دخولي الى مكتبي و أنّها سمعت الهاتف يرن عدة مرات و عندما لم أجب دخلت لترد لكن لم يكن يجيبها أحد في الطرف الآخر من الخط .. استدارت جهة سريري فرأتني أرضاً قربه أتقيأ دماً مغمى علي فصرخت خوفا و خرجت لتتصل بالشرطة و الإسعاف ..
هذا كل ما حصل ..
لم تر حسن السمين الخارق ...
و لا وجود لجاك الوسيم...
لا وجود لعالم الخزعبلات التي شاهدت في حلمي ..
الحـــــــــــــمـــــــــــــد لله ..

لست بحاجة للحديث مع حارس العمارة .. كانت شهادة الكاتبة كافية لأعود لجادّة الصواب ..
الآن سأصدق الدكتور الشاب .. لقد تسببت السقطة من على السرير في تشقق خفيف في ضلعي .. أما النزيف فالكلُّ معرض لنزيف تحت أي ظرف ..
نزيف في المخ أو نزيف في الجهاز الهضمي .. لا يهم .. المهم أن هذا هو الواقع .. هذه هي الحـــيـــاة الحقيقية..

مر أسبوع و أنا بالمستشفى تحسنت حالتي بشكل سريع و جيد , كانت نوار تزورني يومياً لتطمئن على حالتي .. كلُّ شيء كان على ما يرام , لقد نسيت تماما ذلك الحلم الكابوس الذي لم أذكر فيه سوى مـــاريـــا , تلك الجميلة الحسناء التي صنعها عقلي .. ومن خزعبلات عقلي رأيتني أشرب رفقتها فنجان قهوة بالبندقية نتحدث عن الحب ...أصبحت متأكداً من أن ماريا هي أقصى ما يمكن لمخيلتي أن تحلم به .. لقد كانت فعلا شيئا رائعا داخل الحلم , لقد سمح لي الطبيب الشاب بمغادرة المستشفى بعد أن أصبحت قادراً على المشي و الحركة بشكل عادي , كل الفحوصات كانت تؤكد تحسن حالتي , كنت سعيدا خلال ذلك الأسبوع في المستشفى لأني لم أعد أطرح أسئلة محيرة تحتاج لأجوبة محيرة أخرى ..

تواعدت مع نوار على اللقاء صبيحة الغد بعد أن خرجت من المستشفى لشراء خاتم الخطوبة بعد أن جلسنا على ضفاف وادي أبو رقراق لشرب القهوة التي اشتقت اليها .. كانت جلسة هادئة و جميلة لم أقصص عليها حلمي كنت أريد أن انساه في تلك اللحظات ..
سأخبرها به يوما ما إذا كنا نود مشاهدة فيلم بالسينما .. إلا قهوة البندقية طبقا لتعلم أنّ لدي خيالا واسعا ..
لقد نسيت موضوع حسن تماما و فكرة اختفائه و لم أعد أريده في عقلي لأن آخر مرة فكرت به تلاها حلم مجنون تلته مصيبة .. نزيف و كسر و .. و ..

عدت الى عيادتي مشيا .. اشتقت الى المشي أيضا .. عند وصولي باب العمارة و جدت العجوز حارس العمارة مرتديا بدلته الزرقاء جالسا على الكرسي يمسك بكتيب صغير و يقرأ.. إنه يقرأ القرآن ..
لم أُرد أن أزعجه , مررت بجواره و ألقيت عليه السلام بصوت خافت حتى لا أقطع عليه صلته , بعد أن وقفت قرب مصعد العمارة سمعته يناديني .. توقف نوح العجوز الذي يبلغ السبعين عاما من العمر ذو الصوت المتقطع الواهن عن التلاوة و تقدم نحوي بخطوات بطيئة من أجل أن يسأل عن حالي , كان ردي سريعا بأن حمدت الله و أثنيت عليه لأني ما زلت حيّا و شكرته

على اهتمامه بي قبل أن أتحرك اتجاه باب المصعد الذي فتح و أنا أجيب العجوز..
دخلت و ضغطت زر الطابق الثالث حيث عيادتي , كان العجوز مازال واقفا في المكان الذي سألني فيه عن حالي و قبل أن يغلق باب المصعد طرح سؤالا آخر .. د مّــرنـــــي ..
طرح سؤالا أعادني الى مربع الصفر ..
طرح سؤالا بطعم الكهرباء ..

- و كيف حـــــال صـــديقك الـذي يـــطـيـــر ؟

أُغلق باب المصعد على سؤاله ...
تزلزلت في مكاني وسط المصعد ..
لقد شعرت برجفة قوية تنتابني , وقف شعر رأسي ,
احمرت عيناي ..
تجمدت .. لم أعد أستطيع الحركة ..
رفضت قدماي أن تحملاني ..
هل ما زلت أحلم ؟ مستحيل ..
السمين حسن واقع أم خيال ؟
ماريا .. جاك .. الغواصة .. الجزيرة .. لقد عاد كلُّ شيء ..
عاد الحلم .. أو هو الواقع .. أصابني الجنون .. عيناي ستنفجران .. لا أستطيع إغلاقهما ..
وقعت مغمى علي بسبب سؤال العجوز عن حسن ..
لـم أكن أحـــــلـــــم ..
أنا متأكد الآن ..

نوح

فتحت عيناي على عطر كاتبتي القوي في الطابق الثالث قرب باب عيادتي خارج المصعد .. استعدت رشدي و وضحت الرؤية في لحظات .. لم تكن هي من وجدتني فاقدا وعيي, بل كانا شابين حملاني خارج المصعد , قفزت من فوري و ركضت أمام ذهولهم و نزلت درج العمارة بسرعة و كأني أريد أن أنقذ عزيزا من الموت ..

كنت أعرف هدفي و اعرف من أريد .. إنه العجوز نوح الذي أفقدني سؤاله الوعي و جعلني أخرُّ أرضا ..

لم أجده على كرسيه الخشبي الصغير حيث كان يقرأ القرآن .. خرجت من الباب الرئيسي للبناية الى الشارع حيث يوجد موقف السيارات .. لكني فوجئت باختفائه من المشهد ..

أين ذهب العجوز ؟ لا أعلم .. لقد اختفى ..

لم أفقد الوعي سوى للحظات ..

ركضت الى أقصى يمين الشارع فيساره .. لكنه اختفى ..

عدت بسرعة للعمارة و بحثت عنه بالداخل لكن دون جدوى ..

أين ذهب ؟ إنه رجل مسن في السبعين من عمره لا يمكن أن يختفي بهذه السرعة .. فوجئت بطفل يناديني باسمي في الجهة الأخرى من الشارع .. اتجهت نحوه مندهشا ...

أنّى له أن يعرف اسمي ..

تقدم هو أيضا نحوي .. لم ينطق بكلمة أخرى بل أعطاني ظرفا صغيرا أصفر اللون و رحل .. أمسكت بيده الصغيرة قبل أن يبتعد و طرحت عليه السؤال الذي خالجني عندما ناداني باسمي ...

- كيف عرفت اسمي ؟

لم يجبني الصغير بل ابتسم و سحب يده بلطف و أنصرف , فتحت الظرف بيد مرتعشة .. لقد عاد الحلم الذي أصبح واقعا ..

كان بالظرف ورقة صغيرة بيضاء عليها رقم هاتف محمول و رقمين كبيرين عليهما علامات الإحداثيات XوY التي تمكن من تحديد المواقع عبر الخرائط الالكترونية ..
أخرجت الهاتف من جيبي و اتصلت في الحين بالرقم الموجود في الورقة الصغيرة .. انتظرت قليلا قبل أن يجيبني شخص لم أسمع صوته من قبل ..

- السلام عليكم و رحمة الله و بركاته دكتور عماد .. اسمعني فقط ثم نفد ما سأقوله لك بالضبط .. أولا .. لا تسألني عن أي شيء
لأن لدي تعليمات بما سأقوله لك فقط ..
لا تبحث عن حارس العمارة .. احفظ الأرقام التي وجدت في الرسالة بذاكرتك ثم احرقها .. عد الى مكتبك و اشرب كوب الماء الذي ستجد فوق الطاولة الصغيرة على السجادة الحمراء .. لا تتصل بهذا الرقم مرة أخرى .. ثم انتظر التعليمات ..
- من معي ؟ من أنتم ؟ ماذا تريدون ؟...

انقطع الخط و دخلت المجهول مرة أخرى .. كررت الاتصال عدة مرات لكن دون جدوى ..لم يجبني أحد هذه المرة , عدت أبحث عن العجوز نوح الذي لم أجد له أثرا في الشارع أو العمارة , دخلت مكتبي أجرُّ أسئلة أخرى جديدة و أوامر من شخص مجهول , سألت الكاتبة التي كانت لا تزال مندهشة من تصرفاتي ..
سألتها عن حسن السمين مرة أخرى لكنها كررت على مسامعي نفس الرد .. لم تره و لم تلاحظ شيئا غريبا قبل دخولي لمكتبي أو بعده ..
طرحت السؤال على نفسي .. إذن كيف رآه العجوز نوح و أين هو الآن ..
دخلت مكتب العيادة و رأيت كأس الماء الذي أخبرني به الشخص المجهول بالهاتف و الذي من المفروض أن أشربه ..
رفعته بيدي و دققت مليّا بداخله ..
هل هو سمّ ؟ هل يريدون قتلي ؟ لماذا اختفى العجوز ؟ هل اختطفوه ؟

ممكن لعله رأى شيئا لا يجوز أن يراه ... ممكن .. لقد أصبح كل شيء ممكن .. إذا تمّ اختطافه .. إذن فأنا في خطر أيضا .. لكن لماذا علي أن أشرب الماء ؟ و لماذا لا يجب أن أسأل عن العجوز ؟ لماذا ؟
لا يمكن أن أصغي لشخص مجهول و أنفّذ التعليمات بالحرف و ليس لدي أدنى فكرة عنه ..
إذا ما العمل ؟ هل أسأل عن العجوز ؟ هل أشرب كوب الماء ؟
لقد خالفت التعليمات و أعدت الاتصال بالرقم ..
ما الذي حصل ؟ لا شيء ..
ما الذي سيحصل إذا سألت عن العجوز و إذا لم أشرب كوب الماء ..
لا شيء ...
خرجت من مكتبي و عدت الى الكاتبة مرة أخرى و أخبرتها بأنّ العجوز نوح حارس العمارة رأى برفقتي شخصا سمينا أسفل العمارة فكيف يعقل أن لا تراه بدورها ..
لكنها أجابتني بما زلزلني مرة أخرى وفهمت من جوابها لماذا أمرني الشخص المجهول عبر الهاتف بأن لا أسئل عن العجوز و كأني أحتاج الى هذا النوع من الأحداث في هذا اليوم التّعيس .. اليوم الذي لا إجابات فيه .. فقط أسئلة و صدمات كهرو دماغية لم أستطع تحملها ...
لم يكن يكفي أن يتحول الكابوس الى حقيقة بل لم يكن يكفي أن يختفي حارس العمارة أو يكلمني طفل لا أعرفه أو أن أتلقى الأوامر من مجهول على الهاتف .. بل كان علي أن أتقبل إجابتها أيضا ...

- من .. حارس العمارة ؟؟؟ لم يعمل بالعمارة خلال الخمسة عشر سنة التي خدمتك فيها أي حارس , رئيس نقابة العمارة هو المكلف بشؤونها لا غير ..

لم يكن علي مخالفة الأوامر .. ازدادت دهشة الكاتبة لكن بدت على ملامحها آثار التشكيك في قدراتي العقلية ..
كنت أحاول الاجابة على السؤال التالي : هل أنا أحلم ؟
لكني الآن أصبحت أطرح السؤال التالي : هل أنا مجنون ؟
العجوز نوح حارس العمارة التقي ذو اللحية البيضاء الطويلة و البنية الهزيلة الذي لا يختفي الا عند سماعه نداء الصلاة و الذي كنت أحييه

صباحا مساءا و أسلم عليه طيلة السنين الماضية .. لا وجود له الّا في مخيلتي ..
لم أكن في حاجة الى أن أفقد وعيي مرّة أخرى .. ركضت كالمجنون نحو مكتبي و شـــــربـــت كـــوب المـــاء دفعة واحدة و بسرعة و رجوت أن يكون سمّاً قاتلا لأستفيق إن كان حلما و أموت إن كنت مجنونا ..

أمـــــــــــــــي

عشت دقائق قاسية حسبتها أيّاماً , فكرت بالانتحار ساعتها و تذكرت مكالمة حسن التي كانت السبب في دخولي متاهة الحلم و الجنون و كيف أنه فكّر بالانتحار نتيجة ما كان يراه , جلست على كرسي مكتبي و انتظرت التعليمات كما قال المجهول , لم تمض سوى لحظات حتى رنّ هاتفي ليجعلني أرتعش خوفا ..
لقد كانت أعصابي مشدودة لدرجة لا تسمح بأحداث أكثر غرابة من التي وقعت .. وضعت سماعة الهاتف على أذني بحذر و هدوء لأرد على المكالمة ..

- السلام عليكم..
- و عليكم السلام ..
- حسناً فعلت دكتور عماد .. لكن لم يكن عليك أن تسأل عن العجوز ..
- من أنتم ؟ و كيف عرفت أني سألت عن العجوز و شربت الماء ؟ هل تراقبونني ؟
- لا .. ما عاد الله .. إنها أوامر الحكيم .. و هو من أخبرنا بما تفعل ..
- أي حكيم ؟
- سأجيبك عن كل شيء و لكن بعد شهر من الآن .. هل عقلت أرقام الورقة البيضاء ؟
- نعم لقد حفظتها و لكن لماذا شهر و ليس الآن ؟ و ماذا أفعل أنا خلال هذا الشهر ؟ تريدون منّي أن أجن ؟ أين العجوز حارس العمارة ؟
- لا ... أنت لست مجنونا و لن تجن بإذن الله و لكن تعليمات الحكيم أن نخبرك بكل شيء بعد شهر من شربك لكوب الماء ..
- من هو هذا الحكيم ؟ لقد سمعت حسن السمين يتحدث عنه في الجزيرة ..
- لا تلقبه بالسمين دكتور عماد .. لقد مـات دفاعا عنك و قتل من أجل إنقاذك ..
- مــات حسن ؟

- نعم مات لكي ينقذك من الموت المحقق و سُـــــــجـــنـــت مـــاريـــا في الجزيرة بسببك سنخبرك بكل شيء بعد شهر من الآن دكتور ..
لا تتعجل , المهم الآن يجب أن تعلم أنك في خطر و ستتغير حياتك كليّا بعد اليوم .. ستبدأ من جديد .. لقد أصبحت صـاحب رســالة .. هكذا قال الحكيم ..
- أنا الدكتور عماد طبيب اختصاصي في الأمراض النفسية هذه هي رسالتي و لا أريد رسالة أخرى غيرها ..
- لقد قال الحكيم أنك تحفظ آية الكرسي وأنها ستكفيك هذا الشهر إن شئت..
- ما دخل حفظ الآية بالرسالة ؟ لماذا تخلطون الأمور علي هكذا ؟ أرجوك أخبرني .. لماذا حياتي في خطر و لماذا ستتغير ؟ أنا لا أريدها أن تتغير .. أنا سعيد بها كما هي ..

قفل الخط و لم أعقل منه سوى(مات حسن) (ماريا في السجن) (شهر من الجهل) و (آية الكرسي) .. أقسى شعور نفسي يمكن أن يحسّ به الإنسان هو الشعور بالجهل وسط عالم الكلّ فيه يعلم ما يجري إلّا أنـــت ..
لم تمض سوى دقائق حتى بدأت رحلة الصبر التي حدثني عنها مجهول الهاتف .. سقط الاخير من يدي أرضا و فقدت السيطرة على ذراعي الأيمن ثم أخذ الاحساس ينتابني كليّا .. إنه مخدّر .. حتى وجهي لم أعد أستطيع التحكم فيه .. شعور قاتل آخر في يوم تعيس آخر ..
لقد سقطت أرضا و لم أعد أستطيع تحريك شيء في جسمي .. وجهي منكمش على السجاد الأحمر ..
عيناي ... أصابعي .. أقدامي .. لا شيء يتحرك .. لكني أشعر و أحس بكل شيء .. أسمع الكاتبة ترد على المكالمات ..
لقد طلب مني المخاطب في الهاتف أن أصبر شهراً ليخبرني بكل شيء .. كان يعلم ما في الكوب و لم يخبرني بالحقيقة ..
حاولت جاهدا أن أنهض لكن دون جدوى , جسمي مخدر بالكامل .. انتظرت دخول الكاتبة التي ما إن رأتني مغمى علي حتى ركضت للهاتف لتبلغ الاسعاف .. لكنها لم تصرخ هذه المرة .. لقد أصبح المشهد مألوفا لديها منذ قررت مساعدة حسن في إجازتي ..

مضحك قدري هذا الذي يشككني في واقعي لأحسبه حلما ثم يشككني في عقلي حتى أحسب أني فقدته ثم يتركني في حيرة من أمري ..
عيناي تؤلماني .. لا أستطيع إغلاقهما .. حتى الجفون توقفت عن الاختلاج الطبيعي .. أحتاج الى أن ترمش عيناي من عشر الى خمسة عشر مرات لتوزع دمع العين الطبيعي على سائر القرنية .. يجب أن يغلق أحدهم عيناي و إلا سأتعرض للعمى ..
لحسن الحظ فعلها المسعفون عندما وجدوني أرضا و فهموا أني في حالة شلل تام .. كنت أريد أن اشاهد ما يحصل لكن الأمر مستحيل .. لم تتبق لي سوى حاسة السمع .. لقد طالبني المتحدث المجهول بشهر من الصبر .. لكن صبري نفذ الآن .. لا أستطيع أن أبقى راقدا شهرا دون حراك .. يا إلهي
بعد وصولي المستشفى لم يمض من الوقت سوى لحظات حتى سمعت صوت نوار و هي تبكي و تستفسر الطبيب ..
كنت أعرف إجابته قبل أن أسمعها .. يجب عليه القيام بالتحاليل و الفحوصات اللازمة حتى يتمكن من فهم ما حصل لي ..
كنت أرغب في أن أخبرهما بأني مخدّر لمدة شهر و أنّ شخصا غريبا لا أعرفه سيخبرني بالسبب .. لو كنت مكان نوار و أخبرتني بمثل قصتي لنقلتها الى مستشفى المجانين أو لفتحت لها ملفا عندي في العيادة دون علمها لأحاول علاجها ..
إذن لو كان بإمكاني أن أتحدث اليهم لما أخبرتهم بشيء .. فلن يصدقني أحد..
مرت ثلاثة أيّام و أنا في المستشفى أنام و أستيقظ في فراشي دون علم بما يدور حولي و دون أن أفتح عيناي لأني لا أستطيع , رأيت الطبيب مرة واحدة عندما فحصني و فتح إحدى عيناي , كان حديث الممرضات هو ما يؤنسني في وحدتي .. حتى نوار لم تكن تتحدث الي أو مع والدتها في غرفتي ..
ما الحكمة من تخديري لمدة شهر دون تفسير ؟
طرحت السؤال على نفسي عشرات المرات دون إجابة ..
لم أكن أتصور أن الطبيب سيخبر نوار في اليوم الرابع بأني مصاب بشلل دماغي تام و أن لا أمل في علاجي ..

و لم أكن أتصور أني سأتلقّى الجواب في اليوم السابع ..

لقد سمعت الممرضات يتحدثن عن حالتي و عن صدمتهن في اقتراح والدة نوار بأن ترحـــــــــــلا من المستشفى دون رجـعـــة ..
و عن صدمتهن أكثر من رد ابنتها .. لقد وافـــقـــت على طرح أمها مباشرة بعد أن تأكدت من أنّ حالتي ميؤوس منها تماما ..
كان بقائها معي في المستشفى فقط لتتأكد من أن لا مستقبل معي ..
لم تكن دموعها لـــــي و لكن عليها .. لقد بكت حرقة على نفسها و مستقبلها و الدكتور زوج المستقبل و الألقاب و الأطفال ..
فلو حدث و كان المرض عرضا قاصرا لسهرت الليالي معي لأجلها و لكن المرض عضال ..كنت سأتقبل الأمر لو استمر الحال شهورا أو سنين و كنت أنا من سيرغب رحيلها لتبدأ حياتها مع شخص غيري و زوج غيري و كنت سأسعد بذلك .. لكن الأمر لم يستغرق سوى أيام ..
فهمت الآن المغزى من تخديري .. و سعدت كثيرا بردة فعل نوار ..
أين لي بموقف كهذا يخرج نيّات القلوب التي لا يعلمها الا الله ..
أين أمـــــــــي ؟
اللهم ارحم أمي ..
لقد كانت تحبني حقا..

الكرسي

لو علمت الهدف من تخديري و أنه سيكون لنزع الأقنعة من على وجوه من حسبتهم يوماّ يحبونني حق الحب لوافقت على العرض مباشرة و لكن و لأنه ليس من السهل إقناع شخص ما بقبول عرض مؤسس على غيبيات لا يعلم مكنونها سوى الله , تفهمت موقف مجهول الهاتف و رفضه إخباري سبب شرب كوب الماء .. ما زالت لدي أسئلة كثيرة أودّ معرفة الإجابة عنها و لكن يلزمني المزيد من الصبر .. لقد صدق المخاطب عندما أخبرني بحاجتي للوقت و أظنه سيصدُقني القول و يخبرني بكل شيء عندما أخرج من المستشفى ..يجب علي أن أصدُقه أيضا و أنفذ ما نصحني به قبل أن أشرب كوب الماء .. لقد أخبرني بأني أحفظ آية الكرسي و أنها كافية .. رغم أني أحفظ كلّ قصار السور تقريبا و أقرأ آية الكرسي في صلواتي أحيانا .. إلا أني لا أذكر قراءة القرآن خارج الصلوات و أعرف أنه كان تقصيرا مني .. لكن الحياة سرقتني من ديني جزئيا .. كنت أؤدي صلواتي دائما في المنزل و لا أزور المسجد إلا نادرا كباقي الناس .. و معرفتي جيدة بالفقه الإسلامي البعيد عن الغلو و الأقرب الى التيسير على الناس .. لكني أعترف أمام الله و أمام نفسي أنّ كلّ ما تعلمته و فهمته عن الدين لم يكن لي و لكنه كان للمرضى الذين أحاول مساعدتهم كنت أتعلم و أبحث عن كل السبل و الطرق التي تخرجهم من سجن مشاكلهم النفسية بآيات قرآنية تصب في صالح توعيتهم بمشاكلهم و تساعدهم على تقبلها و مواجهتها بالتفاؤل و الرغبة في التغيير .. و كذلك كنت أفعل مع المسيحي .. حيث كنت أحدثه بدينه و كتبه التي درستها كما أفعل مع الغير تماما .. لقد كانت هذه هي الطريقة المثلى للعلاج .. كان علاج المؤمن لا يحتاج سوى جلستين أو ثلاث جلسات .. في حين كانت الحالات الملحدة التي ترفض وجود الله تستغرق السنة أو السنتين و لا يتم علاجها إلا فيما ندر بعد أن تقبل بإرادة الحياة والطبيعة التي يؤمن بها كخالق من عدم , أما التي كانت تصر على رأيها فكانت تيأس و تغوص في أزمات نفسية أشد وقعا من التي كانت السبب في زيارتهم لي أول مرة و قد تنتهي أحيانا بالانتحار ..

لقد أصبحت أنا من يحتاج العلاج الآن.. أريد أن أعالج من الغلّ الذي أحس به اتجاه غبائي ..
لقد رفض كبريائي ما فعلته نوار .. لم أعش تقلب المشاعر الى ضدها في لحظات قبل اليوم .. إنه إحساس مقرف .. تحب شخصا و تكرهه في نفس اليوم و الساعة ..
لكن لا بأس .. هو درس آخر من دروس الحياة التي لا تنتهي إلا بعد أن نودَع في القبر ..
بقيت سبعة و عشرون يوما من النوم و الظلام .. يا الهي .. كم أحتاج من الصبر ..
يجب أن أبدأ في قراءة الآية .. أحفظ الكثير من آيات القرآن .. لكن مجهول الهاتف قال أنها ستكفيني بناء على ما أمر به الحكيم ..
(الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تآخده سنة و لا نوم له ما في السماوات...)
بدأت قراءة السورة و تكريرها عشرات المرّات ثم عشرات المرات ثمّ لا أذكر .. بقيت على ذلك الحال ساعات و ساعات دون أن أحس بشيء يذكر.. لا شيء ..
ما زلت أمقت موقف نوار و ما زلت أنتظر و أفكر في تفسير لكل ما حدث معي و أنا أقرأ الآية كما اعتدت أن أسهو في صلاتي ..
كررت المحاولة مرة تلو الأخرى دون جدوى .. لا جديد ..
ثم اليوم التالي ثم الذي بعده .. لا شيء .. بدأت أحس بظهري يوجعني و لم أعد أستحمل الألم ..
مرّت ثلاثة أيام لم أزدد إلا حاجة الى مزيد من الصبر و الى من يدلني و يرشدني .. لقد قرأت الآية كما طلب مني ... ما الذي يجب علي أن أفعله الآن ..
دخلت الممرضة لتغيير قنينة الأملاح المعدنية التي تغذي بدني في اليوم الرابع و إذا بهاتفها يرن و تجيب ..
فهمت من ردودها أنها كانت تحدث طفلتها الصغيرة التي تركتها في المنزل وحيدة تبكي غياب والدها الذي فارق الحياة بسبب حادث سير منذ شهر ..
هدّأت من روعها و ردّت عليها بقول جعل بدني الميت يقشعر ..

- لا تخافي ابنتي .. لست وحدك .. إن الله معنا و لن يتركنا .. هل فهمتي ما أقول ؟ يجب أن تفهمي .. إنه حكيم..

استمرّت في الحديث مع ابنتها قبل أن تكمل تغيير القنينة و تخرج من الغرفة كانت رسالة من أم صابرة الى طفلتها و من امرأة مؤمنة الى المشلول بالغرفة ..
نعم لقد كانت رسالة لي أنا أيضا .. يجب أن أفهم ما يقوله الحكيم .. الحكيم من أسماء الله الحسنى .. و آية الكرسي من حِكم الحكيم .. لقد قرأت الآية آلاف المرات دون أن أمعن في معانيها .. دون أن أقف على رسالتها ..

لقد فهمت القصد ..
كان يجب علي أن أقرأها و كأني أسمعها لأول مرة .. كان يجب أن أقرأها و كأنها وحي .. يجب أن أفهم أن الخالق يخاطبني ..
عندما نقرأ القرآن فإنّ الله يخاطبنا مباشرة و أنا لم أكن أسمع و أفهم بل كنت أقرأ فقط ..
الله لا إله إلا هو ... إنه يخبرني أن لا شيء يستحق العبادة سواه , ونحن هنا في الدنيا نعبد الشهوة و المال و القوة و السلطة .. لقد تركت عبادته و عبدت عيادتي و منزلي و سيارتي .. كان يجب أن تكون تلك النِّعم أدوات لعبادته و ليس الها يعبد من دونه ..
الحي القيّوم .. إنه يخبرني أنه حي و أزلي لا بداية و لا نهاية له و هو ليس مركبا من روح و جسد بل هو من يخلق الروح و الجسد و هو القيوم .. إنه مستغن عنا تماما و كل شيء يحتاجه إلا هو .. هو الغني القوي و أنا الفقير الضعيف الذي أحتاجه .. وهو القائم علينا وعلى الكون ...
لا تأخذه سنة و لا نوم .. إنه يخبرني أن النعاس و التغيير لا يصيبان منه شيئا .. نحن نعيش و نتغير و نموت و ننام و نستيقظ .. لكن ليس الله ..
له ما في السماوات و ما في الأرض .. إنه يخبرني أنه يملك كل شيء .. كل شيء .. يملكني و يملك روحي و جسدي و الدنيا بأسرها ..
من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ... إنه يخبرني أن لا أحد يشفع عنده من دون إذن منه ليعلم الجميع أن كل أمر سيعود اليه و هو من سيحكم ..

يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم و لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء..
يخبرني بأن لا أحد يحيط بعلمه إلا بما شاء من علم .. كل ما نعلمه عنه هو بمحض مشيئته ...
(وسع كرسيه السماوات و الأرض و لا يؤوده حفظهما و هو العلي العظيم)
إنه يخبرني بعظمة الكرسي تحت عرشه و بقوته الّا محدودة و كل شيء هيّن و سهل عنده .. و هو العلي المنزه عن كل نقيصة و العظيم الأقوى من كل قوّة ..
إلهي ..... لم يسبق لي أن قرأتها بهذا المعنى الجلل ..
يا رب الكون ..... لم يسبق لي و أن أحسست بضعفي و تفاهتي كما الآن ..
يـــا لله..... لم يسبق لي و أن رميت الدنيا ورائي في لحظات ..
هكذا كان يجب علي أن أقرأ الآية من البداية ..
الله يكلمني .. و أسمعه .. و أطمئن إليه ..
كررتها بهذا المعنى ثلاث مرات ..
ثمّ فتحت عيناي عندما علم جسدي بأن لا حول و لا قوة للمخدر إلا بالخالق .. لينزع الله عنه صفة التخدير .. كما جعل النار بردا وسلاما على خليله..
و حركت رأسي و رفعته بهدوء و سكينة عندما علمت روحي أن لا قوة أعظم من قوته ..
و أن نفحة من كلماته بقلب صادق و وعي تجعلك أقوى من أن يرقدك مخدر على سريرك ..
لقد وقفت و كأني حييت من جديد .. كنت أحس بقوة تختلج بدني و كأنه طرد السم الذي به في لحظات ..
لكن الإحساس الحقيقي بالسعادة كان في صفاء سريرتي اتجاه خطيبتي نوار .. لقد علمت في لحظات عن كبر جهلنا الإرادي بالخالق..
إنها تجهله كما كنت أجهله طيلة الأربعين سنة الماضية و ترى السعادة في زوج و عمل و أطفال و مال كما كنت أراها تماما .. لم أفهم لأني رغبت في ذلك و لكن لأن الله منّ علي به ..
حملت أغراضي و خرجت أمام ذهول الممرضة التي كانت السبب في شفائي .. و قلت لها و أنا أبتسم ..
لا تحزني ما دام الحكيم معكما .. لا تخافي ما دمتي تذكرينه بحق ..

بشائر الشفاء

عدت الى عيادتي سيرا , كنت أرى بعين أخرى ... كنت أسمع بأذن أخرى .. كنت أتكلم بلسان آخر .. لقد صرت منصتا للكون .. لم يفطر عقلي عن التفكر في كل شيء حولي منذ خرجت من المستشفى ليلا و الناس نيام .. لم أعد أهتم بالوقت كما العادة ..

اتصل بي مجهول الهاتف بعد أن دخلت العيادة مباشرة ..

- السلام عليكم دكتور عماد ..
- و عليكم السلام و رحمة الله .. دكتور ونيس ..

لقد رددت التحية عليه و تحرك لساني باسمه دون إدراك مني .. كانت خاطرة نطق بها لساني و كأنه يقول أنه أكيد يدعى ونيس .. كيف ؟ و لماذا ؟ لا علم لي غير أن قلبي أصبح يرى و يسمع و يتفكر ..

- لقد صدقت رؤية الحكيم فيك دكتور عماد .. فعلا .. أنا الدكتور ونيس رسول الحكيم إليك .. هل تعلم ما المطلوب منك الآن ؟
- لا .... لا أعلم ..
- يجب أن تعرف دكتور عماد أنّ من الناس من قد يستغرق شهورا و أعواما حتى يفهموا ..
- ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ..
- أحسب أنك فهمت ..
- لا ... لقد فهمت فقط أشياء تتعلق بي مع خالقي وما زالت الطريق طويلة .. لكني ما زلت لا أعلم مراد من تسميه الحكيم.. ما زلت أحتاج أن أعرف .. لقد وعدتني بأنك ستخبرني بكل شيء بعد شهر و لم يمر سوى عشرة أيام و قد استيقظت ..
- صحيح .. لكني لم أقل أنك ستمكث شهرا في المستشفى بل قلت أنني سأخبرك بكل شيء بعد شهر .. بقيت خطوتان أخي عماد ..
- حاضر ... أخبرني ..

- ستجد طلبا مكتوبا بخط الحكيم شخصيا فوق مكتبك .. ذاك هو المطلوب .. كلمني بعد أن تكمل المهمة ..
- هل لديك فكرة دكتور ونيس عن ماهية الطلب ؟
- لا دكتور .. لا أعلم .. أنا أنفذ التعليمات كما هي ..
- حاضر ..
- تصبح على خير دكتور عماد ..

دخلت العيادة لأجد الورقة فوق مكتبي كما أخبرني ونيس .. كانت كبيرة الحجم بيضاء تفوح منها رائحة طيبة .. مكتوب عليها بحروف كبيرة ..

(و ما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور)

لم أفهم المعنى .. ما القصد .. لماذا لم يفسر الحكيم المطلوب مني ..

أذّن المؤذن لصلاة الفجر و لم أسمعه هذه المرة كعادتي .. لقد سمعته كنداء مباشر لي من القوي الجبار .. الحكيم الخبير .. إنه يناديني ليفهمني القصد من الآية ..
وضعت الورقة بهدوء فوق المكتب و توضأت ثم خرجت للصلاة بالمسجد القريب من العمارة و الذي لا يبعد سوى بعشرات الأمتار.
دخلت المصلى الفارغ حيث لم أجد إلّا كهولا هنا و هناك .. منهم من خانه النعاس بسبب السن الطاعن وقدم به الأرق و منهم من اعتاد على الحضور فقط بجسد بلا روح و منهم من سمع النداء كما سمعته أنا ..
و لكن لا أعلمهم ..
أقيمت الصلاة .. و قرأ الإمام نفس الآية مرة أخرى ..
(وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور)
سجدت كما لم أسجد من قبل ... لقد ركعت لله الجبار المتكبر القوي المتين ..
سجدت كما لم أسجد من قبل .. لقد سجدت للرّحمان الرحيم الغفور الكريم ..
و هنا وصلت رسالة الحكيم ..
لقد فهمت معنى الآية ..
لقد عرفت المطلوب مني ..

هنا تغيرت حياتي كما قال الدكتور ونيس ..
هنا تغيّر فهمي للدنيا ..
انتظرت بفارغ الصبر طلوع الشمس و بداية عمل الإدارات العمومية و ملحقاتها ..
ركبت سيارتي و ما هي إلا لحظات حتى كنت في مركز
بـــــشائـــــر الشـــــفـــــاء بالعاصمة .. تواصلت مع مدير المركز قرابة الساعة قبل أن نستقل السيارة معا و نذهب الى مصلحة الشهر العقاري ثم المحافظة ..
لقد وهـــــبـــــت كـلّ مـا أمـلـك من عـقـار و مـــال و سيارة لجمعية بشائر الشفاء التي تعتني بالأيتام و المعاقين و طلاب العلم و الأرامل و المسنين العجزة و الفقراء المساكين ...
إنها أفضل جمعية على الإطلاق بالمغرب و هي ذو مصداقية عالية ..
طلبت من مدير المركز أن لا يكتب اسمي في سجل أو أرشيف الجمعية ..
لم يتبق لي سوى العيادة ..
أحسست بنشوة لا توصف بداخلي بعد أن تمّت كلّ الإجراءات ..
لقد أحسست بالسعادة الحقيقية التي يبحث عنها الناس .. كلّ الناس ..
لقد لمستها بيدي و شربت من نهرها بقلبي .. كلّ إحساس بالسعادة قبل اليوم كان وهماً .. ما يسري في عروقي الآن هي السعادة و كفى ..
هذه هي الخطوة الثانية التي حدثني عنها ونيس ..

لقد كانت الأولى العفو و المغفرة عند المقدرة ..
لقد غفرت لنوار زلتها لعلمي بضعفها و دعوت الله بقلب خالص أن يسامحها و يهديها كما هداني للمغفرة ..
أما الثانية فهي التحرر من الدنيا ..
نحن في سجن ..
و لكن لا نعلم أنّه متاع الغرور .. نسعى لنيل الدنيا لندرك السعادة و نجهل أن السعادة تكمن في تركها من أجل خالقها ..
الله يطلب منا أن نتركها لأجله ليجزينا بما هو أكبر منها ..
..... الســـــعـــــادة

اتصل ونيس بي آخر اليوم..

- السلام عليكم دكتور عماد ..
- و عليكم السلام و رحمة الله ..
- أشهد الله دكتور عماد أني أحببتك في الله .. لقد فعلت ما لم أقدر عليه إلّا بعد سنين من الجهاد و الحرب ضد نفسي و هواي .. لم يبق سوى الدرس الأخير قبل الرحيل الى الجزيرة ..
  فعلا ... فعلا .... لقد صدق الحكيم .. لا أحـــد سـواك يستطــيع أن يــهـــزم جـــاك ..
  إنــك الــوحــيــد فعلا.

عيون السماء

لم يستسغ سمعي و عقلي و قلبي ما سمعت .. ما الذي يخبرني به ونيس .. أهزم جاك .. أنا أهزم جاك .. كيف لي أن أهزم ذلك الشاب ... و قد قتل من هو أشد قوّة منّي .. لقد هزم حسن الذي يطير بسرعة الصاروخ و الذي يفجر الغواصات بيديه و يوقف الزمن بصعقة من كفيه .. كيف أهزم جاك و لا أذكر لحياتي يوما صارعت فيه أحدا أو هزمت خصما أو قمت بمبارزة شخص أصلا ..

مستحيل ... ليس شخصي هو المطلوب .. لقد أخطأ الحكيم هذه المرة و هم لا يعلمون .. فكل ابن آدم خطّاء .. نعم أخطأ الحكيم ...

لقد كانت آية الكرسي شفاء لي من سقم جسمي و كان فعل الخير و التصدق بكل ما أملك لجمعية خيرية شفاء لقلبي من هذه الدنيا .. لقد أصبحت شخصا آخر فعلا .. لقد ارتقت درجة ايماني و أصبحت أرى الدنيا بعين الله أحيانا .... و لكن ...

لكني حتماً لست و لن أصبح قويّا بما يكفي للقضاء على شخص لديه قدرات خارقة لا أعلم لها تفسيراً .. و إن كان ممكنا فلن أقاتل أحداً ..

نعم لقد عرفت اسم ونيس قبل أن أقابله .. ليس لدي تفسير علمي للظاهرة لكني تذكرت قصة ذلك العالم الجيولوجي الأسترالي التي قرأتها منذ سنوات خلال بحثي في عالم البارا سيكولوجي , و كيف أنه عند تنقيبه عن الأحجار الكريمة في إحدى قرى السكان الأصليين البدائيين العراة , رأى أَحَدَهم ترتعد فرائسه و تظهر عليه سمات الحزن الشديد ليستأذن و ينصرف بعد أن أخبره بأنّ والده قد توفي .. لم يصدقه العالم ساعتها لكنه تأكد من الأمر و صحّته بعد العودة الى القرية التي تبعد بمئات الكيلومترات عن معسكر التنقيب .. فكيف يعلم شخص بوفاة والده بدون خدمة البريد أو الهاتف أو الانترنيت ؟ كيف ؟

قرأت قصصا كثيرة واقعية تشير الى هذا النوع من التخاطر أو التواصل البشري دون آليات معلومة من قبل العلم .. لكني لم أعرها الاهتمام اللازم , لعدم تحقق الشروط العلمية التي تثبت صحّتها ..

من الممكن أن تكون حالتي الإيمانية السبب في ذلك .. و من الممكن أن يكون اقترابي من حافة الموت مرتين متتاليتين هو السبب .. لا أدري لكني سأعرف و أفهم كل شيء عندما أرى ونيس ..
كان هذا ما دار بذهني عندما قال لي أن بإمكاني أن أهزم جاك ... بعد حديث مطول مع نفسي قلت ...

- لكن كيف لي أن أهزم جاك كما تقول و ليست لدي القدرة و القوة الكافية لذلك .. ناهيك عن أني لا أرغب في قتال أحد .... أعلم أنك ستقول أن هذا ما أخبرك به الحكيم .. فلا داعي لترديدها علي ..
- صحيح .. هكذا قال الحكيم ..
- ما الذي يجب أن أفعله الآن ؟
- لا أعلم دكتور عماد .. لم أتلقّ تعليمات بالأمر .. كل ما قال الحكيم هو أنك تعلم ما يجب عليك أن تفعل ..
- ماذا ؟ كيف أعلم ؟ أنا لا أعلم إلا ما أخبرتموني به .. حتى اسمك لا أعلم كيف عرفته .. لقد كانت فقط خاطرة لا أعلم سببها ..
- إذا قال الحكيم أنك تعلم .. إذن أنت تعلم و لكن ليس الآن ..انتظر و اصبر.
- حاضر ..
- الى اللقاء دكتور عماد موعدنا بعد الخطوة الثالثة ..

لم أعرف ما الذي كان علي فعله غير الانتظار .. عدت الى عيادتي و انتظرت يوما ثم الثاني ثم الثالث و لم يستجد شيء سوى أني لم أعد أترك فريضة الصلاة في وقتها ..
لم أقابل نوار قط في تلك الأيام و لم أكن أرغب في ذلك حتى أرفع عنها حرج النفاق إذا ما قابلتني ..
وافقت على إجازة الكاتبة السنوية .. عدا ذلك لا جديد .. كنت أترقّب في أيامي أي شيء يحصل علني أفهم ما المطلوب مني ..
كنت أريد العودة الى الجزيرة لأعرف و أفهم ..
من هو هذا الحكيم ؟
و ماذا يحدث في الجزيرة ؟

و كيف أنقذ ماريا كما أنقذتني ؟
و كيف مات حسن ؟
و لماذا كان يطير و يلقي اللهب و يوقف الزمن ؟
و لماذا يريدونني أن أقتل جاك الأقوى من حسن على ما يبدو؟
و تلك الجنود التي قتل حسن ... من هم ؟
و لماذا تحرس الجزيرة بالغواصات ؟

عشرات و عشرات الأسئلة التي كنت أطرح دون أن أجد لها جوابا ..

لم يتبق سوى أيّام لتكتمل المدة التي حدّدها ونيس و لم يحدث شيء يذكر سوى الطمأنينة التي عدت أحسها بعد صلواتي..
و رغم أسئلتي الكثيرة إلّا أنّي كنت أشعر بقناعة دنيوية لا توصف .. لم أعد أريد منها شيئا كما في السابق .. اختفت المشاريع التي كانت تملأ رأسي ليلا نهارا .. كلها كانت تصب في توفير ما تشتهيه نفسي .. لكن كل ما أحتاجه الآن هو العلم و العلم و العلم .. و الإصلاح ما استطعت ..
العلم الذي أشتاق اليه .. أكيد سأجده في الجزيرة ..
و الإصلاح هنا بعيادتي عندما أعود إن شاء الله ..

وجاء اليوم الأخير الذي كان من المفروض فيه أن يتصل بي ونيس , لكنه لم يتصل و لم يحدث شيء كما أخبره الحكيم , لكن ما حصل كان غريبا جعلني أعلم يقينا بأن الجزيرة تخبأ سرا كبيراً و عظيما ...
توقفت أمام عيادتي سيارة رباعية الدفع سوداء اللون عند عودتي من صلاة الفجر .. فتح الباب الخلفي للسيارة ثم طلب مني السائق الذي يرتدي نظارات سوداء قبل شروق الشمس أن أركب إن كنت أريد مقابلة ونيس ..
لم تكن ملامحه واضحة داخل السيارة ولم يسبق لي أن رأيته في حياتي ..
لم أجبه بكلمة و ركبت لأني كنت أنتظر ونيس .. و العودة الى الجزيرة ..

تحركت السيارة بضع كيلومترات نحو مدينة تمارة عبر الطريق الساحلية ولم يتكلم السائق طوال الطريق الى أن وصلنا الى المدارة التي تدخلنا المدينة ثم طلب مني النزول .. استفسرت عن الأمر لكنه لم يجب بل سألني

- هل تريد مقابلة ونيس ؟

أجبت هذه المرة بالإيجاب , ثم تحركت السيارة و تركني السائق وحيدا على الطريق الساحلي حيث لا حياة تدبّ على الأرض في تلك الساعة من النهار .. لم تمض سوى ثواني معدودة حتى توقفت سيارة أخرى شبيهة بالتي قبلها حسبته في بادئ الأمر نفس السائق .. لكن لم يكن الأمر كذلك .. إنها سيارة أخرى و سائق آخر .. فتح الباب الخلفي و طلب مني الركوب .. ركبت دون أن أفهم ما الغاية , عاد بي السائق الثاني الى مدينة الرباط لكنه توقف قبل الوصول اليها بكيلومترات قليلة و طلب مني النزول مرّة أخرى .. لم أفهم مرة أخرى .. ما القصد ؟ لماذا أنزل هنا ؟
رفع يده اليمنى و أشار لي بأصبعه نحو سيارة أخرى مشابهة تقف في الجهة الأخرى على الشارع بالاتجاه المعاكس لسيرنا .. فهمت بأنه يطلب مني أن أنزل و أستقلّ السيارة الثالثة ..
تكررت العملية ثـــــلاثـــين مرّة .. استغرقت قرابة الساعتين و النصف ساعة ..
كانت المدة التي فهمت خلالها قصد الحكيم ..
لقد التقيت في السيارة رباعية الدفع رقم سبعة شخصا جالسا ينتظرني و ما إن فتحت الباب و ركبت حتى فوجئت به يرفع يده اليمنى و يضع أصبعه على شفتيه .. فهمت من حركته أنّه يطلب مني أن لا أنطق بكلمة .. وضع ورقة بيضاء صغيرة في يدي و أشار الي بقراءتها قبل أن أستقل السيارة التي تليها .. كان مكتوبا عليها الآتي :

- أنا الدكتور ونـــــــــــــيس...

ستلتقي بعد لحظات بشخص سيحدد ما إن كنت ستعود الى الجزيرة أم لا .. و إن كنت ستعود , فلنا موعد اليوم , أما إن كان العكس فهذا آخر لقاء بيني و بينك حتى لا نعرض حياتك للخطر ..

أنت مـــــــــراقـــــب بواسطة الأقمار الصناعية من طرف أقوى الأنظمة في العالم لأن الحكيم قال أنك مهم .. لذلك هم يريدون القضاء على كل من يريد مساعدتك .. نـــــحـــــن ..
تخلى عن هاتفك بعد أن ترى الشخص الذي أخبرتك عنه ... إنّك مراقب .. ومن الممكن أن تكون على جسمك رُقاقة تجسّس , نحن لا ندري موضعها و ليس لدينا الوقت الكافي لرصدها .. لا يمكنهم مراقبة ما تفعل في ثلاثين سيارة تسير في شتى الاتجاهات دفعة واحدة .. سأتصل بك بعد أن تقابل الشخص الذي أخبرتك عنه عبر هذا الهاتف .. يجب أن ترحل الآن ..

أعطاني هاتفا محمولا آخر .. نزلت من السيارة ..
ثم رحـــــل ..
كان ونيس رجلا هادئ الطباع تبدو عليه علامات التواضع , ذو بنية هزيلة .. كانت ملامحه تقذف بقلب من يشاهدها الوقار و السكينة .. عينان صغيرتان و نظارات كبيرة و شعر أسود به الكثير من الشيب .. يرتدي قميص و سروال أبيضان .. لقد أحببته من الوهلة الأولى ..

ثم التقيت الشخص الذي سيحدد ما إن كنت سأعود الى الجزيرة أم لا في السيارة رباعية الدفع الضخمة رقم سبعة عشر ...
إنه حـــــــــــســـــــــن السمين ...
نعم ... لم يمت .. ما زال على قيد الحياة .. لقد سعدت بلقائه كثيرا .. لم يكن على أحسن حال .. سمعت صوته في رأسي دون أن يحرك شفتاه ... كما كنت أسمعه أوّل مرة عندما ظننت أني أحلم .. أخبرني بأنه نجا بأعجوبة من جاك الذي حسبه مات غرقا في أعماق البحر ..
لكنه و لله الحمد مازال حيا ..
ثم طرح علي السؤال الذي سمعته من قبل عدة مرات .. لكن لم أسمعه بأذني هذه المرة .. بل بقلبي و انسانيتي ..
لقد طلب مني إن كنت أستطيع أن أنقذه من الجزيرة ..
نعم كان نفس الطلب .. لكنني الآن أصدّقه ..

حركت برأسي مباشرة ليعلم أني موافق و ليس في قلبي ذرة خوف رغم يقيني بأنني لا أحلم هذه المرة و علمي بالمخاطر و جهلي كليا بالطريقة التي سأنقذه بها , إلّا أنني قمت بما كان الحكيم يريد مني أن أفعل ..

إنه يريدني غـــــفـــــورا عـــــفـــــواً ..... (نوار) ...

جـــــــــوادا كـــــريمـــــا بمالي (بشائر الشفاء) ...

مضحيا بـــــروحـــــي و نـــــفـــســـي من أجل الناس (حسن) .. كل الناس .. من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا...

لم أكن أعلم السبب وراء شروط الحكيم حتى أعود للجزيرة ..

لكني كنت متأكدا من صدقه .. لقد كان صادقا منذ البداية..

اعتذرت لحسن بعين تملأها الحسرة لأنّي لم أقدم على إنقاذه سوى في الحلم...

سألته دون أن أنطق بعد أن نزلت من العربة و الباب الخلفي مفتوح ..

- و كيف أنقذك و أنت هنا معي ؟

فأجابني بابتسامة كلها ثقة و يقين ..

- أحيانا يتوجب علينا تصديق قلوبنا بدل أعيننا ... من أدراك أني أتحدث إليك بهذا الجسم الضخم هنا ؟

تحركت السيارة رباعية الدفع السابعة عشر و أغلق الباب على رد حسن لأركب في التي تليها ..

لقد فهمت الآن .. يجب أن أنقذ حـــســـن ..

قهوة باب العروس

عدت الى العيادة بالجديد هذه المرة ..
حسن مازال حيّا ..
سأقابل الدكتور ونيس اليوم ..
أنا مراقب ..
لا أعلم بعد من يراقبني أو لماذا .. لكني سأعرف.
اتصل بي ونيس بالهاتف المراقب بعد منتصف النهار و طلب مني أن أزور سوقا شعبيا بالمدينة القديمة دون أن يفسر الأمر , كنت قد جمعت أغراضي و رتبتها في حقيبة سفر متوسطة الحجم .. لقد كانت ردة فعل طبيعية من شخص على وشك الرحيل نحو جزيرة مجهولة و بعيدة و غير آمنة .. ما الذي كان عساي أفعله في موقف كهذا .. تركت رسالة نصية صغيرة بها تعليمات خاصة للكاتبة فوق مكتبها لتدبير شؤون العيادة بعد انتهاء إجازتها الى حين عودتي ان شاء لي الله أن أعود ..
استقلت سيارة أجرة نحو المدينة القديمة , اتصل ونيس مرة أخرى لكن هذه المرة بالهاتف الثاني الذي أخذت منه في السيارة رباعية الدفع السوداء في الصباح الباكر .. أمرني أن أشتري ملابس جديدة , و أن أترك هاتفي القديم بعد أن أنزع عنه البطارية و اكسر شريحته , ثم أغير كل ما علي , بما فيها حقيبتي في أي متجر للملابس الجاهزة أريد ..
دخلت أحد المتاجر الكبيرة و انتقيت لنفسي سروال جينز و قميصا أبيض و جاكت سوداء قصيرة .. و نظارات سوداء ..
كنت أشاهد نفسي في المرآة و أتعجب من قدري الذي حولني من طبيب اختصاص أمراض نفسية يعالج الناس بتغيير المفاهيم الخاطئة التي تستقر في عقلهم الباطن الى شخص مراقب من أقوى الأنظمة العالمية كما قال ونيس ويستعد لإنقاذ الحسناء و الوحش الصديق من مخالب الجزيرة

المرعبة .. لا أدري لما هي مرعبة .. لكن هذا هو الانطباع الذي خرجت به من حديثي مع حسن منذ أخبرني عنها أول مرة ..
و تأكد لي الأمر بعد ما رأيت من تدابير و احتياطات معقدة من جانب ونيس ..
تركت كلّ شيء في غرفة تغيير الملابس بالمتجر...
حقيبتي ..
هاتفي ..
حتى الملابس الداخلية اشتريت أخرى جديدة ..
اتصل ونيس مرة ثالثة و أمرني أن أذهب الى محطة القطار القريبة من المدينة القديمة و أركب أول قطار يتجه الى مدينة طنجة الساحلية شمال البلاد ..
نفّدت الأوامر بالحرف .. اشتريت تذكرة و انتظرت القطار حوالي العشر دقائق قبل أن أتّجه الى عروس الشمال ... طنجة ..
استغرق السفر قرابة الثلاث ساعات كنت خلالها شارد الذهن أفكر في ماريا تارة ثم نوار ثم حسن ثم أنا...
أين تراني أذهب ؟
ما سر تلك الجزيرة ؟
لا أعلم .. سيخبرني ونيس بعد قليل بكل شيء ..
بعد وصولي انتظرت أن يتصل ونيس , كانت المحطة تعج بالمسافرين من كل أصقاع البلاد ناهيك عن السياح الأجانب , فطنجة لم تلقب بعروس الشمال دون سبب ..إنها باب العالم البحري لكل زوار العالم الى المغرب .. لذلك كان لزاما على الدولة أن يكون هذا المدخل مشرفا للبلاد ..
ما هي إلا خطوات خارج المحطة حتى رأيته ..
كان ونيس ينتظرني في مقهى محطة القطار .. عرفته ما إن وقعت عيناي عليه ..
كان مبتسما لا تفتر عنه سمة التواضع .. اتجهت نحوه بهدوء , القيت عليه السلام و عانقته وكأنه صديق قديم أو أخي الأكبر الذي أكن له الكثير من الاحترام , جلست لأسمع قصة الجزيرة .. كنت متلهفا لمعرفة أسرارها ..
سألته بعد السلام مباشرة عنها ..

تصرفت كطفل غير مؤدب ..

- ما سر تلك الجزيرة ؟ من هو الحكيم ؟ و لماذا قال عني بأنّني مهم ؟
- (مبتسما) تمهّل .. سأخبرك بكل شيء الآن .. كيف حالك أولاً؟
- بخير و الحمد لله ,لقد تغيرتُ كثيرا منذ زرت تلك الجزيرة .. لكن للأحسن ..
- كل خير هو من عند الله و كل شر يصيبنا هو من عند أنفسنا و كل شر في ظاهره ورائه خير من عند الله أيضا .. و الحمد لله أولا و أخيراً ..
- أعلم .. و كلّ مؤمن يعلم .. لكننا ننسى .. و نحتاج لمن يذكرنا جميعا ..
- صحيح .. لذلك ذكرتك و نفسي ..
- حسناً .. هلا أخبرتني بسر الجزيرة و الحكيم ..
- لا يوجد سر في الجزيرة دكتور عماد .. بل عِلم مخفي عن عيوننا نريد أن نصل اليه .. الحكيم قال لنا في بادئ الأمر أن حسن هو الســـــــر و الآن أخبرنا بأنك المهم و الوحـــــــــيـــــــد ..
- من هو الحكيم ؟ و لماذا يحاوركم بالألغاز ؟ أليس لديه كلام غير هذا ..
- ستعرفه عن قريب .. لقد أخبرني أنك ستقابله .. و حينئذ ستفهم قصده و مراده .. هذا ما حدث معنا تماما ..
- ولكن .. من هو ؟ ما اسمه ؟
- لن أخفيك الأمر دكتور عماد .. لم يسبق لي أن رأيته .. و لم يسبق لي أن رأيت الجزيرة أو زرتها .. كلّ ما أخبرتك به كان مجرد رؤى .. كل ما أعرفه عنك .. رأيته في منامي عن طريق الحكيم ..
- إذن من أنت .. أو من أنتم ؟
- نحن أخي عماد منظمة عالمية مكونة من علماء و دكاترة و مهندسين و خبراء من شتى أنحاء العالم و من كل الجنسيات و في شتى العلوم و من شتى الأديان .. مسلمين مسيحيين هندوس لا أدريين و يهود و كونفوسيوسيون و سيخ و آخرين من شتّى أقطاب الأرض و الجنسيات يجمعنا هدف واحد .. إنقاذ الإنسانية من العبودية و تحرير جميع الناس بما فيهم المسلمين و رسالة الإسلام الحقيقية التي ثم تشويهها و تحريفها عن مسارها من قِبلِ المتطرفين بالدرجة الأولى ثم العدو المتآمر بدرجة لا تقل

حدّة .. كُتب لهذه المنظمة أن تكون سرّية لمقاومة عدوّ خفي عن أعين العالم, إنها تتحكم بمصائر الشعوب و تسيّرهم و توجههم حيث تشاء ..

- أنت تحدثني عن حرب خفية ..
- نعم إنها حرب خفية عن عيون العالم لكني سأخبرك بما يهمك الآن دكتور عماد .. الجزيرة .. لأنك سترحل اليها .. لقد تمكنا من صنع غواصة في الأربع سنوات الأخيرة بفضل علمائنا .. ما زلت تذكر الإحداثيات التي قرأت في الورقة البيضاء التي أعطاك رسولنا ؟
- آه .. الطفل .. نعم .. لكن لماذا ..
- يجب عليك أن تعطي تلك الأرقام لقائد الغواصة التي ستتجه نحو الجزيرة ليلا من شاطئ المدينة .. ستجد قاربا صغيراً بانتظارك هناك ليوصلك الى الغواصة .. كان من المفروض أن يتكلف حسن بالمهمة .. لكنه تسرع بعدما سمع من الحكيم أنك الوحيد الذي يستطيع إنقاذه , لقد أخذك الى الجزيرة و لم تكن مستعدا لما ستراه .. كان من الطبيعي أن لا تصدقه و أن تخال نفسك تحلم ..
- هل تريدني أن أذهب الى الجزيرة دكتور ونيس بهذه المعلومات فقط .. منظمة إنسانية تسعى لتحرير العالم .. تحارب أخرى مجهولة تتحكم بالعالم .. و لا أعلم من هو الحكيم .. و لا كيف سأتصرف عند الوصول الى الجزيرة .. و لا كيف سأنقذ ماريا .. و لا كيف سأهزم جاك .. لا أعلم شيئا .. ما هكذا اتفقنا ..

لم تخبرني حتى من أنت .. دكتور ونيس ..

- حاضر دكتور عماد .. أنا الدكتور صلاح ونيس .. عالم متخصص في فيزياء الكم و علم الذرة أعمل لنصرة الإنسانية وأسعى الى تحرير الجميع .. رسالتي في هذه الحياة أن يصبح العالم حراً .. وأن يأخذ كل ذي حق حقه على وجه هذه الأرض .. و الحكيم هو من أخبرنا عن حسن و عنك .. و هو أسير أيضا في الجزيرة .. و يريد أن يقابلك هناك .. كما أنّ الهدف من منظمتنا هو القضاء على الجزيرة .. لا نعلم شيئا عنها .. و لم يرض الحكيم أن يخبرنا بما يوجد هناك .. كل ما أخبرنا به هو أن كلّ العلوم التي يملكها عدوّنا توجد بها .. وأنه يتوجب على منظمتنا أن تستعدّ للحرب .. أمرنا أن نتعلم و أن نصنع و أن نجرب و نختبر و أن نفكر و نتفكّر ..

إنهم يتحكمون بوسائل الإعلام العالمية و الحكومات المنتخبة و القوى العظمى وهم سبب كل الصراعات الدموية و الانقلابات العسكرية في العالم .. يقتاتون من بيع السلاح و المخدرات و دماء الناس ويتاجرون بأجساد البشر , عدوهم اللدود هو الدين ...
هذا هو السبب في سرية منظمتنا .. هم يعلمون بوجودنا لكنهم يجهلون كل شيء عنا ..

- جيّد .. أين موقعي أنا في هذه الحرب إذن ؟ لم تجبني عن سؤال واحد يخصني ؟ كيف أنقذ ماريا و حسن ؟ و من هو الحكيم ؟ ولماذا هو أسير؟
- إذا عـــــرفـــت من هو جـــــاك ستعرف مراد الحكيم .. لكن كيف ستنقذ حسن و العـمـيـلـة مـــاريـــا ... الحكيم وحده يعرف ..
- ما الذي أسمع .. مـــــاريا عميلة ... ماريا جاسوستكم في الجزيرة ..(متعجبا)
- عليك الآن إنقاذها .. أُلقي القبض على ماريا لأنها أخرجتك من الجزيرة .. لقد كشفت عن قدرتها الخارقة في التنقل أمام جاك .. للجزيرة خصائص مجهولة عندنا .. لا يمكن أن يخرج منها أي إرسال .. فقط الحكيم من يمكنه أن يتصل مباشرة بمن يريد في الرؤيا .. و هي مغطاة دوما بغبار فضائي يفقد الأقمار الصناعية القدرة على رصدها .... كذلك في الجزيرة الوقت شبه متوقف .. لو أمضيت بها أربعين سنة ستعود منها كهلا و لم يمض في ساعتي سوى أيام أو أسابيع .. هل فهمت الآن لماذا لم تمض سوى خمس دقائق في ساعة الكاتبة لقد أوقف حسن الزمن قبل الإقلاع بك الى الجزيرة و توقف الزمن أيضا بكما هناك أثناء قتاله مع جاك و أعادتك ماريا في لمح البصر الى عيادتك ..
- أنت تخبرني بما لا يقبله عقل .. ثم أنت تخبرني الآن بأنك لا تعلم كيف سأنقذ ماريا أو حسن .... أليس كذلك ؟
- نعم .. صحيح .. كل ما أخبرني به الحكيم قلته لك بالحرف .. إذا نجحت في تدمير الجزيرة أو قتل كل من عليها .. سيكون نجاحا لنا أيضا في معركتنا ضد هذا التنظيم الدموي الذي يحكم العالم .. لن نكسب الحرب .. لكنها ستكون ضربة موجعة.

- دكتور ونيس .. أنا هنا في مهمة إنسانية .. أريد إنقاذ شخصين أحدهما طلب مساعدتي و الآخر أنقدني .. لا أعلم كيف .. لكني أثق في رسائل الحكيم مثلكم .. لكن لا و لن أقتل أحدا من أجل هذا الهدف .. سأفعل كلّ ما بوسعي لإخراجهما من الجزيرة دون أن ألطخ يدي بقطرة دم واحدة ..
- إذا استطعت أن تقتلهم .. فلا تتردد ..لا أعلم ما يخبأ هؤلاء المجرمون في تلك الجزيرة .. لكن يجب أن تدافع عن نفسك و عن أهلك و عن الحق .. حتى لو اقتضى الأمر قتلهم ..
- أهلي ...
- نعم أهلك .. كل سكان الأرض أهلك .. أليسوا إخوتك في الإنسانية و أنا أخوك في الإيمان و الإنسانية (إنما المؤمنون إخوة) .. بقيت معلومة وحيدة مـــهـــمّـــة يجب أن أخبرك بها .. و أظن أنها ستساعدك في مهمتك ..إن لم تكن هي مفتاح نجاحك ..
- أما هي ؟
- جـــــــاك .. يجب أن تعرف من هو جاك حتى تهزمه ..
- كل ما أعرف عن جاك هو أن لديه قوة خارقة و أنه أقوى من حسن ..
- لا .. إنه ليس خارقا فقط .. إنه أقصى ما توصلت اليه تلك المنظمة اللعينة .. وقتله يعني بداية النهاية لأنه مبلغ علمهم .. لا نعلم كيف ستقضي عليه و لكن الحكيم أكد لي ما مرة أنك الوحيد القادر على هزمه ..
- ما الذي يجب أن أعرفه عن جـــــــــــــــاك ؟
- جـــــاك هو ..

كانت آخر كلمة سمعتها من الدكتور ونيس ..
لقد توقف الزمن قبل أن أعرف شيئا مهما عن جـــاك ..
توقفت أنا أيضا .. لم أكن أستطيع أن أحرك ساكنا .. لكن كان بإمكاني أن أسمع و أرى .. عمّ صمت رهيب المقهى .. لم أعد أسمع صوت الأواني و كؤوس القهوة و طلبات الزبائن و خطوات النادل .. صوت القطار على السكك الحديدية ..السيارات بالشوارع .. توقف كل شيء ..
كان باب المقهى المطل على الشارع هو المشهد الوحيد أمامي .. رأيت شخصا قادما من الجهة الأخرى بالشارع الرئيسي بخطوات هادئة ..

إنه جـــــاك .. يترنح و كأنه يرقص مرحا و يلعب .. إنه يلبس القميص المزركش بالألوان الفاقعة و سرواله الأبيض كما رأيته أول مرة ..
لكنه يلبس حذاء أسود هذه المرّة ..
كل شيء كان متجمداً إلّا جـــاك ..
دخل المقهى .. اقترب منا .. كان يتحدث مع نفسه .. كان متأكدا من أن لا أحد يسمعه .. لكني كنت أسمعه و أراه ..
ثم ارتجف و هلع عندما رمى ببصره اتجاهي .. لقد كادت عيناه تخرج من مكانها .. تشنجت ملامحه الجميلة و اختفت وسامته للحظات .. تصبب عرقا في ثواني .. وهو يقول ..

- هل تراني ؟ ..... نعم أنت تراني و تسمعني أيضا .. ذلك العجوز اللعين .. سأقتله عندما أعود .. كيف فعلت هذا ؟ تكلم ؟ لماذا ؟ كيف تمكنت من .. أرى أنك لا تستطيع الحراك .. لكنك تستطيع أن تسمعني و تراني ..

هدأ من روعه قليلا ثم استمر في التحدث الي ..

- سيكون الأمر ممتعا إذن .. أتعلم من هذا الذي أنت معه هنا في المقهى .. إنه العبقري المصري صلاح ونيس .. إنه عالم فذ في تخصصه .. لقد بحثت عنه لسنوات .. إنه من قيادات التنظيم السري الذي يريد أن يدمر الجزيرة لأن كل أسرار تنظيمنا توجد هناك ..لقد تسبب لنا في مشاكل عدة في دول شتى .. إنه يريد نشر تلك العقيدة الغبية عندكم معشر الأغبياء .. يا حسرة على هذا الدماغ ..

كان يتحسس رأس الدكتور ونيس بيديه و هو يتحسر و يمثل دور العاطفي المتأثر بما حدث .. ثم يبتسم تارة ..
إنه مريض .. يجب أن يعالج .. لا أعلم ما الذي كان سيقوله لي ونيس بخصوصه .. لكني متأكد أن ذلك كان سيساعد في علاجه .. ثم استرسل في الحديث ..

- أشهد أن للحكيم قدرة هائلة .. إنه قوي لكنه لا يريد أن يظهر قوته أمامنا .. كما أن لديه رؤية ثاقبة للمستقبل .. لا نعلم كيف يستطيع أن يصل الى شخص مثلك متى يشاء .. لقد حاولت أن أفعل الشيء نفسه لكني فشلت .. لا

أستطيع إلا إذا لمست الشخص المطلوب و لو مرة واحدة .. كان بإمكاني أن أحضرك متى شئت منذ لمستك في الجزيرة .. لكني انتظرت الى حين تلتقي بهذا الكنز .. آه .. ونيس .. كم بحثت عنك ..

لم أكن أستطيع الرد عليه و لم يكن لدي رد عقلاني لهذا المخبول الذي يحتاج الى علاج .. إنه يخبرني بأنني السبب في القبض على ونيس ..

لم أعد أراه وسيما .. رغم أنه هو نفسه .. لكني عرفت شيئا جديدا .. إنه مريض القلب ..

لم يكن لدي علم بالكابوس الذي سأشاهد مباشرة في ذلك المقهى .. لكني فهمت قول الدكتور صلاح ونيس رحـــــــــمـــــــه الله ..

إذا استطعت أن تقتلهم فلا تتردد ..

المشعوذ

وقف جاك خلف الدكتور ونيس مبتسما و متحدثا الي بنبرة استهزاء تتخلل كل كلمة ينطق بها ..

- لا أدري كيف أقنعوك أنّ بإمكان غبي مثلك أن يقضي علي .. حتماً لأنك غبي .. لو كنت تملك ذرة من الوعي لما صدقتهم .. إنهم يعيشون في وهم جعل عقولهم متحجرة مغلّفة بالغباء .. يؤمنون بما تهوى أنفسهم .. ليتهم استعملوا عقولهم كما نفعل .. لكان نابغة مثل ونيس معنا و في صفنا .. لكنه اختار أن يؤمن بشيء لا وجود له .. و بناء عليه .. حكم على نفسه بالاختفاء الى الأبد .. أنظر جيدا أيها الغبي الآخر .. هذا هو مصيرك ..

لم يكن لدي علم بما سيُقدم عليه جاك لكني كنت متأكدا من أنه سيؤدي الدكتور ونيس .. وضع أصبعه الصغير على جبهة الدكتور و قام بلفّ يده على رأسه كالمشعوذ الذي يقرأ تعويذه على أحد الضحايا ليوهمه بأنه سيلغي عملا أو سحرا .. لكن بهدوء الطبيب الجراح .. أكمل دائرته .. ثم رفع يده عاليا و هو يبتسم و يقول باستهزاء دائم ..

- تمت العملية بنجاح .. يجب أن أرتاح قليلا .. لقد أجهدت نفسي ..

لم أكن أعلم إن كان الدكتور يرى و يسمع مثلي .. لكني استنتجت من ردّة فعل جاك عندما علم بأني أرى و أسمع أن ونيس لا يعلم ما يحدث حوله .. لكن ما الذي كان يقصد جاك بحركته ؟
لم أفهم في بادئ الأمر , بدأ يتحدث الي و كأني عدو طال انتظاره .. ردد على مسامعي ما معناه أنه سيسحقني بعد أن يعرف السر وراء اهتمام العجوز بي .. كان كالمجنون الذي يعرف و يفهم ما تنطق به شفتاه .. يبتسم ثم يغضب تم يضحك ثم يتحداني وأنا لا أستطيع أن أحرك ساكناً ..

انتابني شعور بالشفقة على حاله بعدما سمعته و أحسست به , ثم تلاه شعور بالغضب و المُقت و الرغبة في دفنه حيا بعد الذي رأيته يفعل بالدكتور ونيس ..
كان يتحدث مبتسما .. وضع يده على رأس الدكتور .. و أمسك بشعره .. و رفـــــــــع النـــصـــف العـــلـــوي من رأســـه .. لقد قام جـــاك بعملية دقيقة على عظم جمجمة ونيس .. كنت أرى غشاء تلافيف المخ واضحة جلية أمامي بعد أن رفع الغطاء العظمي ..

- إنها المرحلة الأولى في عمليتنا الجراحية الدقيقة .. هنا السر (مشيرا الى دماغ الدكتور ونيس).. هنا القوة .. هنا الطاقة .. هذا هو إلـــــهـــي .. لا يفصل بيننا و بينه سوى حزمة تلافيف المخ ثم الضفيرة العصبية المشيمية للبطين الثالث ثم القوس المخي ثم نصل اليه ..

وضع يده مرة أخرى فوق رأس ونيس الذي كانت عيناه و شفتاه ستخبرني بسر جاك قبل أن تحل بنا هذه المصيبة , ثم أغمض عينيه و انتظر قليلا .. ثم رفع يده و بها نتوء صغيرة .. كالحصبة أو أصغر و هو يقول ..

- أتعلم ما هذه أيها الغبي .. أتعلم .. لا .. و كيف لكم أن تعلموا بسر أدمغتكم .. أيها الدواب .. إنها الغدة الصنوبرية .. هنا مكمن القوة .. أنظر لصغر حجمها .. تكاد لا تراها .. لو لم أكن أحترم ذكاء هذا الرجل لعجنت مخه قبل أن أقطع رأسه و لكن .. سأترك لأهله شكله الذي عهدوه به حتى يترحموا له عند ربكم الذي تزعمون .. هذه يدي .. سأدخلها بجوفه من الخلف دون أن أحدث مكروها بذرّات و خلايا جسمه و سأقطع شرايين قلبه الآن .. أدع ربك الآن أن يوقفني .. أدعوه ..أدعوه .. توسله لنرى من الأقوى...
لقد عرفت رسالة المنظمة العالمية التي تحدث عنها ونيس .. إنهم لا يحاربون الدين و الإيمان فقط .. بل يحاربون حرية الإنسان و اعتقاده .. إنهم شياطين الإنس ..
أدخل يده بقوة في ظهر الدكتور برهة .. أحسست بضغطته لقلب ونيس تجتاحني.. لقد قتل الرجل ...

مات ونيس بسببي .. أخرج يده سليمة كما هي و أعاد غطاء جمجمة ونيس باليد الأخرى ثم لفّ يده اليمنى مرة أخرى بهدوء على رأسه كلية بأصبعه دون أن تنزل قطرة دم واحدة على قميصه .. حتى الدماء كانت متوقفة .. نظر اتجاهي قبل أن يقول ..

- لقد جئت هنا من أجل الغدة الصنوبرية للدكتور ونيس و من أجل قتله .. كان من المفروض أن يقع أمامك صريعا و كأنه مات بسكتة قلبية .. حتى تعود الى الينا بغواصتهم التي نجهل مكانها و يكون الصيد أثمن .. لكنك رأيتني و رأيت كل شيء .. و لا أظنك ستعود الى الجزيرة بعد الذي شاهدت .. لذلك لا بديل عن أخذك الى هناك بنفسي .. سيخبرني شيخكم المعتوه بكل ما أريد هناك .. وهذه المرة سأقَطعك إرباً أمامه إن رفض طلبي .. و سأبدأ من الأسفل ..

لقد تفاجأت من نفسي ..

لم يتسلل الخوف الى قلبي و لم أشعر في أي لحظة من اللحظات بالخوف ..بل أحسست بالعكس تماما ..
أحسست بالقوة و الرغبة بالتحدي ..
هذا ما جعلني أثق أكثر من أي وقت مضى أنّ على هذا الكائن المدعو جـــــاك الاختفاء من على وجه الأرض و بأي ثمن ..و سأكون السبب وراء تدميره.. يجب أن أقابل الحكيم .. لا بد و أنه يعلم نقطة ضعف هذا المجنون .. فهمت الآن فزع حسن من الجزيرة ..فهمت لماذا أغرق الغواصة و قتل العشرات و أحرقهم ..
إذا كان هذا ما يستطيع فعله جنديهم خارج الجزيرة .. فماذا يفعلون هناك في مختبراتهم .. لقد صدق الدكتور ونيس .. يجب قتلهم جميعا ..
تحرك نحوي بضع خطوات و انحنى مقتربا من وجهي يحدق بي كما فعل آخر مرة .. كنت أحاول أن أحرك أي شيء في جسمي عندما كان يقتل الدكتور ونيس أمامي .. لم تكن لدي القوة الكافية لذلك .. لكني تمكنت من تحريك القرنية لبرهة و جيزة .. قفز جاك من مكانه حين رأى حركة عيني الى اليمين ثم الى الشمال و انتفخت عيناه الصغيرتان ..
لقد عرفت شيئا مهما ساعتها ..

رغم قوته الخارقة و جبروته و تكبره و غروره ..
إلّا أنه يتوجّس مـــــنّـــــي ..
إنه يخشى شيئا مجهولا بداخلي لا يعلمه ..
و هذه أول نقطة ضعف أعلمها عنه ..
و هذه بداية هزيمته ..
إنه يخشى فعلاً أن أقضي عليه ..
رغم أني لا أعلم كيف لكني تيقّنت أن بإمكاني القضاء عليه ..
فقط يجب أن أرى الحكيم ..

كـــــريـــــمـــــة

لقد سعدت كثيرا بخوفه لكني كنت أجهل أن الرعب قد يصل به الى الجنون .. كان الإحساس بالخوف أمرا جديدا عليه .. لم يستطع أن يخفيه و لم يتقبّله كبريائه .. كنت أجهل تماما قوّته و لم أكن لأتخيّل ذِروتها ..و لم تكن لدي أدنى فكرة عن كيفية القضاء عليه .. ما الذي أملكه من قوة حتى أتمكن من ذلك ..

علمت اسم ونيس قبل أن أراه ..

تمكنت من القضاء على المخدر بجسمي ...

وهبت كل ما أملك لفعل الخير ..

كلّ هذه الأشياء ليست قوة .. بل مِنّة من الله .. اسم ونيس خاطرة لم يستطع العلم إثبات حقيقتها لحدّ الآن .. و القضاء على السم الذي تسبب لي في الشلل التام كان بسبب آية من القرآن و ليس من عند نفسي ... و فعل الخير أيضا ليس من عند نفسي بل هداية و نور ..

لكن جـــاك .. بإمكانه أن يطير .. وهو أسرع ممّا قد يقبله العقل البشري .. كما أنه تمكّن من الوصول الي فقط من خلال لمسي مرة واحدة ليتجاوز كلّ احتياطات ونيس ..

ولديه قدرة رهيبة على اختراق المادّة كما فعل بقلب ونيس ..

ناهيك عن أنه يستطيع إيقاف الزمن ..

كيف أهزم مخلوقا كهذا ؟

و من أين له بهذه القوى الخارقة ؟

لو أخبرني أحد عنها قبل أن أراها بعيني و أعيشها لما صدقته ..

تسببت حركة عيني في الزمن المتوقف بهزة لكبريائه .. لم يتمالك نفسه .. بدأ يصرخ في وجهي معبرا عن غضبه من الحكيم و كيف أنه لو لم يتلقّ الأوامر بعدم قتلي لفعل ليثبت لهم و للحكيم أنني لا شـــــــيء ..

ابتعد خطوات .. أشاح بوجهه عني و وقف قرب باب المقهى و كأنه يفكر في الخطوة القادمة .. أسهمت ببصري نحو قميصه المزركش بالألوان من خلف و سرواله الأبيض الناعم الملمس و تساءلت ..
كيف لشخص مثل جاك أن يصل به حقده و كرهه للمحيطين به و المختلفين مع رأيه و فكره لأن يقتلهم دون أن تأخذه رحمة و لا شفقة ..
عاد الي مبتسما مرة أخرى .. لكن ابتسامته هذه المرة كانت صادقة .. لم تكن تحمل في ثناياها أيّ استهزاء .. لقد كان سعيدا فعلا .. إنه يعرف ما يتوجب عليه فعله الآن .. لكن ليس أنا ..
اقترب مني ووضع يده على الجهة اليسرى من صدري .. أغمض عينه و بدأ يتحسس بأنامله تحت الصدر جهة القلب بهدوء .. و كأنه ينصت اليه .. ثم سألني ..

- هل تُـــحـــب يا هـــذا ؟

لم أكن أستطيع أن أجيبه و لو تمكنت من ذلك لما أخبرته بشيء .. إنه يكرهني لدرجة أنّ اسمي أصبح ثقيلا على لسانه و شفتيه ..

- لا تستطيع أن تجيبني .. أعلم .. لكنك تمكنت من تحريك قرنية عينك .. لم يستطع أن يفعلها شخص قبلك .. لا مشكلة عندي .. هل تعلم أنّي أحصل دائما على ما أريد ؟ هل تعلم ما أريد ؟ لا تعلم ؟ سأجيبك .. أريد أن أقتلك .. لكني لا أستطيع الآن .. لدي أوامر .. إذا ما العمل ..

أغمض عينيه برهة و هو يردد تفاهاته التي يرددها منذ دخل المقهى ثم فتحهما و على ملامحه آثار البشرى كالذي علم بنجاحه في الامتحانات التي سهر الليالي الطوال في التحضير لها وها هو يعرف النتيجة عبر الهاتف من صديق .. ثم طرح الســـــؤال الذي زلزلني في ذلك الزمن المتوقف ..

- أتعلم أنّ للقلب ذاكرة ... من هي كـــــــــــريـــــــــمـــــــــة ؟

لم أستوعب السؤال في بادئ الأمر .. لكني فهمت ما الذي يريد أن يفعل هذا المجرم .. لقد وضع يده على قلبي و استخلص منه أسماء الناس الذين أحبهم .. فهمت لماذا سألني في البداية إن كنت أحب شخصا .. لقد ألقيت حينها بسؤاله خلف ظهري لأنه لا يستحق أي ردٍّ منّي ..
كـــــريـــــمـــــــة ... إنّها كاتبتي .. إنها في إجازة الآن ..

ابتسم بمكر و ردد خلفي ..

- أووووه .. هي في إجازة إذن .. لماذا لا نبحث عنها يا صديقي ..

كانت الأوامر تمنعه من قتلي لكنها لم تكن تمنعه من قتل أقاربي .. لقد نقّب داخل مذكرة قلبي و بحث عن كل من أعزُه و أكن له مودّة ..
ابتعد مرة أخرى عني مسرورا كطفل سعيد بهدية من والديه .. رفع ذراعه عاليا في ركن فارغ من الزبائن بالمقهى ثم قام برسم دائرة كبيرة بيده اليمنى في الفراغ الذي ما إن أتمّ رسمه حتى تغير لون الدائرة من العدم الى الأزرق الفاتح .. بدأ قلب القرص الدائري المرسوم في الفراغ يوحي لمن يشاهده و كأنه حوض مائي نقي متوقف بشكل عمودي و متّزن ..
لم أفهم ما الذي كان يفعل هذا المجنون حتى بدأ قلب القرص بإظهار ما خلفه لتتضح الصورة بعد ذلك ..
لقد فتح جاك نافذة زمكانية على موقع كـــريـــمـــة .. كاتبتي ..
اتّضحت الصورة و ظهرت لنا سويّا و هي في الغابة قرب شلال صغير مع والدتها العجوز ..
لقد أخبرتني قبل أن أوافق على إجازتها أنها ستقضيها بمدينة إفران شرق البلاد ..
أمعن النظر اتجاهي و قال ...

- ما رأيك دكتور عماد أن تأتي معي لنلقي السلام على كاتبتك المصون كريمة .. أظن أنها ستسعد بك كثيرا ..

كانت كريمة كاتبتي منذ أكثر من خمسة عشر سنة و لديها معزة خاصة بقلبي , فأخوها كان صديقا قديما لي توفي جراء مرض السرطان اللعين و

كانت آخر شيء يوصيني به .. فشلت تجربتها في الزواج بسبب أمها .. لم يتقبل زوجها أن توليها كل ذلك الاهتمام .. فتاة خلوقة و لم أسمعها يوما تمتعض من كثرة العمل و الزيارات التي لا تنتهي الّا في ساعات متأخرة من الليل ..

كانت تجلس على بِركة صغيرة قرب الشلال بينما كانت أمها العجوز نائمة على كرسيها المتحرك ..

خرج جـــاك من القرص الذي رسم نحوها من خلفها لم أعد أسمع صوته و هو يكلمني .. كل ما كان يصل من القرص الأزرق هو الصورة فقط ..

كانت خطواته نحوها بطيئة .. لم يكن الزمن متوقفا هناك , فاجأها بغتة و وضع يده اليمنى بسرعة على فمها و الثانية بعنقها من الخلف و ضغطها اليه بقوة , لم تكن تستطيع أن تصرخ أو تطلب النجدة , لقد تمكن منها كما يفعل الأسد

بفريسته , كنت أشاهد هذا المجرم يخنق كاتبتي و لم أكن أستطيع أن أحرك ساكنا .. في هذه اللحظة بالضبط .. اختفى شيء من قلبي و لم يعد له وجود .. اختفت الشفقة و الرحمة التي كان من الممكن أن يأمنني عليها إن أنا قدرت عليه ..

بقي ممسكا بخناقها الى أن فارقت الحياة .. وضع رأسها بهدوء على حشائش الغابة و أزهارها ثم استقام واقفا و عاد بهدوء و طمأنينة كالذي خرج توّا من المسجد تملئ علامات الخشوع وجهه ..

لقد دمعت عيناي في قلب الزمن المتوقف من طرف هذا الوحش .. لقد حرك الألم الذي عصف بقلبي جراء جريمة القتل التي شاهدت مباشرة أمامي كل خلية و ذرة من جسمي ..

كنت أراه يتحرك نحوي كما بالعرض البطيء و يخرج من القرص الزمكاني من إفران و يدخل عندي هنا بمقهى محطة القطار بطنجة بلباسه الذي عدت أكره ..

و مشيته التي عدت أكرهها .. و صوته الذي عدت أكره ..

لقد كرهت كل شيء فيه .. لقد أصبحت أكرهه لدرجة لا أظن أن بإمكانه تخيلها ..

و لن يفهم و لن يعِيَ جسامة ما قدّمت يداه إلّا حين سيصبح تحت رحمتي ..
لأنني و ببساطة ..
سأنتقم لمقتل ونيس و كريمة..

الشقيّة

أكرهه و سأقتله .. كيف ؟ لا أدري ... و لكن كان هذا إحساسي ساعتها ..
تقدم نحوي مرة أخرى و سحب معه أحد كراسي المقهى بيده اليمنى ..
و وضعه أمامي وجلس عليه و اقترب مني كعادته .. أثبت لي بتصرفاته معي بأنه يبحث عن ندّ حقيقي يقاتله .. لكنه لم يجده بعد .. إنه مشتاق لعدوّ يستطيع أن يتغلب عليه .. و في نفس الوقت يعتريه الخوف من تلك اللحظة التي سيقضي فيها شخص ما عليه .. كرر العملية مرة أخرى .. وضع يده على صدري و هو يقول ..

- كانت فتاة طيبة .. أعرف .. لذلك كنت تُكِنّ لها كل ذلك الود .. لكن ما لا أفهم .. كيف لا يوجد في قلبك حُبّ لأحد سوى والداك ؟ عادة أجد في قلب الرجال بعد حب الوالدين و الأطفال و الزوجة و الإخوة ... حب الأصدقاء و الصديقات .. قلب الرجل كالرمان يتسع للكثير من الناس .. لكن أنت .. لا أفهم .. إنك محظوظ .. والداك توفيا منذ زمن .. لست متزوجا بعد و ليس لديك أطفال .. أرى أنك تبكي كاتبتك يا هذا .. جيد جدّا .. لو كانت لديك زوجة و أطفال أو لو كان والداك على قيد الحياة لكان الأمر ممتعا أكثر .. لكن سأكتفي بهذا ..(انحنى برأسه وأقترب مني أكثر) هناك شخص آخر في هذا القلب القاسي ..
من هذه المرة يا ترى ؟
أستطيع أن أحس بوجوده .. دقات قلبك تشير اليه...
لكني لا أراه جيدا ..

كنت أحاول أن لا أفكر في نوار .. فلا ذنب لها فيما يحصل لي و لن أتحمّل مشاهدتها تموت أمامي كما حصل لكريمة الكاتبة .. لكن ماذا عساي أفعل ؟
خفت و ارتعدت فرائسي المجمدة بالزمن هذه المرة .. ذلك أن جـــــاك

يبحث بداخلي عن كل من له علاقة بي ليؤذيني .. أستطيع أن أتحمّل أذيّتي و لكني لا أستطيع أن أتحمّل عذابات الناس بسببي ..
لم يبتسم هذه المرة .. بل رأيت الدهشة على ملامحه .. و هو يقول ..

- كيف ذلك مستحيل .. لا أصدق .. و لكن .. ولكن القلوب لا تعرف الكذب .. إنها حقيقة ..

ثم أخذ يضحك بشكل هستيري و بنبرة استهزاء و هو يخاطبني ..

- ليس حبا كبيرا بما يكفي و لكنه على أي حال يبقى حبا .. الذي لا أفهم هو كيف حصل ذلك ؟ و خصوصا بقلب قاسي كقلبك ..

حسبته سيفتح نافذة على نوار ليقتلها أيضا لكنه فاجئني بما لم أسمعه من قلبي قط ..
سمعت ما أسعدني دون أن أفرح ..
و أبكاني دون دموع ..
و أضحكني دون أن أبتسم ..
وأغضبني دون ردة فعل منّي ..
سمعته يسألني ..

- أنت لا تعلم من هي لتحبها أيها الجاهل .. كيف تحب مـــــاريـــــا و لم ترها سوى بضع دقائق ؟ كيف تحبها و أنت تجهل أنها ... (يضحك) لا .. لا .. لا.. لن أخبرك من هي .. سأتركك تحبها يا غبي ... كم يسعدني جهلكم أيها الدواب .. هذا جنون و غباء البشر الذي يجب علاجه , أنت فعلا محظوظ .. لن أستطيع قتل تلك الشقيّة ..

(نهض من على الكرسي و بدأ يتمشى وسط المقهى كما لو أنه بنزهة) لقد أمسكتُها فقط لأنها ارتكبت خطأ محاولة إنقاذ ذلك السمين الغبي الذي يظن أنّ بإمكانك أن تنقذه .. لكن مع أني لا أستطيع قتلها إلا أن ما سأخبرك به سيؤلمك .. و كل ما يؤلمك يسبب لي السعادة ..ألست تحبها ؟ مع أنه حبّ مستحيل ولن تبادلك إياه حتى لو رغِبَت هي في ذلك .. إلّا أني سأسميها حبيبتك (مبتسما) ... حبيبتك مـــاريـــا صديقي الدكتور الغبي الذي يظنّ

أنه سينقذها محـــتـــــجـــزة .. وجسدها الصغير معلق بأسلاك من نحاس داخل قفص زجاجي ضخم يمنع تسرب المادة أيّا كان مصدرها , و لأن لديها القدرة على التنقل حيثما شاءت فقط بواسطة التفكير في المكان الذي تودّ الذهاب اليه , فقد عمل خبرائنا على اختراع جهاز كهربائي خاص يمنعها ببساطة من التفكير حتى لا تتمكن من الهرب .. أنه يصعقها كهربائيا كلّ ثلاثين ثانية , و بهذه الطريقة لن تفكر في شيء سوى الألم الى أن نجد طريقة لفهم تلك القدرة الخارقة في التنقل و التي ما زالت غائبة عن رصيدي .. إنها تتعذب منذ أنقذتك دكتور عماد فماذا أنت فاعل أيها الغبي ؟ أدع ربك أن ينقذها مرة أخرى... لماذا لا يجيبك .. أراه لا يتدخل لإنقاذكما.. (ضحك هستيري)

اختلطت علي مشاعر الألم و الغضب و السعادة .. لم أكن أدري ما الإحساس الذي يجب على جوارحي أن تتفاعل معه ..

لقد أدخل جاك يده في أعماق قلبي و أخرج منه أحد الأسرار التي لم أبح بها حتى لنفسي .. أنا أحب مـــــــاريـــــا ..

كان ألمي شديدا بعدما علمتُ بمعاناتها و غضبي أشد لأنني كنت السبب في أن جاك تمكن من أسرها و اختفت سعادتي بما علمت من حبي لها وسط هذه العواصف النفسية الأليمة ..

لقد قال جاك أنه حب مستحيل و أنّي لا أعلم من هي ماريا .. أحسب أن نرجسيته منعت قلبه من الحب طوال حياته .. لذلك لن يفهم ما هو الحب .. إنه لا يعلم أنّ لا شيء يقف أمام الحب .. و أن الحياة هي الحب و أننا خلقنا من أجل الحب و ما دونه لا شيء .. كنت أعلم و أعي و أعرف معنى الحب .. كنت في رحلة البحث عنه مع نوار , لكني لم أعشه مرة في حياتي .. و أظنه قد طرق بابي الآن و هذا المغرور يجهل معناه و حقيقته ..

لقد عشت لحظات أليمة عند باب عروس الشمال و رأيت قوة و جبروتا و طغيانا و تكبرا و إجراما لم يسبق لي أن رأيته في حياتي عند مريض مختل كجاك .. لم يهوّن علي ما شاهدت و عشت سوى رؤيـــتـــها .. لقد خفَّفَت علي الكثير الكثير .. وشحنتني قوّة و عزما و علما كان كافيا لأبدأ مشواري

في هذه المعركة ضد جاك و ضد الجزيرة .. لم أسعد في حياتي بعودة شخص ما كما سعدت بعودة مـــــاريـــا من أجلي ..

البحر الميت

كرّر سؤاله ثلاث مرات ..

- ماذا ستفعل الآن أيها الغبي ؟

كان جاك يصرخ في وجهي بقوّة , لم أستطع أن أحرك قبلها سوى قرنية عيني , لكن الغضب الذي تسبب لي فيه بعدما قتل أمامي الدكتور ونيس و الكاتبة كريمة و العذاب الذي تلاقيه ماريا بسببي أشعلا بداخلي ناراً و فجّرا بركانا تحركت معه أصابع يدي اليمنى لترتعد وكأني أكتب بسرعة على لوحة مفاتيح الحاسوب ثم تلتها أصابع يدي اليسرى .. ظهرت عليه علامات الخوف مرّة أخرى إلّا أنه تمالك نفسه بسرعة .. كنت أودّ أن أمتلك مسدسا في تلك اللحظة لأتمكن من تفجير رأسه الصغيرة, لكن ليس بالأماني تدرك الغايات .. كل تلك الكتلة الهائلة من الغضب لم تستطع أن تحرك جسدي لأقطع حبل ذلك الزمن المتوقف .. بل مكنتني من الصراخ فقط ..
لقد صرخت بوجهه بقوة و الدموع تنهمر على وجنتاي و أنا أردد كلمة لم يسبق لقلبي و روحي و كياني أن قالها و هو مؤمن بها كل هذا الإيمان ..

- سأقتلك ...

لم يسبق لي أن رأيت جريمة قتل واحدة في حياتي كلها , و ها أنا أصبحت شاهداً على جريمتين في ساعة واحدة .. تراجع الى الخلف بفعل صدمته من صرختي و كلمتي .. كنت أعلم يقينا أني لن أستطيع أن أؤديه .. فلا علم لي عن كيفية القضاء عليه , لكنه كان يجهل ذلك .. كان في أعماق نفسه مصدّقا لما قاله الحكيم .. لكنه كان يجهل الطريقة و الشخص .. إنه الآن يعرف الشخص , لكنه يجهل كلّ شيء عنه ..

بينما هو عائد الى الخلف ظهرت لي مـــــاريـــا خلفه بسرعة الضوء بقميصها الأسود و سروالها الفضفاض الذي عهدته بها آخر مرة و على شفتيها الكبيرتين ابتسامة مكر و دلال و غنج المرأة التي ستتمكّن من الانتقام , كان ذلك واضحا جليّا في عينيها الشديدة السواد , كانت الخصلات البيضاء تترنح وسط شعرها الأسود القصير الرائع , عرفت من حركة عيني جاك أنه أحس بها خلفه , ازداد هلعا و لم يكد يلتفت ورائه حتى كانت ماريا قد أمسكت به من قميصه المزركش من الأسفل باليد اليمنى و من كتفه باليد اليسرى بقوة .. ثم اخـــتـــفـــوا ..

ثم عادت الحياة فجأة الى المقهى و الى جسدي ..

كل شيء عاد ..

كلّ الأصوات ..

إلّا ونـــيـــس ..

سقط الى الخلف على كرسيه و كأنه نام فجأة ..

لم يلحظ أي شخص في المقهى أن جريمة قتل مع سبق الإصرار و الترصد قد تمّت هنا .. رحم الله ونيس .. لقد أحببته منذ أول لقاء .. و تمنّيت لو أني لقيته منذ زمن .. لكن شاء الله له أن يُقتل مدافعا عن قضية نبيلة ..

لم يكد يعد كل شيء الى حاله حتى عمّ الصمت مرّة أخرى ..

و توقف الزمن مرة أخرى و خشيت أن يعود جـــــاك ...

كنت أريد أن أقابله , لكن ليس الآن .. بعد أن أرى الحكيم ..

كانت خشيتي من قلّة حيلتي و ليس من ضعفي ..

عادت مـــــــــاريـــــــا هذه المرة , كان ثاني لقاء بيننا , لم أكد أعبّر عن سعادتي بلقائها حتى هرولت اليّ مسرعة و أمسكت بيدي اليمنى ثم ظهر خلفها جاك بسرعة الضوء غاضبا و ثيابه مبللة , تقدم نحونا رفع ذراعيه اتجاهنا ثم أضاءت يداه و اشتدّ بياضها و كأنه سيطلق نارا و لهبا حارقا علينا أو ما شابه ..

ثم تغيّر كل شيء .. لم يعد هناك مقهى أو زبائن أو أي شيء .. تغيّر المشهد خلف مـــاريا .. أصبحت أرى الصحارى الآن .. ثم فهمت أين نحن ..

نحن فوق هرم خـــــوفـــو أكبر أهرامات مصر ....

لقد نقلتني ماريا الى مـــــصـــــــر في لمح البصر ...

أحسست بنفسي أطير لكنها أيقظتني من سكرة السماء و قالت ...

- اسمع دكتور عماد .. ليس لدينا وقت كافي و لن أتمكن من إنقاذك هذه المرة يجب أن تعتمد على نفسك من الآن فصاعدا .. لقد قال الحكيم عندما أنقذني أنك كنت مستعدا قبل أن ترى جاك .. لكنك فشلت على ما يبدو في الاختبار الأول ..

ظهر جـــــــــاك في السماء عاليا على يسارنا التفتت اليه ماريا بسرعة و أمسكت بيدي مرّة أخرى .. ثم قالت قبل أن يتغير المشهد ..

- مستحيل لقد رميته في البحر الميت في أخدود وادي الأردن .. كيف تمكن من العودة ؟

ثم ها نحن في بناية عالية .. جد عالية .. إنها ناطحة سحاب و في الأسفل ميدان كبير .. أه .. إنّه ميدان التايم سكوير في مانهاتن بنيويورك .. الأضواء الملوّنة هنا تهزم ضوء الشمس تحتنا ..

- اسمعني جيدا دكتور عماد لا وقت لدي لأخبرك بكل شيء .. لدي رسالة مهمّة من الحكيم يجب أن أخبرك بها قبل أن يلحق بنا جاك ..
- أما هي ؟

ثم لاح لي جاك في سماء نيويورك .. كنت أستطيع أن أرى الغضب على ملامحه من مئات الأمتار في السماء .. كبريائه سيدمره .. كيف لا يستطيع أن يمسك بصاحبة الخمار الأسود الأنيق ..
أمسكت يدي مرّة ثالثة لأجد نفسي فوق سور الصين العظيم ..

- لقد تمكن من شيفرتك الوراثية دكتور عماد .. إنه يستطيع أن يجدك أينما حللت و ارتحلت .. سأتركك هنا دكتور عماد .. سيتمكن من إمساكي إن لم أختفي عنه ..

- لكنه أمسك بك من قبلُ ... إذن بإمكانه أن يجدك أينما ذهبت ... أليس كذلك؟
- لا دكتور .. نحن لسنا مثلكم .. المهم الآن .. الحكيم يخبرك أنّ بإمكانك أن تهزم جـــــاك .. يجب عليك فقط أن تكلمه ..
- كيف ؟

قطع جاك حديثنا في سماء الصين .. لقد أطلق شهبا بيضاء من يديه لم أعلم مصيرها و حجم الخسائر التي أحدثت في السور العظيم قبل أن أحسّ بالبرد الشديد و نحن على أحد قمم الافريست في أوروبا ..

- كيف أكلم ذلك المتعجرف و قد أمسيت أريد قتله ... إنه مجرم ..
- أعرف لكنك إن عرفت من هو .. أظن ستستطيع أن تكلمه ..
- لقد قال ونيس نفس الكلام .. من هو إذن ؟ أخبريني ...

صـــــــــرخـــــت و اخـــتـــفـــت ماريا بعد أن أصابها جاك بأحد تلك الشهب اللعينة .. كانت قريبة مني بما يكفي لأعرف أنها لم تصب إصابة قاتلة ..
اقترب مني جاك بهدوء في تلك السماء القارّة .. لم ينطق بكلمة واحدة ..
كان الغضب هو جاك ..
و جاك هو الغضب نفسه ..
كان ونيس رحمه الله يريد أن يخبرني بسر عن جاك و كذلك حاولت ماريا .. لكنه كان دائما هنا لإفساد كل شيء ..
من هو جـــــــــــــــاك ؟
و لماذا أمرني الحكيم أن أكلمه ؟
ولماذا قالت ماريا أنها ليست مثلي ؟
لم أعد أفهم ..
هل يريدني الحكيم أن أكـــلـــــمـــــه أو أن أقـــتـــــلـــــه ؟
هكذا كنت أسأل نفسي الى أن ذهبت الى الجزيرة
مع جاك لأفهم قصة الحكيم ..
و قصة تلك القوى الخارقة و مصدرها ..

و قصة المنظمة الدولية التي تسيطر على العالم ..
هناك في الجزيرة علمت من هو جاك ..
و علمت لماذا كان حسن يصر على أن أنقذهُ منها ..

عيد الميلاد

أمسك بي جاك بعد أن فتح بابا على سماء زرقاء صافية و سحبني نحوه بقوّة أغلقت نهائيا الباب في وجه مقاومته ..
بعد أن اجتزت القرص الأزرق الدافئ وجدت نفسي أهوي من السماء تماما كما تركني حسن أوّل مرة في السماء أهوي اتجاه البحر , لكن الفرق هذه المرة أني كنت متجها بقوة نحو اليابسة المثقوبة .. نعم كان يبدو و كأنّ شيئا ما تسبّب بثقب عظيم داخلها ..
إنها الجـــــــــزيـــــرة ....
لقد عدت الى الجزيرة من جديد , و هي تبدو مختلفة من السماء .. كان الثقب يتّضح شيئا فشيئا و أنا أقترب منه .. تبيّن لي أنه بحر وسط الجزيرة البيضاوية الشكل و هو محاط بشواطئ خلابة و جبال عظيمة مكسوة بغابات رائعة .. لم يتسرب الخوف الي و أنا أهوى بتلك السرعة على حواف الجزيرة العظيمة .. كنت أعلم يقينا أن جاك لن يسمح بسقوطي لأنه مكلف باستقدامي الى الجزيرة سالما ..
أمسك بي من كتفي بقوة ..
لم أصرخ و لم يخطر ببالي أن أكلمه ... كل ما أحسّ به اتجاهه ... أريده أن يراه ..
فلا كلام بيني و بين مجرم من طينته قتل شابة بريئة لا حول لها و لا قوة ..
ألقى بي على بعد أمتار من رمال الشاطئ دون أن أصاب بأذى , ثم نزل من السماء بهدوء و سكينة , لم يلتفت الي و لم ينطق بكلمة , وقفت و تسمرت في مكاني أسهمه بنظراتٍ ثاقبة ملؤها الغضب , توقف برهة هو الآخر دون حراك لأسمعه يقول ..

- تحرك أيها الغبي ..

لم أجبه و لم أتزحزح من مكاني , كنت أفكر في غطرسته , كما كنت أيضا سعيدا بتمكن ماريا من الهروب .. وبعد ثواني معدودات من التوقف ..

أختفى جاك من أمامي و أحسست بألم فظيع بأحشائي و صدري و أضلعي و اختلطت علي مشاعر الألم دون أن أفهم ما حصل ..
كل ما أذكر هو وجه جاك الغاضب قبالة وجهي .. ثم كدمات و صدمات في رأسي و كتفي و ظهري و رجلي اليمنى ..
فهمت في أجزاء من الثانية و السماء تدور و تلفُّ بي ما حصل ..
لقد وجّه لي جاك ضربة قوية رمتني بعشرات الأمتار الى الخلف و جعلتني أتدحرج في الرمال كلعبة أطفال .. و قبل أن يغمى علي من شدة ذلك الهجوم رميت ببصري الى بقية بدني لأتفاجأ بما فعل جـــــاك ..
لقد بُـــــترت رجلي اليمنى بكاملها و لم أعد أراها قربي ..
لقد أحدثت ضربته ثقبا غائرا في صدري ليصبح اللون الأحمر هو لوني ... لون الدم ..
لم أفهم ساعتها لماذا فعل جاك ما فعل .. فكيف يقتلني و هو مطالب بإحضاري الجزيرة حيا ..
ثم فقدت الوعي و بدت و كأنها سنوات.. احتسيت فيها القهوة مرة أخرى مع ماريا في نفس المقهى بالبندقية ... ثم فتحت عيناي على و جه شبح قريب مني للغاية .. اتّضحت معالمه شيئا فشيئا .. إنها امرأة أخرى فائقة الجمال..
لقد استيقظت و في فراشي شابة زرقاء العينين يلمس أنفها أنفي .. دفعتُ جسمها بلطف حتى أفهم أين أنا و من هي تلك الفتاة لكني أحسست بيدي تلامس نهديها فأعدتها الي بسرعة و ابتعدت عن الشابة في الفراش و الخجل يعصرني حتى سقطت من فوقه على سجاد أبيض ناعم ..

جُلت ببصري في المكان الذي أنا فيه فإذا هي غرفة واسعة شديدة البياض

بها سرير أنيق أبيض كبير و سجادة بيضاء تحفّها كليا و أرائك بيضاء جميلة انسيابية الشكل و مرآة عملاقة كبيرة معلقة على الحائط الأبيض يبدو

أنها تؤدي وظيفة التلفاز و لوحة فنية عملاقة ترمز الى دماغ الإنسان و سقف زجاجي مزخرف .. كان في الغرفة ثلاثة أبواب مفتوحة يؤدي كل منها الى الحمام و دورة المياه و الأخير كان مغلقاً و الأكيد أنه كان للمغادرة ..

خرجت الشابة من تحت الغطاء الذي كان يجمعنا و تقدمت نحوي فإذا بها عارية كما خلقت .. أشحت ببصري الى الأرض عن جسدها الذي التصقت صورته في مخيلتي و الذي ليس به ما يدعو الى الخجل و الاستحياء و رأيت أني معافى في جسدي و لا يبدو من خلال إحساسي ببدني أني تعرضت لحادث بتر أو ثقب في أحشائي ..

أحسَّت الشابة الشقراء بشيء من الحرج عندما أشحت بوجهي عنها فعادت أدراجها الى الحمام بهدوء و غنج و ارتدت لباسا خفيفا ثم عادت لتحدثني و بيدها كوب عصير ليمون بارد ناولتني إياه قبل أن تبادرني بالسؤال ..

- كيف حالك دكتور عماد ؟
- الحمد لله ..
- وهل تعتقد أن الله هو من أنقذك ؟
- لن أجيبك .. بل سأسألك .. أين أنا ؟
- حسنا .. أنت هنا في غرفتك ..
- أين ؟
- في الجزيرة .. لقد قام طفلنا المدلل جاك بمخالفة الأوامر .. لقد تسبب في بتر قدمك و العديد من الجروح القاتلة .. لكن الدكتور برنارد أنقذك ..
- من هو الدكتور برنارد ؟
- ستراه بعد قليل دكتور عماد , إنه ينتظر فقط أن تستيقظ , إنه يريد أن يراك
- و من أنت و ماذا تفعلين هنا ؟
- أنا روز .. و أنا هنا تمام علاجك و خادمتك .. أطلب مني ما تشاء ..
- كيف تم علاجي ؟ و كم لبثت هنا ؟
- ثلاثة أيام فقط دكتور .. لقد استغرقت عملية زرع الرجل المبتورة و إعادة الأعصاب و الشرايين و كل شيء الى مكانه يومين متتاليين و قام الليزر المنشط بحثِّ جسمك على علاج نفسه بنفسه لمدة يوم واحد فقط بدل السنة و

السنتين و ها أنت معنا الآن أفضل من ذي قبل .. سيعجبك مناخ الجزيرة كثيرا ..

- أين حسن ؟
- حسن من ؟
- حسن الذي تسجنون هنا و الحكيم أيضا ..
- لا أدري عما تتحدث لكن سيجيبك الدكتور برنارد هالي عن كل أسئلتك ..
- ألا تريد أن تخرج لنتنزه بالشاطئ قليلا ريثما يحضر الدكتور هالي ؟ إنه يوم عيد ..
- لا .. لا أريد .. أرجو أن ترسلي في طلب الدكتور .. أريد أن أعرف و أفهم ما يجري هنا ..
- حاضر دكتور ..

تائه .. هذا ما كنت أحس به في تلك اللحظات .. كان ضعفي و قلة حيلتي أمام قوة جاك و هؤلاء القوم حاجزا كبيرا أمامي , فليس لي إلّا أن أسئل و أبحث الى أن أجد الحكيم .. هذا كل ما باستطاعتي أن أفعل ..

لم يدم الأمر طويلا حتى دخل الدكتور برنارد و عرّفني على نفسه بهدوء و بلباقة .. كان رجلا مسنا يلبس بدلة الأطباء البيضاء الناصعة , كان شعره القصير الأبيض و وجهه الحليق الناعم و عيناه الصغيرتان تحت الحواجب السوداء الكبيرة تلقي عليه علامات الوقار و الحكمة , كان طويل القامة بجسم و عضلات متناسقة فيما بينها تبدو جلية من خلال مشيته الهادئة و دار بيننا الحوار الذي أتى بالكثير حول الجزيرة ...

- مرحبا بك دكتور عماد عندنا في الجزيرة , أنا الدكتور برنارد هالي...
- .....
- ما بك لا ترد التحية ؟
- ....
- معذرة دكتور عماد .. كان من اللياقة أن أعتذر عن ما بدر من جاك نحوك .. أرجو أن تتقبل اعتذاري الشديد .. لقد كنت صارما جدا فيما يتعلق بأمر

إحضارك هنا و شدّدت على سلامتك .. لكن جاك حالة خاصة .. لقد أجبرته على الاعتذار لك شخصيا ..
عاد الى باب الغرفة ... فتحه ... و أمر جاك بحركة من رأسه دون كلام تفيد أن يدخل ..
تقدم الأخير بخطوات بطيئة و على وجهه ابتسامة ماكرة يتخللها اعتذار رمزي لي و هو يقول ..

- أعتذر دكتور عماد لما بدر منّي .. لم أستطع أن أتمالك غضبي بعدما تمكنت تلك الشقية من الهرب ..

لم أتمالك نفسي و وجدتني أصرخ منتحبا و الدموع تنهمر دون توقف..

- و ما ذنب تلك المسكينة التي قتلت في الغابة ... إن كنت أنا عدوك و الدكتور ونيس فما ذنب تلك الشابة ؟

كانت نظرات جاك باردة و قاسية عكس الدكتور هالي الذي كان يسمع بأدب و تفهّم ثمّ أمر جاك بالانصراف ليكمل الحديث معي ..

- أعتذر مرّة أخرى دكتور عماد .. لو كان بإمكاني أن أنقذ تلك الفتاة لفعلت من أجلك و لكنه الموت .. عدوّنا اللدود الذي ما زلنا نقاوم دون نتيجة .
جففت دموعي قبل أن اسأله ..
- من أنت ؟
- لقد قدمت لك نفسي .. أنا..
- أعلم .. الدكتور برنارد هالي .. أريد أن أعرف من أنت و ماذا تفعل هنا و ماذا يوجد بالجزيرة و أين حسن و الحكيم و لماذا تسجنون الناس هنا و من أين لجاك بكل تلك القوة الخارقة ..
- سأخبرك بكل شيء دكتور عماد , لكن يجب عليك أولا أن تخرج من هنا و تشاهد بعينك .. سأخبرك بكل ما هو مسموح لي بأن أحدّثك عنه .. هيا

انهض صديقي .. لقد قام الأطباء المساعدون لي بعمل جبّار خلال اليومين الماضيين لإنقاذك .. إنهم يستحقون منك كلمة شكر ..

أشار لي الدكتور هالي لأتبعه و عليه تلك الابتسامة التي ترمي في قلب المريض لذّة الشفاء النهائي من المرض .. كنت أحس بقوة غير عادية تجتاح عضلاتي و تسري في دمائي .. كنت على أحسن ما يرام ..
كانت غرفتي من ضمن عشرات الغرف في ممر أبيض طويل تتجول فيه آلة نظافة صغيرة وغريبة الشكل تصدر صفيراً لا يكاد يسمع وهي تطفو على الأرض دون أن تلامسها , كانت الغرف مرقمة بشكل منظم .. أخبرني الدكتور هالي خلال عبورنا ذلك النفق الأبيض الأنيق أن اليوم عيد و أنهم يحتفلون جميعا في الشاطئ .. لم أسأله لأنه قال أن الإجابات سأراها بدل أن أسمعها ..
بعد انتهاء الممر وقف هالي قرب باب مصعد زجاجي شفاف يظهر ما خلفه و ضغط على زر يمينه ليفتح الباب , تقدم و أشار الي بالدخول قبل أن أتبعه .. ثم بدأ المصعد في الحركة .. استغرق قرابة العشرين ثانية في الصعود قبل أن يتوقف و يفتح الباب مرة أخرى ..
فتح باب المصعد أمام قاعة كبيرة مضاءة من كل الجوانب بأنوار ذهبية و ألوان مختلفة.. على السقف ألوف المصابيح الصغيرة المعلقة بشكل أفقي و بشكل انسيابي عجيب , كانت مزركشة بشتى الألوان التي كانت تنعكس على رخام الأرض الأزرق الفاتح .. و كأني بفندق من الفنادق الفخمة في مونتي كارلو أو أحد الفنادق العالمية الكبرى .. كانت الساحة خالية تماما من أي حركة و كنت أسمع صوت موسيقى صاخبة تأتي من بعيد في الباب الذهبي الكبير أمامنا , تقدم الدكتور هالي بخطوات هادئة أمامي اليه ليفتح الباب تلقائيا و يدخل الصوت المدوي للموسيقى التي لم يكن يحجبها عن الفندق خمس نجوم سوى ذلك الباب العظيم ..
تقدمت بخطوات مسرعة وراء هالي لأفهم ما يحصل لأتفاجأ بأن الباب يؤدي الى شرفة كبيرة تطلُّ على شاطئ الجزيرة من الداخل .. ذلك الثقب العظيم الذي رأيت و أنا أهوي من السماء مع جـــــاك .. و هناك قرب الشاطئ حشد كبير من الشباب و الشابات و الرجال و النساء من مختلف

الأعمار يلهون و يمرحون و كأنه كرنفال برازيلي .. كان الكل منهمكا إما في لعب الكرة الطائرة أو التنس أو الاستجمام و الاستمتاع بحمام شمس أمام المسابح المائية الكبيرة قرب مياه البحر و آخرون يأكلون قرب موائد طويلة مجهزة بشتى أنواع الأطعمة و الفواكه و الخمور , ثم أشار الدكتور هالي الى مهندس الحفلة و مدير الصوت اللذان كانا منهمكين في إعداد مقاطع موسيقية صاخبة لتلك الحشود ..
فتوقف كل شيء .. و رفع الدكتور هالي يده الى الحشود من الشرفة و هو يقول ..

- المرجو أن ترحبوا بضيفنا الجديد في عيد الربيع الذي هو بالصدفة عـــــــــــــيـــــــــــد مـــيـــلاده .. إنه الدكتور كوفي عماد ..

وضجَّت الأصوات و بدأت الموسيقى الصاخبة مرة أخرى و رفعت كل تلك الحشود يدها بنخب الترحاب في يدها و قالت في آن واحد ..

- مرحبا بك دكتور كوفي عماد .. نتمنى أن يعجبك المُقام معنا ..

نظرت جهة الدكتور هالي بتعجب قبل أن يمسك بيدي و يقول ..
- لا تقلق صديقي سأخبرك بكل شيء , لكننا اليوم في عيد و أرجو أن تشاركنا عيدنا الى نهايته و سأخبرك ..

انتابني خلال اللحظات الاولى بعد أن وعيت ما يجري في الغرفة و الفندق الضخم و الاحتفالات أني بالعنوان الخطأ .....

الضربة القاضية

كنت أعرف المطلوب مني...
ولكن بعدما شاهدت تزعزعت مهمتي ..
ما المطلوب الآن ؟
لا شيء غير السؤال .. و السؤال الى أن أرى الحكيم ..
اتجهت نحو الدكتور برنارد الذي نزل الى تلك الحشود عبر درج لولبي من زجاج على حواف الشرفة الكبيرة المطلة على الاحتفالات و لم أتمكن من اللحاق به إلا حين بلغ الشاطئ و خطى خطوات نحو الحشود الراقصة .. ناديت عليه لكنه لم يسمع بسبب الموسيقى الصاخبة و ما إن أمسكت بيده حتى انتهى المقطع الراقص و صعد أحد الشباب الى المنصة حاملا قيثارة في يده و بدأ بعزف أغنية بإيقاع إسباني هادئ ليتعانق بعدها الذكور بالإناث و يمسك كل منهم أعلى الخصر و أسفل الظهر في رقصة هادئة .. رماني الدكتور برنارد بنظرات يتخللها استعطاف كي أتركه يستمتع بالحفل , لكني كنت مُصرّا على الفهم و معرفة ما يجري هناك ..
أمرني بعد إصراري أن نبتعد عن الحفل و صخبه و نتمشى قرب الشاطئ .. و بعد مئات الأمتار من المنصة وقفنا أمام ممر خشبي ضيق يبلغ عشرات الأمتار يؤدي الى جزيرة اصطناعية صغيرة عبارة عن لوح زجاجي كبير متصل يطفو على الماء تسبح تحته أنواع كثيرة من الأسماك الجميلة و الغريبة الشكل من شتى الألوان و به كراسي و مائدة أنيقة و مضلة شمسية عملاقة ..
كنت أتساءل ..
هل هذه هي الجزيرة المرعبة التي كان يحدثني عنها حسن ؟
لا أعلم , لكن الدكتور برنارد هالي كانت لديه بعض الاجابات ..

- ما بك دكتور عماد ؟ أراك شارد البال أمام ما تشاهد.. هل كانت لديك فكرة مختلفة عن الجزيرة قبل أن تراها ؟
- نعم ..
- والآن ؟
- يجب أن تخبرني لأفهم أولا ما يجري .. ثم للحديث بقية ..
- حسنا .. أولا يجب أن تعي دكتور عماد أن ما سأخبرك به لا يعلمه إلا صفوة الصفوة .. ثم إنّ هناك أشياء لن أستطيع أن أخبرك بها .. لأنها ببساطة أســـرار الجزيرة و لا نُطلِع عليها إلّا من اكتملت ثقتنا به .. و أنت دكتور مختلف تماما عن صفوتنا .. لكن لا مانع من أن تدخل عالمنا و تتعرف على أسرارنا إذا كنت فعلا ترغب بذلك ..
- من أين أبدأ إذن .. من أين أبدأ ؟
- من حسن .. و الحكيم .. و القوى الخارقة لجاك .. من أين له بها ؟ و لماذا سجنتم ماريا و تسجنون حسن و الحكيم ..
- (يضحك) على رِسلك صديقي .. أرى من لهجتك أن لديك فكرة خاطئة عنا .. أولا حسن و جاك من أسرار الجزيرة و الحكيم هو سبب قدومك الى هنا .. أما ماريا فإنها جاسوسة و تسعى الى تدميرنا وأسرها أمرٌ عادي تقوم به كل دول العالم ..
- أفهم من كلامك أنّك لن تشرح لي ما يحصل هنا ؟
- بلا .. سأخبرك بكل شيء إن تأكدت أنك ستكون في صفّنا ..
- و إن لم أفعل ؟
- لقد حدثت اتصالات بينك و بين عدو خفي عن أعيننا و كما تمكنوا من اختراقنا بواسطة ماريا فبإمكانهم الوصول مرة أخرى .. و نحن لن نتركهم و شأنهم حتى نقضي عليهم ..
- لماذا ؟ ما السبب ؟
- أخبرني جاك أنك التقيت بالعبقري ونيس .. صحيح ؟
- نعم ..
- أظن أنّه السبب في تلك الصورة التي رسم لك عنّا ..
- لقد مات .. لقد قتله جاك .. (نظرات حادة)

- لقد فقدنا عالما كبيرا كان بإمكانه مساعدتنا في تقدم الانسانية الجديدة بشكل مبهر .. لكنه اختار الطريق الخطأ ..
- أي طريق ؟
- طريق الأديان السماوية .. و أظنك كذلك ..
- نعم أنا أومن بالله ..
- (ابتسامة) أنت حر صديقي و لكن هذا الطريق مسدود ..
- و طريق الإلحاد ؟
- و لما لا تقول ..... طريق العقل ..
- هل تعبدون العقل ؟
- الموضوع أعقد من ذلك صديقي .. سأخبرك بوجهة نظرنا و لديك الحق في قبولها أو رفضها .. فأنت حر أوّلا و قبل كل شيء .. لكن يجب أن تعرف أن مغادرتك الجزيرة غير مسموح بها الآن الى أن نفهم العلاقة بينك و بين الحكيم ..
- إذن لستُ حرّا ؟
- لا .. أنت حرّ في رأيك و لا يمكننا أن نجبرك على تقبل رأي غير الذي تؤمن به .. لكننا في حرب مع منظمة سرّية التقيت بأحد أخطر أعضائها .
- و منظمتكم ؟
- نحن لسنا منظمة بالمعنى الذي أقنعك به الدكتور ونيس ..
- إذن من أنتم ؟
- سأبدأ من البداية و سأخبرك بما هو مسموح به لتفهم فكرنا بطريقة صحيحة
- أي بداية ؟
- سأبدأ من الحرب العالمية الثانية حيث قرر ثلاثة علماء موهوبين في شتى الميادين الفرار بعلمهم من النازية المدمرة و الشيوعية الغبية و الديمقراطية المزيفة و الرأسمالية الجشعة و الطائفية الدينية و العرقية الى مكان يمكن فيه البدء من جديد .. الى مكان يمكن فيه تخزين نتاج العقل البشري منذ بدأ التاريخ .. و كان ذلك خوفا من حرب عالمية ثالثة وشيكة يختلف أصحابها هذه المرة بحصولهم على أسلحة الدمار الشامل بحيث إذا اندلعت شرارة الحرب فقل سلام على الأرض و على الإنسان و على ما هو أهم من الإنسان .. تاريخه ..

تم اختيار هذه الجزيرة و استحضر العلماء الثلاثة كل من آمن بمشروعهم .. مشروع إنقاذ الإنسانية .. كانت شروطهم لقبول العضوية في هذا النادي الضيق هو تحرر الإنسان من أي عرق أو جنس أو دين أو جماعة .. لا وطنية ولا قومية و لا طائفية و لا دين .. وذلك حتى يتم البناء من جديد على أسس صحيحة و دين جديد هو دين الإنسانية .. بدأت الجزيرة تستقبل كل يوم و كل ساعة علماء رواد في ميادينهم و أدباء و فلاسفة و مهندسين و أطباء و قضاة و سياسيين من جميع أنحاء العالم .. كلهم يؤمنون بالمشروع .. تخيل أن يجتمع لديك في مكان واحد أكثر من ألف عبقري في مجاله .. تخيّل السرعة المذهلة التي تقدم بها الطب و الفيزياء عندنا هنا .. لقد تم علاجك بأشعة حرارية أخترعها أحد شبابنا منذ عشر سنوات تُسرّع وثيرة العلاج بشكل مذهل .. أُلوف الاختراعات التي لا و لن تظهر على كوكبنا بسبب غباء الإنسان .. لدينا سيارات تعمل بماء البحر المالح هنا .. ثم اكتشاف علاج داء الايدز منذ زمن ..

أعلم أنك تتساءل لماذا لا ننقذ ملايين البشر الذين يموتون كل يوم بسبب تلك الأمراض .. الجواب بسيط .. غباء الإنسان لن يسمح بذلك .. لو علمت لوبيات البترول بأننا نملك وقودا من ماء البحر لأرسلت أمريكا كل بوارجها الحربية لتدمير الجزيرة و لساعدتها دول كثيرة .. اختراع كهذا سيدمر اقتصادهم .. لو علمت شركات صناعة الأدوية بأنّ لدينا التركيبة الفعالة للقضاء على مرض الايدز و السرطان و السكري لحاربتنا عليه بُغية إعادة بيعه بملايين الدولارات رغم أنه لم يكلفنا سوى التفكير .. و العديد من الاختراعات الأخرى التي لن ترى النور مع الإنسانية الحالية .. هل فهمت القصد دكتور عماد ؟

- إنه مراد نبيل .. لكنه يختلف مع طبيعة البشر الميالة الى الاختلاف و الصراع .. لذلك فإنها مهمة مستحيلة و ستفشل أكيد .. لأنها تناقض الطبيعة البشرية ..
- هناك خطأ في اللفظ صديقي .. إنها ليست طبيعة بل علم .. جُبل الإنسان على النقل و التقليد أيضا .. نحن نسميه العلم الخطأ .. تخيل لو حلّت البشرية الجديدة على عالم لا دين فيه و لا قومية و لا وطنية بل ما سنعلمها نحن و ما سنخبرها به نحن .. لن نترك لها مجالا للصدفة .. سيتعلم الإنسان الحديث

أن الأرض كلها وطنه و سيتعلم أن الجميع سواسية و سيتعلم تاريخه و من أين جاء و ما هدفه في الحياة كما نريد له نحن بحيث سيجد كل الأجوبة جاهزة بدل تركه للمجهول و العصبية لذاته و دينه و قومه ..

- و كيف تريدون أن تتبعكم تلك الملايين من البشر ؟
- أي ملايين .. لن يكون هناك أحد غيرنا .. فقط من في الجزيرة .. الصفوة ..
- هل أفهم أنكم ستقتلون مئات الملايين من جنسكم لتعيدوا صياغة البشرية من جديد ؟
- لم أقل أننا سنقتلهم .. هم يقومون بذلك كل يوم .. نحن فقط سنُسرع الوثيرة الى أن يأتي اليوم الذي سيختفون فيه من تلقاء أنفسهم ..
- و كيف تسرعون الوثيرة ؟
- البشر كما هم الآن منقسمون على بعضهم البعض و موزعون بين المبادئ الدينية و الديمقراطيات المزيفة و الدكتاتوريات الفردية و الجماعية و النزعات العنصرية , و يتم غسل أدمغة الأكثر غباءً و ما أكثرهم بوسائل الإعلام المظللة ثم تُساق البشرية كالأغنام و الدواب , و لتسريع الوثيرة للتخلص من هذا النوع من البشر قامت منظمتنا بالاستيلاء على جميع وسائل الإعلام و التحكم برؤساء شركات البترول و الاقتصاد العملاقة و المنظمات الحكومية و الحكومات المنتخبة و حتى رؤساء الدول أصبحوا رهن إشارتنا دون أن نظهر في الصورة ..

عندما نترك لهم حرية التصرف هذا ما يفعلون ... لذلك كان من الأجدر بنا أن نقوم نحن بالمهمة التي تبدو في ظاهرها خسيسة و لكن هدفها نبيل ... بعدها يتم تسريع الوثيرة بالتحريض بين الجماعات الطائفية و الدينية و السياسية و العلمانية و الشيوعية و حتى الفكر الرأسمالي الجشع يتم تغذيته ليصبح أكثر جشعاً و نبيع الأسلحة التي نخترع للدول الغبية المتناحرة بينها الى أن يختفي أكبر عدد منهم ثم نقوم بالضربة القاضية لنبدأ من جديد ..

لنبدأ بإنسانية مبدعة لا حدود لطموحها...

نبدأ بإنسانية تغزو الفضاء و المجرات لتبحث عن الحقيقة ..

حقيقة الحياة.

الــقـطـار

كنت أود أن أناقش الدكتور هالي طرحه , لكني فكرت مليا قبل أن أنطق و أعبر عن رأيي صراحة لأن الصورة لم تكتمل في ذهني بعد , لذلك قررت أن أجاريه أطراف الحديث بطريقتي حتى أتمكن من الحصول على أكبر قدر من المعلومات و التي من الممكن أن توصلني الى الحكيم .. و حسن ..

- لكن دكتور هالي .. تقول أنكم توصلتم الى السيطرة على وسائل الإعلام و الحكومات و الرؤساء و شركات البترول و الاقتصاد العملاقة .. إذن لماذا لا تستعملونها في توعية الناس و إرشادهم الى ما تصبون اليه من فكر إنساني موحّد ؟ كما أنّ ما تحدثني عنه من سيطرة على مفاصل الإعلام و المال و الثروات في العالم هو من نصيب اليهود و دولة إسرائيل المزعومة من طرفهم ..
- صحيح دكتور عماد .. أولا لقد حاول الشيوخ في بادئ الأمر .. كانت الفكرة على صعوبتها أول شيء يقومون به .. لكن لك أن تتخيل كيف يمكن إقناع عنصري ألماني بأنه ليس أسمى من باقي البشر و لك أن تتخيل كيف يمكن أن تجعل الشعب الصيني يحب الشعب الياباني بعد ما فعله الأخير على مر السنين .. و كيف توفق بين ملايين من أهل السنة و الشيعة المسلمون في أنحاء العالم بعد حرب كريهة دامت بينهم أكثر من ألف سنة .. و كيف تقنع الصهاينة و اليهود أنهم ليسوا شعب الله المختار .. كيف ؟ ثم إن اليهود و الدولة المزعومة مجرد غطاء لمنظمتنا .. نحن من نقود سياسة العالم و السياسة الآن تقتضي أن نساند الصهاينة و نكون في صفهم لأنهم ببساطة جرثومة العالم الكبرى التي ستساعدنا في القضاء على الجميع .. نحن ندعمها بالسلاح و المال عبر إمبراطورية أخرى (أمريكا)حتى نغذي

الأحقاد و الرغبة في الانتقام منها لندفع المسلمين في العالم الى قتالها و بالتالي بداية حرب عالمية ثالثة .. إنها عامل مهم في الحرب القادمة .. لكننا ما زلنا نبحث عن طرق أسرع و أنجع لإنهاء الأمر بسرعة ..

- عجيب .. لكن .. هل حاولتم أم لم تحاولوا توعية الناس ؟
- حاولنا لكن الفشل كان مصيرا حتميا .. لا يمكن تغيير معتقد راسخ في العقل الباطن لسنين إلا ببث نقيضه سنين مشابهة مع وجود إرادة التغيير عند المريض .. أليس هذا من اختصاصك دكتور ؟
- صحيح .. لكن القضية الآن هي عن حياة أو موت .. أنت تقول أنك ستقتل الجميع لأن علاجهم مستحيل ..
- للأسف .. هذه هي الحقيقة ..
- لكن كيف ؟ كيف ستقتل سبعة مليار إنسان ..
- (ابتسامة) أنت لا تسأل دكتور للمعرفة .. أنت تسأل للمعلومة .. و أفهم من نبرتك أنك غير مقتنع بمشروعنا ..
- صحيح .. لم تقل سببا يجعلني أقتنع بقتل المليارات من البشر ..
- حسنا .. سأعطيك آخر إحصائية توصلت إليها أبحاثنا .. أكثر من سبعمائة ألف إنسان يموتون سنويا بفعل القتل المباشر .. أي إنسان يقتل إنسان مباشرة .. و أضعاف أضعاف هذا العدد بفعل النصب على مرضى العالم الفقراء الذين لا يملكون مالا للعلاج .. العلاج فقط للأغنياء .. و ملايين الجرحى و المصابين و العاهات المستديمة نتاج الحروب المباشرة و الغير مباشرة ..
- لكنك قلت أنكم أنتم من تموّلون هذه الحروب و تمنعون العلاج .. إذن أنتم السبب ..
- لا .. نحن و كما سبق و قلت .. حاولنا و فشلنا و الآن نسرع الوثيرة لنبدأ من جديد .. إذا لم نسيطر على الأمر سيتمكن آخرون من ذلك .. و سيصل الإنسان لنفس النتيجة ..
- أعذرني دكتور لكني لم أقتنع ..
- حسنا سأسألك و أرجوا أن تجيب دون تردد ..
- حاضر ..

- إذا كنت تسيطر على اتجاه قطار يسير نحو عشرة أشخاص مكبلين على السكة , و يوجد يمينهم سكة أخرى مكبل عليها شخص واحد .. و القطار قادم بسرعة .. و ليس لديك الوقت الكافي لتخليصهم و عليك أن تتخذ قرارا سريعا بتغيير اتجاهه .. فماذا ستختار ؟ إذا تركت القطار يسير دون رد فعل منك سيموت عشرة أشخاص بإمكانك إنقاذهم .. و إذا حوّلت اتجاه القطار نحو الشخص الوحيد المكبل في الجهة الأخرى فستكون ارتكبت جريمة قتل .. ماذا ستفعل إذن ؟
- إنه موقف صعب .. لا أدري .. لكني لا أريد أن أعيش تجربة كهذه ..
- إنك تتهرب من المسؤولية دكتور عماد .. ماذا ستفعل في موقف كهذا ؟
- أظن أنه إن كان حتما سيموت عشرة أشخاص فسأضحي بواحد لكي ينجو الباقون ..
- حسنا .. سؤال آخر .. و ماذا لو كان هناك عشرة مكبلون أمام سكة القطار و ليس من سبيل لإنقاذهم سوى دفع رجل سمين يأكل بهدوء قرب السكة و أنت حينها متأكد تماما من أنك لو رميت به أمام القطار سيتغير اتجاهه الى السكة الأخرى و تنقذ بذلك العشرة .. إنها عملية قتل بشعة و لكنها ستنقذ عشرة أشخاص أبرياء ..
- إنها أسئلة محرجة ..
- سأعفيك من الجواب هذه المرة و سأجيبك .. نحن نغير اتجاه القطار و ندفع السمين نحوه لأننا متأكدون من أن اختيارنا هو الصواب ..
- ولكنكم تريدون قتل الملايين من أجل حفنة شباب .. الأمر مختلف ..
- لقد أخبرتك أنهم الصفوة .. الشباب الذين يلهون على الشاطئ يعملون بجد طيلة أيام السنة دون كلل و لديهم الحق في الاستمتاع بالشاطئ و اللعب و اللهو متى يشاءون .. نحن نوفر لهم هنا كل وسائل الراحة التي تؤهلهم للإبداع و الابتكار .. و الفرد منهم يساوي عندي ملايين من الأغبياء الذين لا حاجة لهذا الكوكب بهم على ظهره والذين لا يصلحون إلا لتفريخ أغبياء آخرين.. لا يمكن مقارنة عبقري واحد بملايين الأغبياء ... أفضّل حرق الصين بأكملها مقابل عبقري مثل اينشتاين..
- هلا أخبرتني كيف تريدون إفناء البشرية الغبية كما تقول ؟

- (ابتسامة) سأخبرك دكتور بكل شيء .. لكن يجب أن تعلم أنه بعد رؤيتك الشيخ سيكون أمامك خياران لا ثالث لهما ..
- الحكيم تقصد ؟
- سمِّه ما شئت .. المهم لدينا أننا سنعرف مراده منك و سنحدد إن كان بإمكانك البقاء أو الرحيل من هنا .. لن تتمكن من تذكر ما حصل هنا .. بعد الذي سأخبرك به و بعد أن ترى الشيخ .. سنمحو ذاكرتك إن قررت الرحيل أو ستنضم إلينا إن اقتنعت بمشروعنا ..
- لكني لست من الصفوة كما تقول ..
- الشيخ يقول العكس .. أنت من الصفوة .. و لديك شيء نجهله و يعلمه ..
- هل يمكنني أن أقابل الحكيم الآن ؟
- لا ليس بعد .. لدينا تجربة معه غدا .. ثم سأجعلك تقابله .. لقد اشترط علينا أن يراك لكي يوافق على تجربتنا ..
- أي تجربة ؟
- ستشاهدها بعينك غدا على الساعة السابعة .. أظن أننا استوفينا الحديث صديقي ..
- لا .. لم تجبني عن كل شيء .. كيف تريدون إفناء البشرية و أين حسن ؟
- ماذا تريد من حسن ؟
- أريدكم أن تطلقوا سراحه من هنا .. لقد أخبرتني أنني حر .. إذن حسن أيضا حر في مغادرة الجزيرة ..
- سأخبرك بكل شيء غدا بعد التجربة مع الشيخ .. ذلك العجوز .. لقد رأينا منه ما لن يـــخـــطـــر على أكبر العقول ..

قام الدكتور هالي من مجلسه و تركني في حيرة من أمر مشروعهم المدمر , تمالكت أعصابي حين لم أتمكن من معرفة مكان حسن لكن عزائي كان في مقابلة الحكيم , و قبل أن تطأ أقدامه رمال الشاطئ استدار نحوي و نصحني بأن أستمتع بالجزيرة و أنسى كل ما أخبرني به الدكتور ونيس من خزعبلات .. هكذا وصف أفكار أحد أعدائه .. قمت من مقعدي أيضا و تمشيت فوق الرمال الذهبية الدافئة و ابتعدت أكثر عن صخب الموسيقى الى أن اختفت, كان الجو معتدلا و نسيم البحر و صوت الأمواج الصغيرة على

الشاطئ يعطيني الانطباع بأني في عطلة و لست هنا لأنقذ أيّا كان , ثم سمعت صوت خطوات سريعة فوق الرمال تقترب مني , فإذا بها روز شبه عارية .. تلك الحسناء التي وجدت في فراشي اليوم .. تقدمت مني ببطيء فيه دلال قبل أن تحاول تقبيلي , لكني منعتها بلطف و أكدت لها أني أعفيتها من مهمتها , كنت أغض بصري عنها لأني أعرف تماما ما الذي سيقع إذا ما أطلت النظر بجسمها العاري و نهديها و خصرها .. كنت أعلم أني لن أتمكن من هزم الشهوة داخلي إذا ما انطلقت شرارتها , كانت الحرب مع نفسي أكثر منها مع الرأس المدبر الذي يحاول نزع عباءة المحرمات عن ما أومن به و إقناعي بشرعية قتل ملايين البشر , و الحسناء روز مجرد عاملة تنفذ الأوامر و تحاول أن تفتح بابا للدكتور هالي..
عادت من حيت قدمت و على وجهها علامات الاستهجان من تصرفي لأني أظن أنها لم تعهد من قبل شخصا يمنعها عنه هنا في الجزيرة ..
جلست على رمال الشاطئ أفكر في يوم غد و لقائي مع الحكيم ..
أتساءل مرة أخرى عن مصير حسن الذي ينتظر مني أن أنقذه ..
كيف ؟
و أين هو ؟
عدت الى غرفتي بعد أن أظلم الليل بالشاطئ و أنا أستكشف أطراف الجزيرة الخلابة و شواطئها الواسعة , عدت بعد ساعات من السير و التفكير و التفكر , صعدت الدرج اللولبي المؤدي الى الشرفة , لم يعد هناك وجود لتلك الحشود الراقصة , انتهى الاحتفال , و دخلت البناية الكبيرة و عدت الى غرفتي عبر المصعد , و جدت كل شيء مرتبا و نظيفا و خلدت الى النوم بعد الصلاة , دعوت الله أن ينير طريقي في هذه الجزيرة و أن يعينني على إتباع الحق و الابتعاد عن الهوى و يثبتني على طريقه .. فلن أتمكن من شيء بدونه ..

استيقظت لصلاة الفجر رغم أنه لم يكن لدي ما ينبهني باقتراب وقته و انتظرت الدكتور هالي بعد الصلاة حتى الساعة السابعة صباحا لكنه لم يأت , بل بعث روز التي فتحت باب الغرفة و دعتني لأتبعها و الجمود يعتري ملامحها ..

عدت الى الشاطئ معها حيث وقفنا ننتظر , لم أسئل عن الأمر , ثم ظهرت فجأة طائرة هيلوكوبتر غريبة الشكل يبدو أنها كانت من آخر اختراعات سكان الجزيرة , أشارت الي روز لأصعد الطائرة و ركبت خلفي , كانت الطائرة تصدر أزيزا خفيفا لا يشبه صوت طائرات الهيلوكوبتر المعهودة.....

سألتها عنها فأجابتني بأنها تعمل بالوقود النووي و الطاقة الشمسية و أن بإمكانها أن تبقى في السماء دون العودة الى اليابسة للأبد , اتجهنا الى قلب الجزيرة حيث البحر الهادئ ثم بدأت تلوح من بعيد آثار اليابسة وسط المياه , كانت هناك مساحة شاسعة عبارة عن جزيرة رملية دائرية كبيرة , نزلنا بهدوء فوقها ثم ظهر الدكتور هالي و حوله عشرات الجنود مدججين بالأسلحة كالذين قتل حسن في الشاطئ .. كان في أقصى الجزيرة الرملية بناية زجاجية كبيرة بها كراسي بيضاء مرصوصة كالتي بالسينما .. رحب الدكتور هالي بي و تقدمنا نحو البناية التي فتح بابها الكبير أوتوماتيكيا ما إن اقتربنا منها .. ثم دخلنا ..

قدّم لي بالداخل مجموعة من علماء في البيولوجيا و الفيزياء و الكيمياء قبل أن نجلس و نشاهد الـــــحـــــكـــــيـــــم في التجربة السابعة كما قال الدكتور هالي .

التجربة السابعة

جلس الحضور لمشاهدة التجربة السابعة قبل أن يدخل جاك كما عهدته و يتجه نحو الدكتور هالي و يهمس في أذنه كلمات قبل أن يجلس هو الآخر على يمينه دون أن يُلقي لي بالا , لكن تلك الكلمات غيّرت ملامح الدكتور و أظهرت علامات القلق عليه , التفتُّ اليه و سألته عن الأمر فابتسم و أجابني على استحياء بأدب أن الحكيم سيتأخر قليلا ثم التفت الى أحد العلماء الشباب خلفنا و بدأ يتبادل أطراف الحديث باللغة اليابانية , مرت قرابة النصف ساعة و أنا أنتظر ظهور الحكيم قبل أن أبادر الدكتور هالي بالسؤال..

- ما المشكلة دكتور ؟
- الأمر مضحك لكنك لن تراه كذلك ..
- أيّ أمر ؟
- الشيخ يريد أن يذكر الهه قليلا قبل الحضور .. (ابتسامة)
- اليس أسيرا عندكم ؟ هل هو من يقرر متى يحضر أم أنتم ؟
- الحقيقة أنه أسير بمحض إرادته .. لأنه يستطيع الرحيل متى يشاء .. و نحن هنا نحاول ما أمكن أن نفهم سرّه..
- أي سر ؟
- سرّ قوّته ..
- أنت تخبرني الآن أن باستطاعة الحكيم الرحيل من هنا متى شاء و أنه قوي بما فيه الكفاية و مع ذلك لم يرحل و أرسل في طلبي ...

- صحيح ..

تقدّم جاك برأسه قليلا و التفت اتجاه الدكتور هالي و سأله بوجه متجهّم ..
- لماذا تجيب هذا الغبي دكتور ؟ أنت تضيع وقتك ..
نظر الدكتور هالي و ابتسم في وجه جاك ابتسامة فيها تعجّب ..

ثمّ اعتذر لي و تبعه في الحين جاك باعتذار ثان لم أُلقه له بالا لأنه لا يؤمن به , بل تنفيذ لأوامر الدكتور هالي ..

لم تمض سوى دقائق حتى لاحت طائرة هيلوكوبتر أخرى تنزل في قلب الصحراء الرملية بعيدا عنا لينزل منها رجل قصير القامة بلباس يشبه لباس الأفغان , لم تكن الرؤية واضحة و ذلك لبعد المسافة بيننا و بينه , أخرج الدكتور هالي جهازا لا سلكيا صغيرا من بدلته البيضاء و قال ..
- المرجو أن تقلع الطائرة من قرب الشـــــــــــيـــــــــــخ حالا ..

ابتعدت الهيلوكوبتر ما إن سمعت الأمر من الدكتور هالي و ظل الحكيم وحيدا في الصحراء لا يتزحزح من مكانه , ثم أمر الدكتور هالي جاك بالصعود الى أعلى البناية للمراقبة من هناك ..
خرج جاك و أغلق الباب الزجاجي بإحكام هذه المرّة , ثم سأل هالي عبر الجهاز ..
- مستعدون ؟
- أطلق ..

ما إن نطق هالي بكلمته حتى مرّت فوق البناية اتجاه الحكيم صـــواريـــخ عـــمـــلاقـــة تسببت في انفجار هائل بالمكان و الرمال التي كان يقف عليها ..
بدت و كأنها عاصفة رملية تسير في شتى الاتجاهات جراء الحدث .. لم يعد من الممكن رؤية أي شيء سوى الرمال في السماء و الأرض .. ظلّ الأمر قرابة الخمس دقائق قبل أن تقترب من موقع الانفجار خمس طائرات

هيلوكوبتر أخرى قامت بإجلاء الرمال لتتضح الرؤية شيئا فشيئا .. سأل هالي عبر جهازه ..

- هل من جديد ؟
- لا سيدي .. لكننا متأكدون من إصابة الهدف ..
- المرجو العودة الى المراكز .. لقد بدأت الرؤية تتضح ..
- حاضر سيدي ..

بعد أن اختفت الرمال تماما و تركت الصواريخ حفرة كبيرة في مكان الانفجار بدا للجميع و كأن شيئا يخرج منها ..
إنـــــه الحـــــكـــــيـــــم ..
خرج من الحفرة و عاد الى مكانه و كأنّ شيئا لم يكن .. تساءل الدكتور هالي في الجهاز مرة أخرى ..

- هل أنتم متأكدون من إصابة الهدف ؟
- نعم سيدي .. ولدينا نسخ و تسجيل من صور الصواريخ و هي تصيب الهدف بالعرض البطيء ..
- حسنا .. ابدؤوا في الجزء الثاني من التجربة ..
- حاضر سيدي ..
- أطلق ..

سُمع دوي انفجار صوتي رهيب خلفنا حرك الرمال أمامنا بقوّة و أصدر أزيزا في الجو ثم أختفى فجأة ..
عمّ صمت رهيب في القاعة الزجاجية ثم قام الدكتور هالي بإعطاء أوامره من جديد ..
- المرجو تفقد الهدف الآن ..

تقدمت طائرة وحيدة هذه المرّة من الحكيم و نزلت قربه قبل أن يتفقد أحد أطقمها الحكيم ثم يعود الى الطائرة من جديد و يتحدث الى هالي ..

- لم يصب بأذى سيدي .. القنبلة الإشعاعية لم تؤثر فيه .. لو كان شخصا عاديا لتساقط لحم جسده سيدي ؟
- أطلقوا البلازما الآن ..

ما إن أتمّ هالي جملته حتى بدأت الأرض ترتعد تحت البناية .. هدير قوي يشبه الموجات الكهرومغناطيسية الهائلة ثم نزل من السماء فوق الحكيم مباشرة ذلك الضوء الخافت الأزرق الذي حاول قتل حسن أول قدومي هنا الى الجزيرة .

لم يتزحزح الحكيم من مكانه حتى اختفى الضوء من السماء ليتحرك نحونا بخطوات صغيرة و هادئة ..

لم يتمكن منه شعاع البلازما أيضا ..

قام الدكتور هالي و نظر اتجاهي قبل أن يقول ..

- ألا تريد أن ترى الشيخ ؟
- بلى ..
- بإمكانك أن تقابله الآن .. لقد وعدتك بأنني سأسمح لك أن تكلمه .. لا أستطيع أن أتركك وحيدا معه .. نحن نريد أن نعرف مراده منك .. سيرافقك جاك .. أعدك أنه لن يزعجك ..

خرجنا الى الرمال و نادى هالي على جاك من أعلى البناية لأجده قربنا في لمح البصر بابتسامته الماكرة المعهودة .. كان الحكيم خلال حديثي مع هالي يتقدم شيئا فشيئا نحونا و بدت ملامحه تتضح لي قليلا .. كان يلبس سروالا أبيض مغبرا و طاقية ملونة و بدلة بيضاء مصفرة بكثرة الرمال عليها .. إنه يشبه المجاهدين الأفغان أثناء حربهم ضد الاتحاد السوفياتي .. لكن في لباسه فقط ..

لكني أعرفه ..

وجهه و ملامحه ليست غريبة عني ..

لقد عرفته ما إن اقترب منّي ..

الشيخ العجوز ذو اللحية الطويلة البيضاء و البنية الهزيلة .. هو الحكيم ..

نـــــــوح حـــارس العـمـارة هو الـــــحـــــكـــيـــم ..

كيف يعقل أن يكون العجوز نوح هو الحكيم ؟

و كيف حلّ هنا بالجزيرة ؟
و من أين له بكل تلك القوة هو الآخر ؟
و لماذا يقوم هؤلاء القوم بمحاولة قتله ؟

المرشدة السياحية

طرحت أسئلة كثيرة على نفسي قبل أن يقف الحكيم أمامي و يسلم علي مبتسما , أحسست بالسعادة تغمُره و هو ينظر الي و كأنه كان ينتظرني منذ زمن و قد تأخرت.. تقدّم جاك معي خطوات قليلة و أنا أسلم على الحكيم و عاد الدكتور هالي و زمرة علمائه الى البناية و غادروا الجزيرة عبر طائرات الهيلوكوبتر قبل أن يبادرني الحكيم بالحديث بعد السلام ..

- مرحبا بك بُني .. كيف كانت رحلتك الى هنا ؟
- رحلة .. إنها ليست رحلة .. بل كابوس ملئ بالأسئلة .. كيف و من أين أبدأ؟ أنتظر منك أن تخبرني بكل شيء .. لقد وثقت بك قبل أن ألقاك , و ها أنا أفاجأ بأنك حارس العمارة نوح .. لما لم تخبرني بكل شيء هناك .. لماذا تركتني مع هذا المريض المجرم (أشير الى جاك) .. و كيف لي أن أقاومه و أنت تعلم قلّة حيلتي .. كيف ؟

ضحك الحكيم طويلا من أسئلتي و بدت علامات الغضب على جاك لأني نعتته بالمريض و المجرم لكنه تمالك نفسه و لم يحرك ساكنا ثم عاد الشيخ الى ابتسامته قبل أن يجيبني ..

- إذا كنت تثق بي بُني .. فيجب أن تصدقني إذا أخبرتك أني لا أعرف كيف ستهزمه .. لكني متأكد من أنك ستفعل .. و الأمر مقضي سلفاً ..

كانت إجابته كالصاعقة بالنسبة لي بادئ الأمر و توقفت عن الحديث ساعتها و لم أستطع أن أنبس بكلمة .. ذلك لأن أسئلة أخرى حلّت مكان سابقاتها ..
كيف لا يعلم ؟
وماذا أفعل هنا إن كان الحكيم لا يعلم ؟
و كيف سأنقذ حسن ؟

ثم بادرني بالسؤال ..

- أعلم بُني أنّ الأمر شاق عليك .. و لكنك قبل أن تقابل هذا الفتى (يشير الى جاك الذي يسمع بتركيز شديد حديثي مع الحكيم في صحراء الجزيرة) كنتَ قد ارتقيت بروحك الى الأعال و صَفَت سريرتك و تطهّر قلبك من الغل و الضغينة و حب الدنيا .. لكنه الآن مريض .. و يجب أن تطهره مرة أخرى .. (وضع يده على صدري) إن به بقعا شديدة السواد و يجب غسله جيدا لكي تكمل مهمتك ..
- أعلم ما بقلبي أيها الحكيم .. إنه قاتل متكبر و مغرور .. لن أستطيع أن أغسل قلبي من كرهه ..

لم يسمعني جاك قبل هذا الموقف أتحدث عنه , كنت متأكدا من حتمية وقوع ردة فعل غبية من طرفه .. لكني لم أعرفها هذه المرة .. لأن الحكيم و كما قال الدكتور هالي كان يفاجئهم بما لا يخطر على بالهم ..
حاول أن يرد علي .. فهمت ذلك من حركة جسمه و نظرته اتجاهي لكنه لم يستطع قول شيء بعد أن وضع الحـــكـــيـــم أصبعه الصغير على شفتي جاك و هو يحدثني دون أن يلتفت إليه .. و كأنه يأمره بالصمت خلال حديثنا .. كادت عيناه تنفجر من مكانهما غضبا و رأيته وهو يحاول أن يحرك أي جزء من جسمه الذي أصبح رهينة قوّة خفية ..
لقد منعه الحكيم من الحركة و الكلام بحركة طفولية بريئة أكاد أجزم أن لو كانت الإهانة تقتل .... لـــمـــات جـــاك ساعتها ..
ثم استمر في الحديث مبتسما و كأنه لم يُخرس أقوى جندي بالجزيرة ...

- يحكى أن فرعون آمن قبل أن يموت غرقا في البحر و الله أعلم به ولقد توسل الى موسى سبعين مرّة أن ينقذه لكنه رفض ..يحكى أن الله قال لموسى أن فرعون أخطأ عندما توسّل اليك لأنه لو استنقذنا مرّة واحدة لهديناه .. هذا هو ربّنا يا بُني ... إنه أرحم الرحماء بعباده .. حتى و لو أجرموا في حق الحياة .. المهم التوبة .
- لكن هؤلاء القوم لا يؤمنون بإله و منظمتهم تأسست من أجل القضاء على كلّ الأديان ..
- صحيح بني .. لكن هل تذكر أنك دعوتهم الى خالقهم أو فكرت في الأمر ؟ كل ما كان يجول بخاطرك هو الانتقام و القضاء عليهم ..
- لكنك أنت من قلت أني سأقضي عليهم .. هذا ما أخبرني به الدكتور ونيس و حسن أيضا .. أليس صحيحا ؟
- لقد أخبرتك أني لا أعلم .. لقد أوشكت مهمتي على الانتهاء بُني .. لم يبق لي سوى أن أحيطك علما بما يحصل بالجزيرة و بالســـــر الذي يجب عليك أن تحافظ عليه .. لأن مستقبل الإنسان أصبح بين يديك الآن ..
- أي سر ؟

لم يجب الحكيم على سؤالي بل رفع رأسه الى السماء و سأل نفسه بصوت خافت ..

- لقد تأخّرَت .. أيـــــــــــــــن هـــــــــي الآن ؟
- مـــــــــن ؟
- ابنتي ماريا ...
- ماريا ابنتك ؟؟؟؟؟
- (يضحك) و أنت أيضا ابني .. كلكم عيالي ..

لم يكمل جملته حتى ظهرت مـــــــاريـــــا أمامنا في لمح البصر .. لقد غيرت ملابسها هذه المرة .. كانت ترتدي قميصا أبيض اللون وسروالا أسود فضفاضا به بقع بيضاء كبيرة , كان خمارها أسودا به بقع بيضاء أيضا

لكنها صغيرة الحجم .. كنت أتساءل هل ازدادت تلك الشابة الآسيوية الجميلة أناقة أم هو قلبي الذي أصبح يتحكم بعقلي ؟
كان جاك يشاهد و يسمع كل شيء , لم يوقف الحكيم الزمن بل أوقف جاك عن الحركة و سجنه في مكانه ..
احترت حينها لأني كنت أرغب في المزيد من الوقت مع الحكيم لأسأله عشرات الأسئلة الأخرى و لكن مـــــاريا كانت هنا , لم أكن أعلم ساعتها أنها ستكون مرشدتي السياحية في الجزيرة و الحـــــــــيـــــاة .

فينيسيا

- مرحبا بك يا ابنتي .. لدي خبر سار لك ..

ابتسمت ماريا بوجه العجوز قبل أن تتقدم نحوي بخطوات و تمسك بيدي وتسأل العجوز بكل احترام و وقار ..

- أما هو ؟
- لن يزعجك هذا الفتى بعد الآن (يشير الى جاك) .
- شكرا أيها الحكيم .. هل نبدأ الآن ..
- نعم يا ابنتي .. أرجوا أن لا تنسي كوب الشاي ..

كان حوارا عاديا بين عجوز و ابنته كما لو أنهما يقطنان في بيتهما الهادئ في هذه الجزيرة النائية ..
كما لو أنه ليس أسيرا هنا و كما لو أنها لم تكن هاربة من الموت .. لم أشعر بنبرة الغضب في سؤالي الذي وجهته للحكيم إلا بعد أن طرحته ..

- أي شاي ؟ و من أنت ؟ و من أين لكم جميعا هذه القوة ؟ و ماذا تنتظرون مني ؟ و لماذا لا تجيبون عن أسئلتي مباشرة ؟ لماذا ؟؟؟

جلس الحكيم أرضا قبل أن يجيب عن أسئلتي تباعا ...

- لا تغضب بني .. الشاي أَلِفتُ احتسائه في باب العمارة طيلة الخمسة عشرة سنة التي كنت مكلفا فيها بحمايتك من هؤلاء القوم ..الشاي المغربي حقا رائع .. لقد حاولوا قتلك عشرات المرات دون نجاح ولم يكفوا يدهم عنك إلا بعد أن وعدتهم أني سأوافق على قدومك هنا .. ولم أكن لأوافق لو لم تكن مستعدا .. لا تسألني عن أهميتك لأني لا أعلم .. كانت مهمتي أن أنقذك الى الساعة .. و قد فعلت و انتهى الأمر ..لم يتبق سوى أن تستكشف الجزيرة و تُحيط بسِرّها و تحافظ عليه .. أما القوّة التي تظنها كذلك , ستخبرك عنها ابنتي ماريا بعد قليل .. هل من سؤال آخر ؟
- نعم أيها الحكيم ؟
- منذ متى أنت محتجز هنا ؟
- (مبتسما) منذ ثلاثين عاما .. منذ حرب الأفغان ضد الاتحاد السوفياتي
- و كيف لك أن تكون هنا بالجزيرة و تحرسني في نفس الوقت بالرباط ؟
- هذا ما أحتار فيه هؤلاء القوم هنا .. لأن مبلغ علمهم القوّة .. و ليس القوِيُّ المتين ..
- جوابك أيها الحكيم مُبهم .. أكرر سؤالي .. كيف أمكنك التواجد هنا و هناك ؟
- و أنت .. كيف أمكنك التعرف على اسم ونيس قبل أن تراه (مبتسما)؟
- لا ... لا ...لا أدري ..
- إذن .. اذهب يا بني مع ابنتي ماريا و ستخبرك بكل شيء .. الفرق بين ما ستخبرك به و ما قيل لك هنا هو الإيمان .. إنها مؤمنة حقا .. و المؤمن صادق إذا تحدث .. لقد أوشكت رحلتي على النهاية و ستبدأ رحلتك الى الحقيقة اليوم .. لقد كانت كلّ تجاربهم السابقة عليّ داخل المختبرات المظلمة .. تجربة اليوم حقا رائعة .. هذه الرمال تذكرني بالحرب و الجهاد بأفغانستان .. سأستلقي هنا لحين عودتكما .. لا تخشي شيئا يا ابنتي .. لن يتمكن أحد من رؤيتكم لقد حجبتكم عنهم الى حين شرب كوب الشاي ..و لن يستطيع هذا الفتى أن يتحرك من هنا إلا بإذني .. أه .. الحمد لله .. اقترب الموعد ..
- أي موعد أيها الحكيم ؟

- لا تبالي .. سأخبرك عندما ستعود بإذن الله .. ولا تنسي يا ابنتي .. قاعة المؤتمرات .. الدرج الرابع .. الملف رقم سبعة ..
- أي ملف ؟
- ملف حسن يا بني .. يجب أن تقرأه قبل العودة الى هنا .. أريد كوب الشاي ماريا ..

أمسكت بي ماريا حينما سمعت الحكيم ينطق حروف اسمها بقوّة , و أخبرتني بأنها علامة غضبه .. و كذلك لاحظتُ منذ بدأت الحديث معه .. إنه لا ينطق باسم أحد .. جاك الفتى و أنا بُني و ماريا ابنتي ..
عادت ماريا الى الخلف بخطوات صغيرة و طأطأت برأسها قليلا علامة على استئذانها من الحكيم بالمغادرة قبل أن تأخذ بيدي بعيدا عنه ..
كانت علامات الرهبة بادية على محياها ..
لم تكن تخاف الحكيم و لكنها كانت تقدّره و تحترمه بشكل مبالغ فيه ..
الشيء الذي كان يستحيل على شخص مثلي أن يحس به اتجاهه و ذلك لسبب بسيط .. و هو أنّي لا أعلم عنه شيئا .. إنه فقط .. الحكيم .. لكن ما سره ؟
لا أعلم ..

سألتني ماريا قبل مغادرة الصحراء في قلب البحر داخل الجزيرة ..

- من أين تريد أن نبدأ دكتور عماد ؟

كنت أود معرفة كل شيء عن الجزيرة و السر الذي حدثني عنه الحكيم و حسن و الحكيم نفسه .. لكني وجدت نفسي أسأل عن شيء آخر .. و عن موضوع آخر ..
وجدتني أسألها عن نفسي ..

- سأبدأ من نفسي .. أنا لا أعلم عنك شيئا سوى أنك عميلة لمنظمة أخرى تريد تدمير التي نحن ضيوف عندها الآن .. و أنك تنتقلين لأي مكان تودين

الذهاب اليه .. فقط بقوة التفكير .. لكن ما لا أعلمه .. هو كيف ملكت قلبي و سكنت فيه لكي يطّلع عليك جاك وأنت بداخله .. لقد نقّب في صدري و وجد حسناء جميلة تدعى ماريا مستقرة فيه .. و استهزأ بالأمر و سخر مني و أخبرني أن هذا الحب مستحيل و أن بيني و بينك حاجزا لم يذكره .. هذا هو السؤال الأول ..

لم تجبني ماريا في الحين و لكنها صمتت برهة و لاح في عينيها الواسعتين بريق و أشاحت بوجهها عني بهدوء و رفعت رأسها قليلا الى السماء , لم أعد أستطيع رؤية وجهها , كان خمارها الأسود المرقط يرفرف بسبب الرياح على كتفيها أمامي و هي تجيبني ..

- لقد خدعك جاك .. إنه ذكي جدا ..
- لا أظن .. لقد قتل فتاة بريئة قبل أن ينطق باسمك .. لو كان يكذب أو يحاول خداعي لنطق باسمك أولا ..
- و هل صدّقته ؟
- نعم .. صدقته .. لأني فعلا أحسست بشيء غريب بداخلي يوم رأيتك ..

التفتت الي مـــاريـــا وأخفت ابتسامة كان يحجبها عني خمارها المرقط و عادت الى جِدّيتها قبل أن تسألني ..

- هل تريد أن تشرب فنجان قهوة بإحدى مقاهي فينيسيا ؟ إنها مدينة رائعة .. و لديهم قهوة من أروع ما يكون ..
- تذكّرت فجأة كم مرّة حلمتُ بنفسي أحتسي القهوة مع ماريا بفينيسيا ... ولكن الموقف لم يكن يسمح بالسؤال عن هكذا تفاصيل ... تلعثمت قليلا قبل أن أجيبها ...
- نعم بلى ... لا .. لا .. لكني ... أريد أن تجيبيني .. أخبريني عن الحكيم و الجزيرة و حسن ..
- صدقني دكتور ... من الأفضل أن أجيبك عن سؤالك عني بدل أن تستكشف الجزيرة الآن ..

- حسنا ..
- يجب أن أحضر كوب الشاي للحكيم أولا .. انتظر قليلا ..

اختفت ماريا بضع ثوان قبل أن تظهر من جديد و تخبرني أن الحكيم يمهلنا من الوقت ما يكفينا .. و أنه سعيد جدا بكوب الشاي المغربي الذي أحضرته له من المقهى قرب العمارة حيث عيادتي .. أمسكت بيدي و قبل أن ترمش جفوني وجدتُني واقفا أمام إحدى مقاهي فينيسيا الرائعة قرب المباني العائمة و الأزهار الكثيرة و السياح من كل الأجناس حولنا..
ثم سمعتها تناديني باسمي و هي تجلس على أحد الكراسي الخشبية الجميلة بالمقهى قبل أن ألتحق بها وتطلب من النادل قهوتي .. تماما كما بالحلم..
ثم أخبرها عن ما أحس به بكلِّ براءة ..

- إنه مثل الحلم ..
- لماذا ؟ أنت لا تحلم .. إنها الحقيقة .. و يجب أن تستعد لبعضها لأنه مُر ..
- لم تفهمي قصدي ماريا .. إنه مثل الحلم الذي كنت أحلم به عندما كنت في المستشفى .. لقد رأيت نفسي معك هنا .. في الحلم ..
- إنه عقلك الباطن (ابتسامة) ..
- لا .. العقل الباطن يجمع الصور القديمة و يصنع منها حلما جديدا .. لكن ما رأيت هو حلم فيه صور لم أرها من قبل .. أنا و أنت هنا ..
- و ما تفسيره برأيك ؟
- لا تفسير للحلم .. ولكن ما أعلم هو أني أحس بشيء جميل بداخلي عندما أنظر اليك .. أو عندما ألقاك ..
- هل تستطيع أن تصفه ؟
- لا .. لا أستطيع .. هل أستطيع أن أعرف لماذا أتينا الى هنا ؟
- (ابتسامة) لأني رأيت الحلم أيضا ..
- كيف ذلك ؟ هل يعقل أن نرى نحن الاثنان نفس الحلم ؟
- إنه ليس حلما .. إنها رؤيا ..
- إذن ما الهدف ؟ ما المراد من هذه الرؤيا ؟

- الهدف هو الحقيقة و الرسالة .. الحقيقة التي سأخبرك بها و الرسالة التي ستُلقى على عاتقك ..
- هلا أخبرتني بالحقيقة أولا ..
- سنبدأ من الحقيقة حول شعورك ثم الحقيقة حولي و حول جاك و حسن ثم الجزيرة .. موافق ؟
- موافق ..
- لماذا لم تستطع أن تصف إحساسك اتجاهي ؟
- لا أدري .. أظن أن الكلمات التي سأنطق بها لتعريفه لن توَفّيه حقّه ..
- الحـــــــــب تقصد ..
- ممكن ..
- وكيف لك أن تحب شخصا لم تره سوى دقائق معدودة ؟
- إنه الحب ..
- لا .. ليس حبا .. إنه سهم الشـــوق دكتور ..
- كيف ..
- لا يمكن لإنسان أن يحب شخصا دون مقابل دكتور .. أنت لا تحبني بل تحب الإحساس الذي تشعر به عند رؤيتي .. أليس كذلك ؟
- لكن لماذا هذا الإحساس يعنيك دون باقي البشر ؟.. لم أشعر به قبل ذلك اتجاه أحد .. لماذا ؟
- هنا السر دكتور .. الباب الذي يملك مفاتيحه الخالق .. هو من يوجه بوصلة من سيحبُّ من ؟ ولكنه في بادئ الأمر ليس حبا .. بل شوق مقصود من قلب مأمور من اللطيف الخبير ..
- هل تقصدين أني مشتاق اليك فقط ؟
- سأخبرك بأمر دكتور عماد ..
- أرجوك .. لا أحب كلمة دكتور من عندك ..
- (ابتسامة) حسنا عماد .. سأخبرك بما قال الحكيم قبل أن أعرفك أو أراك .. لقد قال لي الحكيم أني سأحب شخصا .. و أن حبي سيكون مستحيلا هنا في الدنيا .. لأن الذي سأحبه ليس من عالمي .. و لقد تحققت نبوءته بالحرف .. لقد أحببتك حقيقة لا شوقا كما هو حالك الآن ..

- تحبينني ... كيف .. لم أفهم .. كيف ذلك ؟ ثم ما القصد ماريا ؟ لقد قال جاك نفس الكلام و ها أنت ترددين نفس الأسطوانة .. لماذا تقولين أنك لست من عالمي .. لماذا ؟
- لقد أخذ الله بناصيتك لتشتاق لحبي .. لكني اجتزت المرحلة التي تعيشها الآن .. أنا الآن أحبك ..

قفزت فوق أروع كلمة و اعتراف سمعت في حياتي و أكملت الحديث لأعرف الحقيقة التي وعدت نفسي بأنها لن تغير شيئا ... مهما حصل ..

- لم تجيبيني عن سؤالي .. لماذا لست من عالمي .. إذن من أي عالم أنت ؟

صمتت برهة قبل أن تنزل من عينيها دمعتان حمراوان كالدماء التي تجري في عروقنا ثم أجابتني بما زلزلني ساعتها ..

لقد فهمت الآن سخرية جاك و قوته و قوتها و ضعفي أمامهم ..

لقد فهمت سر قوتهم .. ما زالت لدي عشرات الأسئلة ..

كانت البداية مُرّةً وكان ردُّ مـــــــــاريـــــا حينها قاسيا علي ...

كان ردها عبارة عن سؤال يحمل عشرات الأجوبة ..

- كيف يمكن أن تحبني و أحبك ؟ أنت إنسان و أنا من الـجِــن .

الحب

توقّف لساني عن الأسئلة و لم أعد أرغب بالمزيد من الأجوبة .. لكن..
مـــاريـــا .. من الجن .. كيف يعقل أن أراها إن كانت من العالم الآخر ؟
لقد فهمت سر تلك القوى عندهم جميعا ..
فهمت أني أعيش في عالم آخر مع مخلوقات أخرى .. و لكن لا أستطيع التوقف هنا .. لا .. لا ... ما زلت أحتاج لمعرفة المزيد ..
نعم ..الحقيقة أنها من الجن .. و لكن هناك حقيقة أخرى .. لقد أحببتها .. و هذا واقع أيضا ..
كنت أجهل ساعتها أني أعشقها فعلا كما قالت .. و كنت أجهل أني سأحبها أيضا كما قالت .. لكن للحب شروط و للحب ثمن يجب أن ندفعه مقابل ذلك السر العجيب الذي يسكن قلوبنا ..
ساعدتني ماريا في استئناف حديثنا لأنها علمت وقع الصدمة علي ساعتها .. و بادرتني بالسؤال ..

- أعلم أنّ ما أخبرتك به قد أصابك بخيبة أمل كبيرة .. لكن يجب أن تعلم أني شعرت بنفس الإحساس عندما علمت أنك وهبت كل ما تملك لتلك الجمعية الخيرية .. لكني تجاوزتها سريعا .. لأني أثق برحمة الله بي ..
- لكن .. لكن .. ما .. علاقة التبرع بأموالي و ما أحسستِ به اتجاهي ؟
كان هذا السؤال هو الأخير قبل أن أنتقل فعليا من الشوق لماريا الى حب ماريا و من الرغبة الى الحاجة و من الوحشة الى السكينة .. كان ردها هو شرارة الحب الحقيقية لماريا ..

- عندما أخبرني الحكيم بأني سأحب شخصا ليس من عالمي , انتظرتك بفارغ الصبر لأني كنت أبحث عنك , لكن عندما علمتُ بأنك الوحيد الذي يستطيع أن يهزم جاك و بعدما رأيتك أول مرّة بالجزيرة .. اختلط الأمر علي .. لم تكن أنت ذلك الشخص الذي كان بمخيلتي رغم ذلك الإحساس الغريب الذي تحدثت عنه .. ذلك أنك رفضتَ مساعدة حسن في بادئ الأمر و لم تحاول أن تنكر صفة الجُبنِ فيك .. سألت عنك و راقبتك طويلا علّي أفهم قصد الحكيم .. لقد أحسست بشوق كبير لك عماد .. لكن خُلق الجبن منعني من الاقتراب منك .. الى أن علمت بإنفاقك كل أموالك .... لا تستهن بالأمر... أنتم معشر الإنس تحبون المال حبّا جمّا وقد يصل الأمر ببعضكم أن يفضّله على روحه ثم وافقت بعدها على إنقاذ حسن رغم ما شاهدتَ من قوّة جـــاك .. هنالك فقط .. أيقنت أن الحكيم كان على حـــق .. اسمعني جيدا عماد .. نحن معشر الجن نعمّر طويلا و أنا أحدثك عن إيمان و تجربة و عِلم من لدن الخبير الحكيم ..

الحـــب هو الله .. و الله هو المحبوب الأوحد .. و ما نحب في الآخَرِ إلّا صفاته و تجلياته و نوره و جماله .. لأن جمال الوجود من نوره و رأفة القلوب و حنانها من رأفته و رحمته بنا , و لا يملك شخص على وجه الأرض شيئا يجعله محبوبا إلا و كان لربِّنا شيء من أسمائه عليه .. لقد اشتقت اليك بسهم الله و أحببتك برحمة الله التي جعل في قلبك لتغفر للآخرين و لو آذوك .. وأحببت كرم الله الذي زرعه في قلبك لتهب كل ما تملك للآخرين .. و أحببت فيك الشجاعة التي قذف الله بصدرك حتى تضحي بنفسك من أجل إنقاذ الغير .. و ما نملك من أمرنا و أمر الحب شيئا .. لأنه إحساس جاهز بالفطرة يهدي الله له من يشاء و ينمّيه و يوفّر له ظروف نموه .. و هو لا يحتاج لمؤثرات خارجية لأنه فينا ... لأنه بداخلنا و هو لا يحتاج أي افتعال أو كذب .. لولا نور الله لما اشتقتَ الي و لما عرفتني و ما أظنك ستحبني لولاه ..

- إن ما تقولين ماريا صحيح لكنه نادر جدا إن لم يكن عدما ؟
- صحيح أنه نادر لكنه ليس عدما .. بل يعيشه الناس بمقاييس مختلفة من شخص لآخر .. لكن الأكيد أن الحب لا يجتمع مع الجريمة و الحب يكره

الكذب و ينبذ العنف و شرط حدوثه أن تكون النفوس خيرة جميلة .. القوم في الجزيرة يتحكمون بالإعلام العالمي و يريدون تدمير هذه البشرية لصناعة أخرى جديدة بمقاييسهم .. إنهم يروجون للحب بمساعدة خبيثي النفوس على أنه شهوة و رغبة حيوانية لا أكثر لأنهم يعلمون أنه يشكل خطرا وجوديا عليهم ..

- هل أفهم أن لا حب من أنفسنا و ذواتنا إلا بإذن الله ؟ هناك أقوام يحبون و يتحابون ولم يسبق لهم أن عرفوا الله أو بحثوا عنه .. فكيف تفسرين ذلك ؟
- لقد أخبرتك أنه موجود شاء من شاء و كره من كره .. و قلّة من يجنون ثماره لأن الله وفقهم اليه دون اجتهاد شخصي منهم .. و هو أيضا نتيجة انسجام طبائع الناس التي تتكامل و تخالج فيها النفوس بعضها البعض لكي تتراحم ..
- إذن ... ملايين البشر التي تتزاوج فيما بينها تفعل ذلك شوقا و رغبة في التملك لا حبا ؟
- الحب عند معظم الناس كاللباس يحسون به على أجسامهم في اللحظات الأولى .. أما بعد ساعات طويلة فإنهم لا يشعرون به .. رغم أنه يلامس جلودهم و يلتف حول صدورهم و أعناقهم .. لكن لا يشعرون بوجوده .. فالمرأة تحس بزوجها أثناء تعارفهما و خطوبتهما و زواجهما لكن ما إن تلبسه حتى يختفي الإحساس به .. وكذلك الرجل عندما يختفي إحساسه بزوجته تصبح كقطعة أثاث في البيت أو منظر جميل أثاره المرة الأولى ثم أصبح عاديا ثم نسيه .. و يبقى النسيان سيد الموقف الى أن يبدأ الخلاف و تتهاوى العلاقة نحو الطلاق ليشعر كلاهما بملابسه من جديد و بقوّة و عنف انتزاعها .. هنا يرتجف قلبهما معا و يخشى كلاهما الفراق لأن الصناعة الإلهية للأعصاب الكيميائية للإنسان تحس بلحظات الانتقال و لا تشعر تماما بالاستمرار .. تماما كالصحة لا نحس بأهميتها و نتذكرها فقط حين نمرض ..
- أليس هذا حبا إذن ؟
- لا إنها الحاجة عماد .. هنا نعرف الفرق بين هذا الحب و حب الوالدين الذي يكون غير مشروط .. فهم لا ينتظرون منك شيئا سوى أن تكون بخير و أن

تحقق كل ما تصبو اليه و أن تكون سعيدا .. عندما يكون الحب صادقا فإننا نرجو للحبيب كل خير حتى لو كان الخير في بعده عنا ..

- كل ما أحس به الآن لا يتوافق مع ما تقولين ..
- كيف ؟
- أنا أحبك بدون شروط .. و أريد أن تبقي بجنبي بقية حياتي و لن أكون سعيدا بالعكس .. أليس ما أشعر به مخالف تماما لشرحك ..
- حسنا سأسألك و أريد إجابة صريحة دون تردد .. ما الذي أحسست به اتجاه جاك عندما رأيته أول مرة ؟
- جـــــاك .. إنه وسيم جدا .. لم أتخيل أن يكون بتلك البشاعة .. لكن سأصدقك القول .. كان إحساسا طيبا اتجاهه قبل أن يهاجم حسن و يحاول قتله ..
- لقد استحسنت ملامح وجهه و جماله لكنك أبغضته بعد لحظات لأنه حاول قتل حسن و رغبتَ في قتله بعدما قتل كاتبتك .. تخيل معي عماد لو أنا التي حاولت قتل حسن و قتلت الكاتبة و الدكتور ونيس .. هل كنت ستشتاق الي و تحلم بي و تحب شخصي ؟
- لا طبعا .. أكيد ..
- إذن ما جعلك تكره جـــــاك و تحب ماريا .. صفات .. وليس أشخاص ..
- لكن حبي لكي يختلف عن حب أو كره جاك .. كما أني لا أريد أن أعيش من دونك و لن أكون سعيدا بذلك .. فهل أنا لا أحبك ؟
- الحب بحر عماد .. حبي لك ليس كحبي لوالدي و لن يكون كحبي لأخي .. الحب إحساس طبيعي .. لكن الفرق بين شخص و آخر هو أنه ينمو عند البعض و يخمد و تنطفئ شمعته عند البعض .. سيكتمل حبك لي يوم تبحث عن سعادتي دون التفكير في شخصك ..
- لا أستطيع الآن ..
- و هل أخبرتكَ أني وصلت لتلكم الدرجة أنا أيضا ؟
- أفهم أنك لا ترغبين مثلي في أن نفترق عن بعضنا ؟
- نعم (ابتسامة)
- لكن لماذا يقول الجميع أن حبنا مستحيل ماريا .. لماذا ؟ ما الذي سيفرقنا ما دمنا نرغب في العيش مع بعضنا البعض ؟

- أنا من عالم آخر عماد .. لقد تجسدت في هيئتكم لأنقذ شخصا عزيزا علي .. يجب أن تعلم أننا لسنا مثلكم .. نحن لا نأكل مثلكم و لا ننام مثلكم و لا نتزاوج مثلكم .. ولا نعيش أعماركم ولا توجد علاقة بين عالمنا و عالمكم .. كل ما يجمعنا هي العقيدة .. لقد كان آخر الأنبياء بشرا منكم للإنس و الجن معا ..
- هل قلت أنكِ تجسدت في هيئتنا لإنقاذ شخص عزيز ؟
- نعم .. و هو السبب في لقائنا ..
- من ..
- أخي .. إنه أخي الأصغر حـــــســـن .

الراقصة و اللص

- ما الذي تقولينه ماريا .. حسن شقيقك .. كيف ذلك ؟
- نعم إنه شقيقي الأصغر .. كنت سأخبرك بأمره و جاك معا وكذلك الدكتور ونيس .. لكن جـــاك تدخّل و الحكيم غيّرَ رأيه و قرر لزوم اطلاعك على الملف رقم سبعة قبل أن نعود اليه .. لقد قال أن الأمر سيساعدك على فهم جاك و إنقاذ حسن ..
- كيف يطلب مني الحكيم إنقاذ حسن و هزم جاك مع أن بإمكانه القيام بذلك .. هل رأيتِ ما فعله بجاك ؟
- نعم شاهدت و سمعت كل شيء .. و أعلم أيضا أن الحكيم على حق في كل ما يقول .. لقد حان الوقت لأطلعك على الجزيرة عماد ..
- ما زالت لدي أسئلة كثيرة ..
- ستعرف كل شيء بعد أن ترى ما يجري بالجزيرة و تطّلع على الملف رقم سبعة ..
- ما زال لدي سؤال أخير ماريا قبل أن نذهب الى هناك و أرجو أن تجيبيني بصراحة و دون تردد ..
- أما هو ؟
- هل يشترط حبك لي أن أهزم جاك ؟

- (ابتسامة) لقد بدأ منسوب الحب يرتفع عماد .. إنه سؤال الخوف .. لقد انتقلت من مرحلة الشوق و لذة الإحساس به الى مرحلة الخوف من فقدانه .. لا .. لقد قادتني شجاعتك الى حب شخصك كما هو و أنتهى الأمر .. مهما كانت النهاية .. سأظل أحب الجبان الذي أصبح شجاعا بين ليلة و ضحاها ..
- لو كنتي بشرا لكان حديثنا عن الحب مختلفا عما هو عليه الآن ..
- (ابتسامة) لقد دمرت الأفلام و المسلسلات و الدعاية الكاذبة نسائكم و حولتهم الى ببغاوات يتقيؤون ما يشاهدون فيها و يكررونه دون استخدام ذرة من عقولهم .. و هذا بالضبط ما كان يسعى اليه ونيس .. لقد كان رحمه الله يريد إيقاظ الأمم النائمة من غفوتها .. لحسن الحظ ليس لدينا تلفاز معشر الجن .. أتذكر لقطة شاهدتها من فيلم عندكم يحكي عن راقصة تحب لصاً و كان بدوره يعشقها حتى الثمالة .. لكن في نهاية القصة .. رقصت لغيره عندما سرق مالها و شقى عمرها .. و نسي الناس حقيقة أنه لص و أنها غانية تبيع جسدها للذي يدفع أكثر و لم يذكروا منها سوى الحب الذي كان يجمع بينهما .. إنها مهزلة العقول الفارغة لدى الكثير من الإنس ..
- لم أتخيل يوما أن يكون حديثي مع امرأة بهذا الشكل .. كنت دائما القائد و الموجه لكل حواراتي لكن الآن .. الأمر مختلف .. لديّ إحساس غريب الآن و قد عرفت شخصيتك و فهمت عنك و عرفت أصلك ..
- (ابتسامة) نعم أعلم .. أنتم معشر رجال الإنس قوّامون بالفطرة على نسائكم و تأبى فِطرتكم أن تكون المرأة أقوى أو أغنى أو أعلمَ منكم .. حتى لو حاولتم .. فطبيعتكم ترفض ذلك .. لكن ليكن في علمك عماد .. (اقتربت مني و همست في أذني اليمنى) من الأسباب التي جعلتني أحبك أيضا .. أنّ الحكيم أخبرني أنك أقوى و أحكم و أعلم منّي ..

راق لي كثيرا همسها بأذني و أحسست بالسعادة تغمرني .. لقد كانت لحظات رائعة تلك التي قضيتها في فينيسيا , تمنيت ساعتها أن لا نكون لباسا يحس بعضنا ببعض أياما و شهورا فقط ..

كانت أعقد المشكلات عند المريض الذي يزورني بالعيادة هي الحب .. و كانت أيضا أيسر المشكلات .. ذلك أنه لا حل لصدمات العشاق و مصائبهم غير النسيان .. كنت أرقص على حبله و أحاول جعلهم ينسون بشتى الطرق

لكن لم يكن لدي مثل رأي ماريا بالموضوع .. و أعترف أنها أقنعتني بوجهة نظرها ..
نعم .. فكلُّ ما نحب جميل لشكلٍ أو صِفة , و كل ما نعشق رائع لجمال أو خُلُق , و الجمال مِرآة لبديع صنع الخالق .. و حتى النفوس الشريرة تعشق جمال الخُلق , فالكَذوب لا يحب أن يكذب عليه أحد بل تهيم نفسه في من يصدُقه , و اللص لا يحب أن يسرقه أحد , بل يسكن عند من يأتمنه على ماله و عرضه .. وكل الحب هو من الله و الى الله و السعيد هو من يسلك ذلك التيارُ الدافئ بقلبه اتجاه باقي المخلوقات ..
كانت أسئلة الأخرى تدور برأسي , لكني فضّلت تأجيلها لحين إنقاذ حسن .. قامت من كرسيها بالمقهى و أمسكت يدي للعودة الى الجزيرة , لكن الموقف كان مختلفا ..
أعلم أنها تحبني الآن .. و تعلم هي أيضا ما يجول بخاطري ..
لم أتمالك نفسي في تلك الساعة لأمنع عقلي و مخيلتي من التفكير فيها كرجل , لم أستطع أن أمنع نفسي من الاقتراب منها أكثر ..
ليلمس أنفي أنفها و أنظر في عينيها الواسعتين و أتأثر و أنفعل و أتنهد بعمق و هي تضع جبينها على صدري و تهيم أنفسنا في بعضها البعض لنرتاح من ذلك المجهود العاطفي الجبار ..

كان هذا أقصى ما تستطيع مخيلتي أن تفكر فيه .. لم يجرأ الجبان بداخلي على الاقتراب من ماريا الجـــنّـــيـــة ..
ولكنها البداية فقط .. هكذا قال الشجاع بداخلي ليجعلني أبتسم بمكر ..

رفعَت وجهها نحوي و قالت قبل أن نعود الى الجزيرة بنبرة اعتذار ..

- الحب هو الأصل فينا عماد .. و هو لا يحتاج لطاقة حتى يكبر .. بل فقط قلوب طيبة .. و الشر دخيل على أنفسنا و يحتاج من الشخص المريض به طاقة هائلة ليتعايش معه.. الحقد و الغل لا ينام صاحبهما قرير النفس لأن ما يشعر به غريب عنه ..
- لماذا تتحدثين عن الشر الآن ماريا ؟

- لأن ما تُقبل عليه هناك بالجزيرة سيحرك فيك شيئا غريبا عنك .. و أودُّ من قلبك أن يكون مستعدا لدرئِه و طرده قبل أن يسكن ..

كنت أود أن لا تنتهي قهوتي رفقة ماريا بالمدينة الإيطالية .. ولكن حسن ما زال أسيرا .. و الحكيم ينتظرنا .. و ما زلت أجهل الكثير ..

ابتسمت ماريا و بعينيها حزن لم تستطع إخفائه عني ..

لقد كانت حزينة من أجلي ..

كانت حزينة على ما ستشاهده عيناي ..

كانت حزينة علينا معشر الإنـــــس ..

الصابون و العطر

ثم تغير المشهد و اختفت فينيسيا .. و رأيت الجزيرة من أعلى جبل فيها و الصحراء الصغيرة داخل البحر حيث يشرب الحكيم كوب الشاي الذي طلب و ماريا بجنبي دائما ..

طلبت مني أن أركز جيدا ..

و أن أتمالك أعصابي ما أمكنني ذلك ..

ثم سألتني إن كنت مستعدا لاكتشاف الجزيرة .. و أجبت ..

- نـــــــــــعـــــــــــم .... مستعد ..

كانت كلمة تفوهت بها فقط .. لكن الحقيقة كانت خلاف ذلك ..

أغمضت ماريا عينيها قبل أن تختفي الشمس و الجبال و شواطئ الجزيرة و أجد نفسي في قاعة عظيمة بسقف بعيد عنا بمئات الأمتار و به ألوف الأعمدة الحديدية , على كل منها صنارتان شديدتا السُمك, و الكل يسير في اتجاه واحد نحو الأمام و يختفي في أقصى الغرفة داخل ثقب كبير متوهج بضوء أحمر غامق..

كان صوت تلك السكة الحديدية المعلقة يصدر ضجيجا هائلا و كأننا نتواجد بمصنع سيارات عظيم .. لكنه لم يكن كذلك ..

سألت ماريا عن تلك السلسلة المعلقة فلم تجبني بل أشارت الي أن أنتظر و وضعت أصبعها على شفتيها علامة على الصمت الى حين أرى بعيني ما سيحدث ..

ثم توقفت الصنانير العملاقة بالسقف برهة .. التفتت يمينا و يسارا ..
لا شيء ..
ثم عادت السكة الى الحركة وأشارت ماريا الى الثقب الكبير الآخر خلفنا ..
لم يكن به ضوء و لم يكن متوهجا كالذي بأقصى القاعة ..
لاحظت أن ماريا تنظر الي بعطف و لم أفهم إلا حينما رأيت ما يخرج من الفوهة ..
تسارعت السكة الميكانيكية ولاح لي هناك ما لم أتخيل أني سأراه يوما ..

واحد .. اثنان .. ثلاث .. عشرة .. عشرات .. ثم مئات ..
مئات البـــشـــــر مقطوعة الرؤوس معلقة بواسطة الصنانير الكبيرة من كعوبها كالخرفان بالمجازر تتحرك بهدوء نحو الفوهة الأخرى ..
تصدّع دماغي و لم تعد بي طاقة تحملني ..
انهمرت دموعي و ابتل وجهي في ثوان معدودة..
المشهد المروع أفقدني النطق ..
خرّت ركبتاي أرضا ..
تذكرت حسن ..
تذكرت ونيس .. كلاهما قال ما لم أعره اهتمامي ..
لقد قالا لي بالحرف ... أنت لا تعلم ما يقوم به هؤلاء المجرمون ..
نعم .. لم أكن أعلم ..
و سألت ماريا دون أن أنطق بكلمة ..
لقد نطقت عيناي بالسؤال دون أن تتحرك شفتاي ..

- من ؟ .. و .. لماذا ؟
وكان الجواب الـــــــسُّم ..
- إنهم مهاجرون .. هاربون من بلدانهم للبحث عن حياة أفضل .. جلهم من الدول الإسلامية و الإفريقية و الآسيوية الفقيرة .. يتلقفونهم في البحار وأينما ثقفوهم و يأتون بهم هنا لأنهم يعلمون أن أوطانهم لن تبحث عنهم .. لقد استخدموهم في تجارب كثيرة قبل أن يستأصلوا أهمّ جزء فيهم لبقية أبحاثهم .. إنّها رؤوسهم حيث توجد أدمغتهم .. الجثث التي تمر فوقنا خالية من كل

الأعضاء الصالحة للبيع .. لقد نهبوا أفئدتهم و كل ما يستطيعون بيعه في السوق السوداء لبشر آخرين سيدفعون الملايين من الدولارات من أجل قلب أو كلية أو أي شيء يحتاجونه ليعيشوا مزيدا من الوقت .. و الجثث هناك في الفوهة الثانية تذوب بمحاليل كيميائية و تستعمل شحومها و لحومها في صناعة أرقى أنواع الصابون و العطور لتتجمل به نساء بني البشر .. من أين لهم بالأموال التي تمكنهم من السيطرة على مفاصل العالم و الإعلام و السياسيين .. إنها تجارة بالنسبة لهم .. السلاح للحروب والسياسة و الأعضاء البشرية للمال و الإعلام ..

كانت كلمات ماريا التي أعشق سمّا يتقاطر على قلبي في صدري المفتوح..
لم أعد أستحمل المزيد ..
و لم أعد أريد اكتشاف الجزيرة ..
و لم أعد أريد أن أعرف المزيد ..
بدأت الرغبة في التقيؤ تنتابني .. و شعرت بدوار القاعة حولي ..
رفعت رأسي اتجاه ماريا .. فهمت مرادي دون أن أتفوّه بكلمة ..
فهمت أني أريد مغادرة المكان ..
فهمت أن قلبي يموت .. و سيتمكن الغضب الذي حذرتني منه أن يسكن و يستقر ..
لقد حملتني بعيدا الى واحة في قلب صحراء الجزائر العظيمة حيث تمر الأيام و الليالي دون أن ترى مخلوقا يُدعى إنـــســـان ..
تركتني وحيدا قرب الواحة و ابتعدت ثم اختفت ..
كنت أحتاج الوحدة لساعات و ربما أيام لأزيح ما شاهدت من مخيلتي ..
و كنت أعلم أن الأمر مستحيل ..
تذكرت أن ونيس قال لي حين رأيته ..

- إذا أتيحت لك الفرصة لتدميرهم فلا تتردد ..

و الآن عرفت السبب .. و عرفت أين أنا و ما المطلوب ..

ما دام الحكيم متيقنا أني سأهزم جاك .. إذن فسأفعل .. و إذا كنت قادرا على قتل جاك .. إذن سأبيد الجزيرة عن بكرة أبيها ..
لن أترك فيها أخضرا أو يابسا ..
سأحرقها كما أحرق حسن الغواصة و من فيها ..
هذا ما حدثت به نفسي قبل أن تعود ماريا و نرجع الى الجزيرة لأكتشف أن الأمر أفظع مما رأيت و أني سأحتاج لرباطة جأش أكبر حتى أتمكن من إتمام مهمتي على أكمل وجه .. و أتمكن من إنقاذ حسن و حرقهم جميعا ..

الغدة الصنوبرية

أصبح التنقل مع ماريا على بقاع الأرض المتناهية الأطراف يأخذ طابعا روتينيا عندي .. أختفى ذهولي و إعجابي بهذه القدرة الخارقة على السفر و عدت أشتاق الى تعب السير و المسير و الركوب و النزول و حمدت الله و أشفقت على ماريا لأنها حرمت من نعمة السفر بطريقتنا و شقائنا ..
ثم تذكرت أنها تشفق علينا أيضا معشر البشر من أبواب لا حصر لها , و أولها الجهل المركّب الذي نعيشه .. جهل على مقاسنا .. نلبسه و نتدفأ به و نطمأن له .. ذلك الجهل الذي أعلن الإسلام الحرب عليه من أوّل كلمة بالقرآن , و أبينا إلّا أن لا نحاربه .. بل طردنا من يحاربه من أراضينا من علماء و مثقفين و أدباء و رواد علم , هم النواة الحقيقية التي كانت ستحارب منظمة عظيمة كالتي توجد بالجزيرة ..
عدت مع ماريا الى الجزيرة و وجدت نفسي في قاعة أخرى كبيرة يغلب على جنبات سقفها اللون الأحمر.. لم يكن عاليا هذه المرة , كانت القاعة مليئة بصناديق زجاجية صغيرة و شفافة ترتبط جلّها بأسلاك ملونة كثيرة من الجوانب , تملأ الصناديق مياه حمراء لزجة و لا يظهر ما بداخلها ..
سألت ماريا عن الأمر لأني لم أفهم القصد .. كانت القاعة كبيرة بما يكفي لوجود الألوف من تلك الصناديق التي كان بعضها فارغا و به بقايا جلود شفافة ..

- ما الأمر ماريا .. ما هذه الصناديق ؟

- أنظر جيدا عماد .. اقترب أكثر من الزجاج ..

اقتربت كما قالت ماريا لأفهم مرادها و أعرف ما الذي يوجد وراء ذلك الماء الأحمر اللزج ..
وعرفت أن جريمة قتل البشر و صناعة العطر و الصابون بجثثهم لا تساوي شيئا أمام ما يفعلون هنا ..
كانت تلك الألوف من الصناديق تحمل أرحاما اصطناعية شفافة لتفريخ أطفال بلا أمهات .. لقد كنت أقف على باب أكبر عملية استنساخ سرية للبشر في العالم ..
التفت الى ماريا و سألتها بلسان مرتجف ..

- ما مصيرهم ؟ الى أين ؟

لم تجبني ماريا بل أمسكت بيدي و تغيرت القاعة الحمراء الى أخرى بيضاء كبيرة و بها أيضا ما لا حصر له من الصناديق الزجاجية حيث يوجد داخل كل منها رضيع وبأحجام مختلفة تلتف حولهم أسلاك كهربائية تنتهي جلها بمؤخرة رؤوسهم حيث قلادة سوداء مغروسة بدقة ..
لم أسأل ماريا بل كانت هي من بادرت بالجواب على ما يدور برأسي ..

- إنهم يُبرمَجون الآن .. تتم تغذيتهم هنا .. و تعليمهم هنا .. إنهم يتلقون ذبذبات كهربائية تسري لأدمغتهم .. سيخرجون من هنا بعد عشر سنوات و قد عاشوا حياة علمية كما يراد لهم .. لكن .. لن تكون لهم إرادة خارج ما يريد صانعوهم .. سيشرعون في بناء عالم جديد ليس لهم رأي فيه .. سيقتلون دون أدنى شعور بالذنب .. و لن يكون مسموحا لهم بالتفكير .. بل سينفذون الأوامر فقط ..

أخبرتني ماريا بأن كل ما أراه يقبع تحت أرض الجزيرة بمئات الأمتار .. و أن هناك عشرات القاعات الكبيرة المرتبطة بعضها ببعض عبر أنفاق عمودية و مصاعد تتحرك الى جميع الاتجاهات .. كنت أنتقل مع ماريا من

قاعة الى قاعة دون معرفة السبيل اليهم جميعا لو كنا على ظهر الجزيرة , لكن المهم .. أني عرفت ما يجري هنا ..
عرفت أن الإنسان الذي لا يخشى الحساب و العقاب .. ستُسوّل له نفسه أن يتخطى كل الحدود التي لن يستطيع بعدها العودة الى حضن الانسانية .. ليتحول الى كائن مرعب يشكل تهديدا على البشرية .. و كل ما يبرر به أفعاله إنما هو تزييف للحقيقة ..
مررت بقاعات كثيرة بها آلات ذكية متخصصة في تشريح رؤوس البشر و استئصال المخ و فرز النخاع الشوكي و المخيخ و الغدد و التلافيف عليها .. و غرف أخرى صغيرة تُقام بها عمليات تشريح من طرف علماء بلا أخلاق لبشر أحياء مشوهين بسبب الاستنساخ ..
و قاعات أخرى يتم فيها اختبار آخر الأسلحة البيولوجية من بكتيريا قاتلة على الحيوانات كما البشر أفظع من الجدري و الجمرة الخبيثة و السرطان كوسيلة للبحث عن أفضل الطرق للتخلص من البشرية الغبية على حد قول الدكتور هالي ..
و أنفاق طويلة مغلفة بمعدن أبيض أملس خلفها طبقات متعددة من الاسمنت المسلح مضيئة , على جنباتها أسلحة فتاكة كالتي أطلقوا على الحكيم ..
أخبرتني ماريا أنهم يدخلون الناس ليعرفوا مدى تأثير الأسلحة الإشعاعية التي يصنعون على لحوم البشر ..
ثم أخبرتني عن المختبرات الكيميائية حيث يتم اختراع كل ما يمكّنهم من السيطرة على البشرية ..
كل الفيروسات التي كان يتخبط العالم من خشيتها .. كانت تخرج من هذه المختبرات و كان اللقاح يخرج من هنا أيضا ليباع بأثمنة خيالية للدول الغبية التي لا تستثمر جهودها في ثروتها البشرية و تزداد المنظمة بعدها قوة بعد قوة ..
ثم فروع أخرى سيكولوجية و سوسيولوجية وأنثروبولوجية تهتم بالبحث العلمي و النفسي و الجسدي لبني البشر و للمجتمعات و الوضع العالمي الحالي و كيفية التخلص منه بأسرع وسيلة و أخرى تبحث عن الحلول الناجعة للوقاية من إشعاعات القنابل النووية إذا ما كان الحل هو تدمير الأرض بتلك القوة الهائلة ..

ثم صالات كبيرة مليئة بأحواض صغيرة بها مادة الفور مالين يسبح بكلّ منها مخ بشري .. وبقربها مرشحات و أنابيب تقطير متعددة الألوان و أصباغ و أحماض ..
أخبرتني ماريا بأنهم يستنسخون الأنسجة الحية في دماغ الحيوانات و البشر و يحاولون المزج بينها في عمليات استنساخ جديدة علّهم يعرفون سر القوة التي تتمتع بها البعوضة لكي تضرب بجناحيها أكثر من ثلاثمائة و عشرين ضربة في الثانية و ما يجعل النملة تحمل ضعف وزنها مئة مرّة ..
إنهم يبحثون عن القوّة بالعلم أينما وُجدت ..
ثم مختبر آخر به عشرات الكراسي البيضاء كالتي توجد عند طبيب الأسنان على جوانبها روافع عديدة و فوقها جهاز كغطاء رأس كبير ..
الأكيد أن الذي سيجلس على هذا الكرسي سيتعرض لتجارب إشعاعية ستنعكس عليه من الجوانب الثلاث لتتركز على رأسه ..
سألت ماريا عن الأمر لأني لم أفهم المراد من آلة كهذه فأجابتني أنها الغدة الصنوبرية ..
إنهم يحاولون استخراج الأسرار من تلك الغدة لأنهم يعرفون أهميتها ..
إنها المسئولة عن معدل النمو الجسمي و النضج الجنسي و النوم و الحالة النفسية المتغيرة عند الإنسان ..
لقد اكتشفوا هنا قبل العالم أن لها علاقة وطيدة بالقوّة التي يبحثون عنها و أن اختلافها من شخص لآخر هو السبب في كون الأول عبقريا و الثاني غبيا متخلفا .. لذا فهم يحاولون التحكم بوجودها في عقول البشر من عدمه ..
فمن ينجحون باستنساخه و به الخصائص التي يودّون بالغدة يكمل معهم مشواره, أما البقية فتستقبلها مختبرات التجارب المرعبة ثم النهاية تكون.. العطر و الصابون.. وهذا الكرسي و الآلة فوقه هما لاستخراج و تثبيت المعلومات التي يريدون مباشرة .. فهنا يقررون إن كان فلان سيعمل معهم أم سيكون مصيره الموت لأنه ليس مكتملا مثلهم ..
مررنا بعشرات الغرف و القاعات الكبيرة كان عدد العاملين بهم قليلا جدا , لم يكن يرانا أحد .. لقد قال الحكيم أنه سيحجبنا عنهم و لقد صدق مرة أخرى .. ثم انتقلت مع ماريا الى أعلى حيث قاعة المؤتمرات ..

كانت قاعة عظيمة فخمة بأبواب من رخام مزخرف و زرابي حمراء سميكة و أقواس منحنية جميلة تلف كل جنباتها و مئات الكراسي الكبيرة الراقية الحمراء المصفوفة بشكل دائري حول ثلاث توابيت عملاقة..
إنهم المؤسسون الأوائل .. هذا ما أخبرتني به ماريا ..
ثم دخل فجأة الدكتور هالي و حوله زمرة من الشباب .. كان يدعوهم لإخبار الجميع بالجزيرة عن اجتماع طارئ يود عقده بالقاعة بعد ساعات قليلة , و الموضوع هو الحكيم و أنا .. لكنه لم يسترسل في الحديث لأفهم قصده .. ثم دخل شاب آخر يهرول خلفهم و هو يصرخ و يستغيث ..

- إنه الحكيم .. إنه الحكيم دكتور هالي ..
- ماذا حصل ايمانويل ؟
- لقد أســــــــر جـــــــاك ... و أختفى الدكتور عماد
- كيف .. مستحيل .. لا أحد يستطيع أسر جاك ..

ثم هرول الجميع خارج القاعة .. أخذت ماريا بيدي و تقدمنا خطوات صغيرة نحو دولاب خشبي كبير قديم , يبدو أنه تراث من القرن الماضي .. فتحت الدرج الرابع به و ناولتني ملفا يحمل الرقم 7 ..
وقالت ..

- هذا هو حسن ..
- لكن أين هو ؟ لماذا لا تأخذيني الى حيث يوجد ؟
- إنه يوجد هنا عماد .. في الملف .. دليلك عليه هو الملف ..

أحسست بغربة شديدة و أنا أمسك الملف بيدي , و شعرت وكأن النهاية اقتربت ..
نهايتي .. نهاية حسن .. وجاك و ماريا و الحكيم .. و الجـــزيـــــرة ..

نعم .. لقد كانت فعلا النهاية ..
لأني بعد أن قرأت الملف رقم سبعة ..
عرفت أن الحكيم كان على حق ..

عرفت أني الوحيد الذي سينقذ حسن و يدمر جاك و الجزيرة الى الأبد ..
عرفت أني .. أنا الأقـــــوى ..

الرجل الخارق

سألتني ماريا إن كنت أودّ قراءة الملف في قاعة المؤتمرات أو بأي مكان أحب التوجه اليه ..
كنت متعجبا من الهدوء الذي تتعامل به , فقد رأيت الجميع يخرجون مسرعين لإنقاذ جاك من قبضة الحكيم , كان من المفروض أن تنصحني بقراءة الملف بسرعة لأن الوقت لا يكفي ..
لكنها طمأنتني بشأن الحكيم و دعتني لأن أنسى أمره حتى أقرأ الملف ..
فكرت قليلا ثم اخترت أين أريد أن أقرأ الملف أمام دهشة ماريا ..
لقد قررت أن أقرأه في المكان الذي بدأ منه كلّ شيء ..
المكان الذي غيّر حياتي ما إن وضعت قدمي فيه .. أو فيها ..
غـــرفـــــة حـــسـن ..
لم تُبد ماريا اعتراضا رغم دهشتها و انتقلنا في لمح البصر الى الغرفة حيث ما زالت أجزاء تلفاز حسن التي أحدثت ثقوبا في السقف معلقة بفعل القوة التي قُذفت بها ..
سألتني ماريا عن سبب اختياري للغرفة فكان جوابي قاطعا و مختصرا ..

- لأني أخطأت في حق حسن حين لم أصدقه .. وهذا المكان يذكرني بأنه كان صادقا .

جلست على سريره المتسخ و أمسكت الملف بيد مرتعشة ..

كان ملفا أزرق اللون كبير الحجم به عشرات الصفحات ..
بادرتني ماريا بالحديث قبل أن أفتحه لتخبرني عن حسن ..
- لقد سبق و سألتني عن أخي .. سأخبرك بما يجعلك تستسيغ ما ستقرأ في الملف رقم سبعة ..
- ما الأمر ماريا .. تتحدثين و كأني لن أفهم الحقيقة إذا قرأت ملف حسن ..
- لا .. ليس هذا قصدي .. و لكنك ستحتاج لما سأخبرك به حتما لتفهم ما وقع لحسن ..
- أخبريني إذن ..
- لقد أخبرتك أننا نختلف عنكم معشر الإنس في كل شيء .. فنحن لا نشبهكم في شيء سوى العقل و الإرادة ثم الإيمان و الكفر بالله .. ما عدا هذه الأمور , فلنا عالمنا و لكم عالمكم و لا دخل لنا بكم و لا دخل لكم بنا ..
- إذن ما بال حسن و أنت هنا في عالمنا ؟
- لقد سبق و أخبرتك أني تجسدت و ضحيت بسنين من عمري من أجل حسن .. نحن نعيش و نموت مثلكم , إلا أن أعمارنا تفوق أعماركم بمئات السنين .. لكن عندما يتجسد أحدنا في مخلوق مادي مثلكم يعرض نفسه للموت السريع .. وذلك لأن أعماركم لا تتجاوز المائة سنة على أبعد تقدير .. بينما يصل متوسط عمرنا نحن أكثر من ستمائة سنة .. لقد تجسدت و لم أبلغ من العمر الخمسين سنة من أجل حسن ..
- لكن .. لماذا ؟
- حسن أخي الأصغر .. و قد تجسد في صورة إنسان لأنه كان صغير السن و يجهل تماما العواقب .. لقد تجسد و لم يبلغ من العمر العشرين سنة أمام صدمة أبوينا .. نحن معشر الجن لدينا قدرات و طاقات عديدة و مختلفة من جنٍّ لآخر .. وكل تلك الطاقات هي تحصيل لعلوم قديمة جدا أقدم من الإنسان نفسه , ذلك أن آباءنا و أجدادنا سبقوكم لهذه الأرض بملايين السنين قبل خلقكم أنتم , كما أننا لسنا مخلوقات مادية مثلكم من تراب .. نحن مخلوقات نارية , لذلك فعلمنا ليس مثل علمكم و أبحاثنا ليس كأبحاثكم .. لكننا نشترك في البحث عن الحقيقة و العلم و القوة .. الأكيد أنكم ستصلون يوما ما الى ما وصلنا اليه من علم و قوة ..
- لكن لماذا تجسد حسن ؟ ما السبب ؟

- السبب هو.. الســـيـــنـــما .. نحن معشر الجن ليست لدينا فنونكم و ما يترتب عليها من رسم و نحث و موسيقى و تمثيل و مسرحيات و مسلسلات و تأليف و شعر .. لأن الاختلاف بيننا أقوى من أن يسمح بذلك .. نحن مخلوقات نارية لا تتجسد أبدا إلا في حالات الضرورة العلمية التي تحتاجها أممنا للتقدم و الازدهار والرقي بعلومنا لفهم أسرار الحياة .. منا الملحد و المؤمن و المجرم و العادل و الصادق و الكذاب .. لكننا اجتزنا مستوى الانحطاط الفكري الذي يعيش فيه الإنسان .. حتى حروبنا تختلف عن حروبكم و جرائمنا لم و لن ترقى الى ما وصلت اليه البشرية .. كان حسن يحب أن يختلي بنفسه في مجامعكم لأن لنا مداخل نراكم منها , و لقد ظنّ المسكين مرّة و هو يختلس مشهدا في السينما أن ما كان يشاهد في فيلم يدعى الرجل الخارق .. ظن أنها الحقيقة و أن بإمكانه أن يساعد البطل في إنقاذ الأرض من الشرير في الفيلم و الذي يدعى .. زود .. كان يسعى حسب الرواية الى إفناء البشرية ..

لقد تجسد أخي ساعتها من أجل إنقاذ البشرية وفهم في الحين أنه فيلم و تمثيل و أنه ضحى بسنين من عمره لسبب تافه .. كانت صدمته أكبر من طاقة تحمله .. لم يستطع مواجهة الأمر بينه و بين نفسه فعاد ليغرق في الخيال .. و تجسدتُ مثله لإنقاذه من المنظمة التي ألقت القبض عليه حينما عرفت قدراته الخارقة و حاولت أن تعرف السر ورائها عبر تجاربها التي رأيتَ بأم عينك .. ألا تذكر أنك كنت تعالج حسن من حالة الوهم التي يعيش فيها ؟ ألا تذكر أن بوادر شفائه بدأت بالظهور قبل أن يختفي ؟ ألا تذكر ؟

- نعم .. أذكر جيدا ماريا .. لكن .. لكن .. من هي تلك المرأة التي زارتني أول مرة لتقنعني بعلاج حسن .. لقد كانت تدّعي أنها عمة حسن ..
- ليس لحسن عمّة .. أنـــا من زرتك في عيادتك و أقنعتك بعلاج أخي وكل ما أخبرتك به .. لم يكن صحيحا .. بل كان فقط لأجعلك تساعده .
- وهل بإمكانكم التجسد كما يحلو لكم و بأي شكل تحبون ؟
- لا .. لا يمكننا ذلك .. نحن نتجسد مرّة واحدة و تكون نهايتنا فيما اخترناه ..
- إذن كيف فعلت ذلك ؟
- بالإيحاء عماد .. كم من مرة سأكرر على مسامعك أننا مختلفون عنكم .. نحن لا نتكلم مثلكم و لا يسمع بعضنا بعضا كما تفعلون .. نحن نتبادل

أطراف الحديث تحت مسمى الإشارات و الذبذبات الكهربائية عندكم .. لقد أوحيت اليك شكلا غير شكلي و صورة غير صورتي لأنها في عالمكم إشارة و ضوء , و نحن نتحكم في هاتين الخاصيتين ..لأتمكن في الأخير من إقناعك بمساعدة أخي ..

- لكن كيف وصل عندنا بالرباط و أنت تقولين بأن منظمة الجزيرة ألقت القبض عليه ؟
- ذلك ما ستعرفه إذا قرأت الملف رقم سبعة ..

الحـــــــالـــــة

فتحت الملف رقم سبعة لأجد بالصفحة الأولى رموزا و حروفا تدل على رقم الحالة التي سيتحدث عنها الملف , و فهمت بعد قراءة السطور الأولى أنه عبارة عن أرشيف لحالة معينة ..
كان الملف يصف داخل صفحاته الأولى أين و كيف تم القبض على الحالة .. هكذا كان يشار إليها .. الحـــــــالـــــة رقم سبعة هي حسن حسب ترتيب المنظمة .

كانت الصفحات الأولى من تقرير عملاء المنظمة تتحدث عن إلقاء شرطة مانهاتن في نيويورك الأمريكية عن شخص مجنون تمّ العثور عليه بإحدى قاعات السينما الشهيرة عاريا عند عرض فيلم الرجل الخارق ..
و الأخير كان في حالة هستيرية و يصعب التحكم به ..
تمّ نقله الى أحد مستشفيات الأمراض النفسية هناك بعد أن تمكنت الشرطة من السيطرة عليه .. وممّا جعل المنظمة تهتم بأمر تلك الحالة , هو أن شهودا عيان أكدوا للشرطة أن بعض كراسي السينما اقتُلعت من مكانها وقُذفت عاليا بقوة لتلتصق بسقف السينما حينما كان الشخص يصرخ أرضا و يبكي بهستيرية شديدة ..
كان تقرير الشرطة الأمريكية هو السبب في تدخل المنظمة لإحضار الحالة الى الجزيرة ..

تم اختطافها من المستشفى و إحضارها الى الجزيرة للتأكد من الأمر قبل أن تبدأ السلطات الأمريكية في تحرياتها , وتأكد فعلا بعد التجارب المتتالية عليها أنها تسبح وسط طاقة هائلة من الإشعاعات الغريبة التي كانت المنظمة تجهلها في ذلك الحين ..
كانت تتحدث بهستيرية دائمة عن الخدعة التي وقعت في شراكها ..
كذلك لم يحصل أن قاومت أو حاولت الفرار أو رفضت الخضوع لتجارب الخبراء و العلماء ..
ثمّ بدأت تتطور شيئا فشيئا الى أن تغيرت قناعتها دون تدخُّل من العلماء و الأطباء الذين حاولوا تشخيصها ..
أصبحت تؤمن بوجود شخصيات سينمائية خيالية و تتحدث عنها بشكل دائم كحقيقة ..
و في تلك الأثناء تمكن العلماء من فهم سر تلك الطاقة الإشعاعية الهائلة التي تحيط بها ..
و التي تبين أنها مزيج من المادة و الطاقة معا و أنها ليست من بني البشر ..
استمرت المحاولات في فهم شخصية الحالة التي بدأت تهتم بالطعام و الشراب بطريقة غير طبيعية ..
كما أنها بدأت ترفض الحديث و تنفيذ الأوامر و الخضوع للمزيد من التجارب على أساس أنها تحتاج الى المزيد من الطاقة الموجودة بالأطعمة لمساعدة الرجل الخارق في إنقاذ البشرية ..
كانت صفحات الملف تتحدث عنها و كأنها من سكان الفضاء الذين تمكنت من إلقاء القبض عليها لأول مرة في تاريخ البشرية , كما أنها كانت تختلف تماما عن الحالة رقم ستة التي كان من بين خصائصها استشراف المستقبل و المناعة القوية ضد كل المؤثرات الخارجية على بنيتها , وكان القصد بتلك السطور .. هو الحـــكـــيـــم ..
كما أنها كانت مفتاح القوة التي طالما كانوا يبحثون عنها .. بخلاف الشيخ الذي لم تكن التجارب عليه تفدهم في بشيء يفهمونه على الأقل ..
وكل تجاربهم السابقة كانت على حشرات و حيوانات ثم البشر الذين يملكون مواهب و قوى خارقة ..
لكنها لم تُحدِث تغييرا جذريا بميزان القوة عندهم كما فعلت الأخيرة ..

ثم تحدثوا عن تمكنهم من فك شفرة الطاقة التي تحيط به فيزيائيا لصنع أقوى الأسلحة المتطورة و الفتاكة والتي تفوق في دمارها الأسلحة البيولوجية و النووية بناء على آخر ما توصّلوا له في علوم النانو تكنولوجي ...
كان وزن الحالة في ازدياد مستمر وسريع خلال الأشهر الثلاثة التي أمضتها بالجزيرة , و كان منع الطعام عنها سببا في غضبها و امتناعها تماما عن التعامل مع الخبراء المكلفين بدراستها الى أن أصبحت لا تقوى على الحركة ..
ثم تحدث الملف بتعجُّب كبير عن اختفاء الحالة رغم وزنها الهائل في ظروف غامضة , وكيف أنهم تمكنوا من رصدها بواسطة رُقاقة زرعوها بجلدها أثناء تجاربهم لتمكنهم من تحديد موقعها ..
و لم يكن الموقع سوى بيت صغير قرب الساحل بمدينة الرباط بالمغرب ..

كانت هناك علامات استفهام كثيرة و تساؤلات عن الطريقة التي غادرت بها الجزيرة .. وكيف حطّت الرحال بمدينة تبعد أكثر من ستمائة كيلومتر عن الجزيرة رغم الوزن الهائل و في وقت قياسي ..
ثم تعجبوا أكثر عندما علموا أني أنا الطبيب الذي سيشرف عليها ..
ذلك أن الحكيم كان قد أبرم اتفاقا معهم اشترط فيه التوقف عن محاولة قتلي , والسبب هو أنه اخبرهم أن لي دورا مباشرا في تحديد مستقبل الجزيرة و كل من عليها ..
ولأنهم يعلمون قدرة الحكيم على استشراف المستقبل , حاولوا قتلي مرارا دون نجاح و دون سبب يذكر عن فشل محاولاتهم , و لم يرفعوا يدهم عني إلا بعدما أخبرهم أنهم سيتمكنون من القبض علي دون مقاومة ..
ثم تحدث الملف عن القرار الذي اتخذه الدكتور هالي و علماء الجزيرة بترك الحالة دون تدخل لحين التوصل و فهم الطريقة التي غادرَت بها الجزيرة ..
و أيضا التمكن من إيجاد وسيلة ناجعة تمنعها من الهرب في المستقبل ..

فهمت ساعتها لماذا أصرّت ماريا التحدث عن حسن قبل أن أقرأ الملف ..
كان الأمر واضحا جليا ..
لقد كانت ماريا هي السبب في اختفاء حسن من الجزيرة ..

ثم توقفت عن القراءة لأسالها عن حسن ..

- كيف وجدتي حسن ؟ و ما الذي حصل هناك بالجزيرة ماريا ؟

كانت إجابتها مستفيضة و ردت على الكثير من التساؤلات التي كانت تدور بذهني ..

- لم أقرر مغادرة عالمي و إنقاذ أخي إلا بعد أن وقع في قبضة الجزيرة , لقد تجسدت في جسم شابة صينية كانت تعمل خبيرة اقتصادية لحساب المنظمة تعرضت لأزمة قلبية مفاجئة و لم يعلم الجميع بموتها , كان من الصعب علي أن أتحرك داخل الجزيرة كيفما شئت و بجسد قابل للموت في أي لحظة دون غطاء فعّال يساعدني على التجسس عليهم دون علمهم ,كان لزاما علي التخفي بستار شخص يعمل معهم .. كما أن عامل الوقت فيها ساعدني كثيرا , حيث كان بإمكاني مغادرة الجزيرة و العودة اليها دون أن يحسوا باختفائي .. يوجد حولها تحت البحر حزام كهرومغناطيسي عظيم تم البدء في ذلك المشروع منذ اكتُشفت , و استغرق بنائه أكثر من ثلاثين سنة , يستعمل الحزام في اصدار ذبذبات قوية لا يحس بها سكان الجزيرة تجعلهم يتحركون بسرعة خارقة تقترب من سرعة الضوء دون أن تتزحزح الجزيرة من مكانها , وهذه الخاصية تجعل من الوقت يبطئ و يحول الشهور داخل الجزيرة الى ساعات خارجها ..بعد اكتشاف الجزيرة من طرف المؤسسين الثلاثة تبين لهم أن من يدخلها ساعة من الزمن لا يخرج منها ثم اكتشفوا أن الزمن فيها غير الزمن خارجها , فكل من يخرج منها يجد أن ما تركه من الناس و الأصدقاء قد ماتوا لأن الوقت توقف عنده بينما يسرع بشكل رهيب خارجها , كان الغرض من هذا الاختراع هو الحياة الطويلة الأمد , كان الغرض من الحزام هو قلب الخاصية و عكسُها بحيث تكون الساعة بها تساوي الساعة خارجها لأنهم اكتشفوا جزيرة أخرى تدعى جزيرة الظلام داخل مثلث برمودا و التي كانت لديها نفس الخاصية , فأرادوا ترويض الجزيرة الأولى بحيث يتحكمون في الوقت كيف يشاءون و يستعملون الجزيرة الثانية لأغراض أخرى ..كل من يختفي بمثلث برمودا لم يختف حقا .. بل نحن من نسرع و نموت .. لأنهم سيعودون يوما ما بعد آلاف السنين

ليفاجئوا باختفاء الجميع .. تخيل أن لديك القدرة على السفر الى المستقبل .. أليس أمرا رائعا .. كل ما عليك أن تفعل هو أن تمضي بالجزيرة يوما أو يومين ثم تخرج منها لتجد أنك في سنة ألفين هجرية أو ثلاثة آلاف ميلادية .. أليس رائعا .. لكن لم يتغير الشيء الكثير بعد المشروع .. كان من الممكن العيش فيها بواسطة الحزام لأن صبيحة يوم بالجزيرة تكاد تعادل السنة .. و ظل الوقت هو الوقت .. يلتهم أجسادهم فيها ويفنيهم رغما عن أنوفهم و الدليل وفاة المؤسسين الثلاثة في عام واحد .. لقد بحثت عن عدو لهم يساعدني لإنقاذ أخي من قبضتهم فأشار علي الحكيم بعد أن تعرفت عليه بمنظمة ونيس.. كانت الوحيدة التي تحاربهم في عدّة جبهات بجميع أنحاء العالم .. لكنها لم تكن تعلم شيئا عن الجزيرة .. أخبرت أخي خفية عن أعينهم بالحقيقة وكررتها على مسامعه عدة مرات دون جدوى , ثم قدِمت به الى مدينة الرباط بحثا عنك بناء على طلب الحكيم الذي أخبرني أيضا أنك الوحيد الذي يستطيع مساعدته , وبعد أن وافقتَ على علاج أخي اتصلت بونيس و أخبرته بالقليل الذي كنت أعلم آنذاك عن الجزيرة , ثم عدت اليها قبل أن ينكشف أمري , لم أخبر أحدا بأصلي سوى الحكيم و الدكتور ونيس وذلك لأن الحكيم أخبرني أن بإمكاني أن أثق فيه ..

- فهمت الآن لماذا قال لي حسن أنه تعلم الكثير في صبيحة اليوم الذي اختفى فيه .. أظنه سُجِن بالجزيرة سنوات قبل أن أعود لإنقاذه ..
- لقد مرت سنة بالجزيرة خلال ذلك الصباح ..
- وماذا حصل بعد ذلك ؟
- أكمل قراءة الملف و ستعرف ..

عدت الى أوراق الملف البيضاء , كان الحديث فيها عني و المعلومات التي استقوها من خلال التجسس علي في بيتي و عيادتي و حتى السيارة , كما أنهم ذهلوا من الثقة التي أصبحت بيني و بين الحالة كما يسمنوها في وقت وجيز ..

كانوا يتساءلون عن السبب في فشل جميع علماء النفس عندهم في بناء جسور الثقة بينهم و بينها ..

ثم تحدثت الصفحات التالية عن تمكنهم من إيجاد طريقة للتحكم بها , كانت خلاصتها أنهم سيجارونها في وهمها قبل أن أتمكن من علاجها لكيلا يخرج الأمر عن سيطرتهم ..
ثم صفحات أخرى تتحدث عن عملية اختطافها من جديد للعودة الى الجزيرة بواسطة هيلوكوبتر صامت بينما كنت في طريقي اليها صبيحة ذلك اليوم الذي اختفت فيه .. كانت الحالة تعتبرهم من أنصار زود الشرير الذي يريد أن يدمر الأرض وحاولت مقاومتهم لكن وزنها لم يسمح لها بالكثير ..
فقط ذلك التلفاز الذي قذف بقوة اتجاه السقف بسبب غضبها ..
و كانت للمهدئات الكلمة الأخيرة قبل العودة ..
حاولوا بعدها إقناعها بأن زود الشرير سيهجم على الأرض قريبا و أن عليه الاستعداد لمساعدة الرجل الخارق في مهمته الانسانية ..
دفعتهم الرغبة في المزيد من التجارب الى إقناعها بضرورة العودة الى سابق أصلها قبل أن تُغير السمنة شكلها و الكثير من خصائصها التي كانوا يحتاجون .. وكانت الطريقة الوحيدة للوصول الى نتيجة مرضية هي الحِمية .. أقنعوها بأن الحمية و التخفيف من الوزن سيمكنانها من مساعدة الرجل الخارق في القضاء على زود الشرير .. كما أوهموها بأنهم سيحقنونها بمنشطات ستجعلها قوية بما يكفي للقيام بهذه المهمة النبيلة ..
ونجحت الخطة مرة أخرى وعادت الى المختبرات برضاها بعدما أوهموها بأنهم يريدون مساعدتها من أجل إنقاذ البشرية وليس كما كانت تظن في السابق ..
كانت البداية في تحديد عدد الوجبات اليومية من خمسة الى اثنان ..
ثم بدأ تغيير نوع الأطعمة تدريجيا من أطعمة مليئة بالدهنيات و السكريات مما تحب الى أخرى غنية بالفيتامينات و البروتينات ..
ثم شرعوا في حثها على القيام بتمارين بسيطة بالأيدي و الأرجل و بشكل يومي .. كانت رغبتها في إنقاذ بني البشر حافزا قويا لحثها على الصبر وبذل المزيد من الجهد ..
كانت الشهور الأولى كافية لتجعلها تفقد أكثر من ستين كيلوغراما دون أن تتحرك من مكانها مع استمرار تجاربهم التي لا تنتهي ..

ثم بدأت المرحلة الثانية التي كانت تتمثل في المشي و لو لبضع خطوات بمساعدة الممرضات المشرفات عليها ..
نقلت بعدها الى غرفة أكبر ثم أكبر لحثها على المشي أطول مسافة ممكنة .. لتتمكن بعد ذلك من الخروج الى الجزيرة و التحرك رغم مئات الكيلوغرامات التي مازالت تثقل كاهلها ..
ثم المرحلة الثالثة و الأخيرة و التي كانت تتمثل في منع و حجب الطعام عنها بشروط ..
كان علماء الجزيرة يعرفون جيدا أن الحالة لا تحتاج الى طعام لأن تركيبها يختلف تماما عنا معشر البشر ..
لكن الوهم الذي كانت تعيش فيه دفعها للاعتقاد بإنسانيتها و بالتالي الإيمان بحاجتها الى التغذية كما نفعل نحن ..
كان شرط الحصول على الطعام هو المشي لمسافة طويلة داخل أدغال الجزيرة حيث يوجد صندوق زجاجي يحددون موقعه مرة بعد مرة في أنحائها ..
كانوا يصفون لها ما يوجد بداخل الصندوق من أطعمة شهية قبل أن تتجه نحوه .. كان مجموع الطاقة التي يوفرها ذلك الطعام أقل مما تحتاجه الحالة للوصول الى مكانه لكي تفقد من الوزن أكثر مما ستجده هناك ..
وكان التأخر عن الوقت الذي كان الخبراء يحددونه يعني إغلاق الصندوق أوتوماتيكيا , مما كان يستدعي الإسراع قبل أن تعود خاوية الوفاض والنوم ببطن فارغة في ذلك اليوم ..
تحدث الملف عن محاولات فاشلة في بداية الأمر مما استدعى الخبراء الى تحديد وقت مناسب للحالة حسب وزنها الزائد ..
ثم بدأت المحاولات الناجحة في الإعلان عن نفسها يوما بعد يوم ..
كانت المسافة في بداية الأمر تتراوح بين الكيلومترين و الثلاث كيلومترات , كانت الحالة تستغرق وقتا لا باس به لأن خطواتها مثقلة بأكوام الشحم التي ما زالت تمنعها من الحركة بسهولة و يسر ..
ثم بدأت الخطوات تتسارع و الكيلومترات تتمدد و صارت الحالة تقطع عشرات الكيلومترات مشيا ..

ثم بدأ العلماء يحددون وقتا أصعب يوما بعد يوم لدفعها الى الجري إذا ما أرادت الوصول الى الصندوق الذي كان يغلق أحيانا قبل بلوغ الهدف بثواني معدودة ..
و بعد شهور أخرى بزمن الجزيرة كانت النتيجة تتحدث عن نفسها ..
أتبث علماء بني البشر أن الإرادة عندما تصل الى ذروتها لدى أي مخلوق فإنها تصنع المعجزات ..
لقد رأى العلماء بأعينهم كيف تحولت الخطوات الصغيرة البطيئة الى أخرى أســـرع ..
ثم أســـرع ..
ثم أكـــــبـــر ..
ثم أوســـــــــع ..
و أوســـــــــــع .. الى أن تحولت الى جـــــــــري ..
ثم الى هـــــرولـــة ..
ثم الى ســـــــرعـــــة ..
ثم الى ســـــــرعـــــــــة خـــارقـة ..

و عـــــــاد حـــــــــــســـــــــن ...
عـــــــاد الى صورته و هيأته التي تجسد بها أول يوم ..

لم يضيع علماء الجزيرة الوقت أثناء حمية حسن , لقد أخذوا كل ما كانوا يريدون منه ..
لقد فكوا شفرة قوته و الطاقة المحيطة به , لم يعلموا بأصله لكنهم توصلوا الى سر الطاقة التي يمتلك و فهموا أنها من عالم آخر تختلف قوانينه عنا ..
و أنهم لن يتمكنوا من نقل تلك الخصائص الينا معشر البشر , لكنهم بالمقابل يستطيعون صنع أسلحة أكثر فتكا من كل ما تمّ اكتشافه لحد الآن ..
لقد تلقفوا الطاقة حول حسن و فهموا لغزها فيزيائيا و صنعوا قنابل تفوق في دمارها الأسلحة البيولوجية و الذرية و النووية .. و تمكنهم من السيطرة على مقاليد العالم في لحظات ..

ثم تحدث الملف في صفحاته الأخيرة عن حيرة العلماء و الدكتور هالي على رأسهم عن مصير حسن الذي كان ينتظر حربا خيالية مع زود الشرير ..
و القرار الذي اتخذوه بالإجماع و الذي كانت نتائجه غير متوقعة ..
لقد اتخذوا قرار تغيير قناعة حسن بالقوة عبر كراسيهم البيضاء و إشعاعاتهم التي تؤثر في مخه و الغدة الصنوبرية خصوصا ليتمكنوا من استخدامه لصالحهم في معاركهم المستقبلية .. كان حسن يظن أنه إنسان وكانت هذه الحقيقة التي يؤمن بها هي السبب في جعل الطعام يؤثر فيه بشكل ملحوظ ..
إذن ما الذي كان سيمنع الإشعاعات من أن تؤثر على دماغه و غدته الصنوبرية ؟
كان هذا هو تشخيصهم العلمي للتجربة التي كانوا ينوون القيام بها ..
كانت مشكلة حسن أنه يريد إنقاذ البشرية التي يرغبون في محوها لصناعة أخرى جديدة ..
لذلك قرروا تغيير الفكرة في دماغ حسن رغما عنه ..
لكن تغييرا كهذا كان يحتاج للقضاء على المبدأ الأم ..
كان حسن يؤمن بالله .. و يوم الحساب .. كان حسن مؤمنا..
وكل من يؤمن بيوم الحساب لا يستطيع أن ينفع منظمة ترغب في قتل ملايين البشر ..
لذلك كانت الخطوة الأولى هي تغيير عقيدة الإيمان بالخالق الأوحد ثم بعد ذلك جعلِه يؤمن بأن زود الشرير الذي يعشعش بمخيلته صديق للبشرية ..
و إنما يريد إفنائها لصالحها حتى يتمكن من استخلاف أخرى خير منها ..
كان الأمر يستغرق شهورا على الكراسي البيضاء عند البشر الذين يتم غسيل أدمغتهم ليعاد صياغة فكرهم من جديد ويصبحوا بلا روح ..
كان من اللازم ضخ الكثير من العلم و الأبحاث من شتى المجالات في مخ الشخص المطلوب غسل دماغه في الشهور الأولى حتى يسهل إقناعه علميا و بالأدلة القاطعة حسب قولهم بعدم وجود إله خالق للكون ..
ثم يقتنع بعد ذلك بما يشاءون ..
كان الملف يتحدث بإسهاب عن عدم فهم العلماء للظاهرة التي حصلت مع حسن ..

لقد انهى تعليمه في أقل من عشرة أيام .. وتمّ ضخ المزيد و المزيد من العلوم ..
فلسفة ..
فيزياء وفلك ..
اقتصاد ..
هندسة .. طب .. كل شيء .. على هواهم و بهواهم ..
لقد التهم كل شيء في غضون أيام ليصبح أذكى و أعلم من أي شخص على ظهر الأرض في أيام ..
أصبح حسن يجمع في أيام بين العلم الذي يرغبون به للبشرية الجديدة و القوة الهائلة ..
ثم تحدث الملف عن انـــفـجـــار الكرسي في اللحظات الأخيرة من التعليم الذي تلقاه أمام ذهول العلماء ..
كانت هذه هي العبارة التي وصف بها أحد العلماء الذين شاهدوا ما حصل ..

- لقد رأيت ملابس الحالة تتمزق من عليها الى أن أصبحت عارية تماما .. كان جلدها يرتعش ثم بدأ بدنها يتدرج و يتعرض للاعوجاج و كأن بها شيئا ما يحاول الهروب أو الخروج منها .. ثم رأيتها تصرخ بأعلى صوتها من شدّة الألم وترفع رأسها و تفتح فمها عاليا ليتسع بشكل رهيب قبل أن تخرج منها ببطء شديد أصابع إنسان آخر.. ثم يد .. ثم ذراع بأكملها .. كانت الذراع سمينة بشكل ملفت و الحالة مستمرة في الأنين و الألم .. ثم اتسع فمها ببطء شديد ليصبح دائرة عظيمة دون أن تتمزق جثتها .. ثم خرجت منها الحالة التي عادت الى صورتها القديمة قبل الحمية .. عادت الى سابق وزنها .. وجهت إلينا نظرات اشمئزاز و قرف قبل أن تضرب برجلها بقوة و تطير عاليا لتخترق سقف المختبر .. لكنها تركت الجسم الذي كان يحملها والذي عاد الى شكله الطبيعي بألم و أنين دائمين ..

كان بجنب الصفحة ما قبل الأخيرة في الملف جيب صغير بداخله صورة مقلوبة مكتوب عليها .. الحالة قبل و بعد الحمية ..
وضعت يدي عليها لأرى حسن حين تجسد أول مرة ..
كانت يدي ترتعش قليلا و هي تمتد للصورة ..
لم يخطر ببالي لحظة منذ عرفت حسن و أن تساءلت عن شكله قبل أن يصبح سمينا ..

أمسكت الصورة و أدرتها ببطء و كأن بها ثعبانا سيلدغني ..
ثم وقـــــعَـــــــت فورا من يدي و كأن الثعبان لدغني فعلا عندما رأيت محتوى الصورة ..
وفهمت الحـــــكـــــيـــــم و عرفت ما الذي حاولوا إخباري به جميعا .. ماريا .. ونيس ..

كان حـــــســـــن هو جـــــــاك في الصورة قبل الحمية و بعدها ..
جاك هو أخ ماريا الحقيقي ..
كان ذلك هو الاسم الجديد الذي اختارته له المنظمة بعدما حصل من انفصام في شخصية حسن بفعل إشعاعاتهم ..
لقد حاولوا جعله يكفر بربه ..
وكان رفضه القوي للفكرة هو السبب في انشطاره الى نصفين ..
عندما يحدث ذلك عندنا معشر البشر تعيش شخصيتان داخل واحدة في جسد واحد ..
لكن عندما حصل هذا مع الجني حسن .. انشطر الى قسمين و جسدين ..
لم أفهم أن حسن كان يريد مني إنقاذه من سوء نفسه التي أيقظ علماء الجزيرة دون علم منهم ..
وعلمت بأن بإمكاني أن أنقذ حسن و أقضي على جاك ..
لن يحتاج مني الأخير الى القوة لأقضي عليه ..
بل الى الذكاء و الفطنة ..
أنا طبيب حسن .. و بالتالي فأنا طبيب جـــــاك رغما عنه ..
والمطلوب مني هو معالجة جـــــاك لإنقاذ حسن و إعادته الى أصله ..

ثم سألت ماريا عن الحكيم الجن .. يجب أن أفهم لغز الحكيم الجن ..

- لماذا لم يتدخل الحكيم للقيام بهذه المهمة .. أليس الحكيم جنيا قويا بما يكفي لتنفيذ المهمة ؟

وكانت الإجابة مبهمة رغم وضوحها كما عهدت من ماريا ..

- أنا لم أخبركَ قط بأن الحكيم جني .. إنه بـــــــــشـــــر مثلك يا عماد . .

<u>بـــــــــســـــم ربّ الكون</u>

لم أستسغ ما سمعته من جديد على لسان ماريا ..
نوح الحكيم من بني البشر .. كيف يُعقل ذلك ؟
كان من البديهي أن أستفسر عن الأمر في الحال لأني لم أعد أتحمل المزيد من الألغاز ..

- و كيف يُعقل أن يكون نوح بشرا ؟ لقد استوعبت أن يمتلك معشر الجن قدرات خارقة تفوق بكثير ما يستطيع أن يقوم به الإنسان لأن ديننا و كتابنا تحدث عن ذلك .. لكن لا علم لي ببشر يملك قوة العجوز نوح .. الحكيم .

كان قدري أن تكون الإجابات على أسئلتي مبهمة من الجميع منذ بدأَت قصتي مع الجزيرة .. أما إذا كان الجواب واضحا وصريحا فكانت الظروف غالبا ما تمنعهم من إتمامه كما حصل عندما أرادت ماريا أن تشرح لي لغز الحكيم و تقول ..

- نعم صدقت .. نحن معشر الجن نمتلك الكثير من القدرات الخارقة بالنسبة لكم , لكنها دون أهمية تذكر لدينا لأننا أقدم منكم بأحقاب كثيرة .. و من الطبيعي أن نتفوق عليكم في الكثير من الأمور التي سبقناكم لها و من الطبيعي أيضا أن تبدو لكم تلك القدرات خارقة وعجيبة معشر البشر , مشكلتكم تكمن في قصور عِلمكم و فهمكم لمدى الاختلاف الكبير بيننا و بينكم , ولكنكم تنسون عدل الله في خلقه بل و تفضيله إياكم..

لم يسبق على حد علمنا و أن طلب ربنا عز و جل من ملائكته أن تسجد لأحد سواكم , أمّا الحـــــكـــــيـــم ...

توقفت ماريا عن الحديث هنا و استدارت فجأة عن يمينها ورفعت يدها و كأنها تريد أن تمنع حدثا من الوقوع ثم صرخت بقوة قبل أن تخرّ أرضا على ركبها بغرفة حسن الصغيرة والدموع الحمراء تنهمر على خديها بغزارة ..
كانت علامات الصدمة و الحزن جليّة على وجهها النحيف قبل أن تنظر اتجاهي و تقول بأسى شديد ..

- يا إلهي .. لقد وافقوا على طلب الحـــــكـــــيـــم ..

لم أكد أنطق بكلمة لأفهم ما الذي حصل حتى أمسكت ماريا بيدي بقوّة قبل أن تغمض عينيها الواسعتين لننتقل الى قلب الجزيرة حيث رأيت مشهدا آخر لم أستوعب أحداثه إلا بعد أن انتهى كل شيء ..
كانت الجزيرة الصحراوية حيث يوجد الحكيم ممتلئة عن آخرها بالجنود المدججين بالأسلحة و خلفهم العشرات من طائرات الهيلوكوبتر و الآليات العسكرية الضخمة التي تحيط به من كلّ جانب ..
كان الدكتور هالي و العديد من مساعديه يقفون خلف سور من العساكر الذين يرفعون أسلحتهم في وجه الحكيم .. وخلفهم مباشرة كل العاملين بالجزيرة من علماء و أطباء و مهندسين و مخترعين و كأنهم مدعوون لمشاهدة ما سيحصل ..
كل من كان يحتفل بِعيد الربيع كان حـــــاضـــــرا ..
كان يتقدّم العساكر جندي وحيد يحمل مسدسا صغيرا بيديه و يوجه فوهته الى رأس الحكيم ..
كنت أبعُد و ماريا عن الحكيم و جاك بعشرات الأمتار خلفهما ..
كان جـــاك لا يقوى على الحراك كما تركته .. كانت علامات الذل و الهوان ظاهرة جلية على محيّاه لا تخطئهما عين ..
وقبل أن أتقدم خطوة واحدة اتجاه الحكيم ..

صرخ الجندي بأعلى صوته حتى انتفخت أوداجه و قـــــــال و بقوّة ..

- بـــــــســـــــم رب الكون .

ثم أطلق النار من مسدسه الصغير على رأس الحكيم ..
صرخت ماريا بقوة هي الأخرى عندما رأت المشهد و لم أفهم ما حصل إلا بعد أن سقط الحكيم أرضا جـــــثـــــة هـــــامـــــدة ..
الحـــــــكـــــــيـــــم .. فـــــارق الحياة ..
اختفت ماريا بجنبي و ظهرت قرب جثة الحكيم و هي تبكيه و تصرخ في وجه الجندي الذي أطلق النار ..

- لقد قتلتم الحـــــكـــــيـــم أيها الأوغـــــــــــاد الأغـــبـــيـــــاء ..
لقد قتلتم ولـــــــيّـــــاً من أولـــيـــــاء الله..

قبَّلت يـدَهُ الصغيرة و وضعت رأسه على ذراعها ثم اختفيا معا قبل أن يقع جاك أرضا ينفض رمال الصحراء من على قميصه و سرواله و هو يئن من الحسرة و الذل ثم يصرخ بأعلى صوته و هو يشير بيده اليّ والغضب يلتهم وجهه ..
ثم سمعت الدكتور هالي يصرخ هو الآخر من بعيد ...
- جـــــــاك .. احذر منه جـــــاك .. لا نعلم ما الذي دار بينه و بين الشيخ ..
إذا تمكن الطبيب منك فسيشكل خطرا على الجزيرة ..
لم يصغ جـــاك الى الدكتور هالي و لم يلق له بالا , كان يريد أن ينتقم لنفسه من الإهانة التي تلقاها من الحكيم ..
لقد منعه غضبه من تنفيذ أمر هالي ..
اتجه جاك نحوي بسرعة خارقة ..
وقف برهة ينظر الي بغلٍّ و حقد قبل أن يفتح فاه و تحمرّ وجنتاه و ينتفخا وكأن بهم نارا و لهبا .. فهمت أنه يريد أن يَـــحـــرقـــنـــي كما أحرق الحكيم قلبه ذلّا ..
كنت متأكدا من أنه لن يتوانى عن قتلي , لكن الأمر كان مختلفا هذه المرة ..

كنت أعلم عنه الكثير ..
علمت ما يحدث بالجزيرة ..
علمت ما حدث لحسن ..
علمت مراد القوم هنا بالبشرية ..
علمت أني سأدمرهم ..
لأنّ العـــــلـــــم هو الـــــقـــــوّة ..
و الأهم من هذا كلّه أني فهمت قصد الـــحـــكـــيـــم ..
لعنة الحكيم

رفعت يدي ببطء شديد و ثقة لم أعهدها في نفسي ما حييت ..
أسهمت بنظري اتجاه عيني جـــــاك و أنا أبتسم قبل أن أضع أصبعي على شفتيه كما فعل الحكيم لتخمد النيران في فمه بسرعة أمام ذهوله و يتوقف عن الحركة ..
لم تكن قوتي السبب في منعه من إتمام ما كان سيقدم عليه ..
كان خوفه من أن تتكرر مأساة تجمده مرّة أخرى هو السبب ..
ثم بدأت معركتي مع جاك و منظمة الجزيرة التي تقرر مصائر البشر دون حسيب أو رقيب ..
أمر الدكتور هالي سور الجنود أن يُفسِح له الطريق .. تقدم نحونا بخطوات سريعة خائفا مذعورا ثم أمسك بذراع جاك وهو يصرخ ..

- جاك ؟ جاك ؟ جاك ؟ تحرك جاك .. قل شيئا ..
استدار جاك نحوه ببطء و الخوف يستحوذ على شفتيه الصغيرتين و هي ترتعد قبل أن يقول ..
- نعم دكتور .. أنا .. أنا .. أنا أستطيع التحرك ..
- إذا ما الذي حصل .. جاك ؟
- لا .. لا أدري .. لكن العجوز قام بنفس الحركة .. ظننت أنني سأتجمد ..

كانت فرصتي الأخيرة للأخذ بزمام الأمور ..
لأنّ قوتي تكمن في الجهل الذي كان يستحوذ عليهم اتجاهي ..

والجهل هو مفتاح الباب الذي كان سيُطلُّ عليّ منه النصر ..
كانت سرعة البديهة ضرورية بعد توفيق الله في الحرب ضد جاك و الدكتور هالي و كان لزاما علي أن أقود أنا سير المعركة حيث أريد عندما بدأت بالتحدث اليهم ..
فلم يسبق لهم و أن شاهدوا الدكتور كـــوفـــي عـــمـــاد الجديد يحدثهم و هو في أوج قـــوّتـــه و يـــــــقـــــــول ..

- أنـــــــا الدكتور عماد و لست العجوز الطيب .. أنا تلميذه الذي سيدمركم جميعا .. لكني لن أفعل الآن .. طلب مني الحكيم الطيب أن أمنحكم فرصة أخيرة قبل أن أغرقكم جميعا هنا ..

كنت أتحدث الى جاك و الدكتور هالي المذهولين من خطابي و أنظر اتجاههم باحتقار و اشمئزاز و كأني أنفذ رغبة الحكيم رغما عني ..
تحرك جاك خطوة و كأنه يريد أن يبارزني فأمسك الدكتور هالي به وقال ..

- هلا أخبرتنا بالذي كان يريده العجوز منك ؟

أجبته مبتسما و الثقة تتخلل كلماتي ..

- لقد أطلعني العجوز على سِـــــــــــرّهِ الذي سأدمركم به بعد أن أدعوكم الى الاستسلام .. صـــــراحـــــة .. أنا لا أرغب في أن تستسلموا .. أريد من هذا الغبي أن يهاجمني الآن لِينتهي أمركم جميعا و حالا لأكون بذلك قد نفّذت وصية الحكيم .. لقد أخبرته أني لن أصبر عليكم مثلما صبر إذا ما حاولتم أو فكرتم بالمقاومة , لأن ما رأيته هنا بالجزيرة يعطيني الصلاحية لأن أرمي بجزيرتكم بأكملها قرب الشمس .. و أظنك دكتور تعرف كم تبلغ درجة حرارة الشمس ..

تراجع جاك دون أن يطلب منه الدكتور هالي ذلك ..
لقد أدخلت الذعر الى قلبيهما و جعلتهما يوقنان بقوتي .. لكن ذكاء الدكتور هالي لم يكن ليقتنع حتى يرى الدليل القاطع الذي يؤكد صدق حديثي .. ثم سألني بعد أن صمت لثواني معدودة أمام استغراب جاك ..

- سنستسلم جميعنا دكتور عماد .. و سنفعل كل ما ستطلبه منا , لكن أنت تعلم دكتور .. لا يمكنني أن أقنع الجميع هنا بالاستسلام و مغادرة الجزيرة فقط

لأنك تهددنا بالحرق جميعا ..و منظمتنا أكبر من أن يقرر مصيرها شخص واحد, يجب أن تثبت لنا صحة قولك , يجب أن تثبت لنا أنّ لديك فعلا من القوة ما سيجعلنا نستسلم ..
كان ردا ذكيا و منتظرا من الدكتور هالي الذي كان يبتسم بمكر و هو يتساءل عن قوتي ..
فأجبته و أنا أبتسم باحتقار مقصود...

- أفهم أنك تريد المزيد من الوقت دكتور هالي لحين صعقي بشعاع الليزر القادم من السماء أو حرقي بأسلحتكم الذكية .. كـــــــم أرغـــــب في أن تقوم بذلك .. لأني أتحرق شوقا لقتلكم و لا أحب فكرة استسلامكم .. غفر الله للحكيم .. لولا عطفه عليكم لكنتم في عداد الموتى الآن .. لكن لا بأس سأريكم القليل من قوتي و أتمنى أن لا تصدقوني لتفهموا أني لا أطيق وجود أمثالكم على هذا الكوكب .. لن أكتفي بحرقكم ساعتها .. بل سأستمتع بعذابكم قبل النهاية الحتمية التي تنتظركم ..
تحركت يمينا بخطوات هادئة نحو الجندي الذي أطلق النار على الحكيم , كان ما يزال واقفا في المكان الذي أطلق منه الرصاصة حيث سمع حوارنا كاملا , وقفت بجانبه ثم نظرت الى الدكتور هالي قبل أن أقول ..
- ها هو دليلك دكتور .. سيموت هذا المرتزق بعد خمس دقائق إذا ما بقي واقفا هنا .. أمّا إذا تحرك خطوات من هذا المكان الطاهر الذي قتل فيه الحكيم فسأجعله رمادا و أخلطه برمال الصحراء الدافئة ..
ذعر الجندي و ارتعدت فرائسه و تحرك خطوة محاولا الهرب لكنه توقف فجأة عندما تذكر أني سأحرقه ثم بدأ يصرخ في مكانه ..
- لكن لماذا ؟ لماذا ؟ أنا لم أنفذ سوى الأوامر ..
حدّقت في عينيه المرعوبتين و قلت بهدوء و أنا أبتسم بمكر ..
- و أنا أيضا أيها المجرم ..
لم ينطق الدكتور هالي بكلمة واحدة .. كان يرميني بنظرات تعجب و علامات الحيرة و القلق تبدوا على ملامحه ..
لم يكن مسموحا بأن أترك لهم مساحة من التفكير في تلك المعركة النفسية فبادرتهم بالحديث ..

- ما هذه الضيافة دكتور هالي ؟ يجب أن تأمر جنودك و علمائك بالحضور للمشاهدة و الاستمتاع بموت هذا الجندي .. سيكون عرضا ممتعا و سيستمر لخمس دقائق للمزيد من المتعة ..

لم يحرك هالي ساكنا , كانت ثقتي بنفسي مدمرة لدرجة أن غضب جاك اختفى جرّاء الخوف الذي اعتراه ..

تحركت نحو الجنود و كل الحضور خلفهم و صرخت فيهم و أنا أشير بيدي اليهم للتقدم نحوي قبل أن يرفع أحد الجنود رشاشته الآلية و يصوبها نحوي فيصرخ الدكتور هالي بقوة ليمنعه من ارتكاب تلك الحماقة التي قد تكون السبب في اختفائهم جميعا ..

كانت خطواتي نحو جماهير علماء الجزيرة تفتح باب سور الجنود الذين كانوا يقفون أمامهم ..

- هيا .. فليتقدم الجميع الى هنا حيت ستشاهدون الجندي الذي قتل العجوز يموت بدوره , خمس دقائق من المتعة .. سيكون عرضا رائعا .. هيا .. ستشاهدونني أضغط قلبه بيدي دون أن أقترب منه أو ألمسه .. لقد طلبوا مني أن أريهم قوتي .. تقدموا لمشاهدة سيرك القوة ..

تقدم الجميع خلفي بخطوات بطيئة و حذرة ..

ثم عدت الى حيث يقف الجندي الذي بدأ يتصبب عرقا و ابتسمت في وجهه ثم اقتربت من مسامعه لأقول ..

- لقد نسيت أن أخبرك أنك إذا حاولت الهروب من هذا المكان المقدس فسأحرقك بنار ستأكل لحمك لساعات قبل أن تفارق الحياة .. أنصحك بأن تقبل موتك مختنقا ..

خرّ الجندي أرضا أمام ابتسامتي القاتلة ثم عدت نحو جاك و الدكتور هالي .. و أمرت الأخير أن يصرف عنا طائراته و آلياته العسكرية من الصحراء في قلب الجزيرة لأنها تستفزني و كذلك لخشيتي من عدم الوفاء بعهدي للحكيم حيث قد أحرق الجميع إذا ما قام غبي من جنوده بإطلاق النار علي أو ما شابه ذلك ..

أمر الدكتور هالي جميع الطائرات و الآليات بالمغادرة و لم يبق على ظهر البقعة الصحراوية في قلب الجزيرة سوى الشباب من علمائها من نساء و رجال كوّنوا حلقة كبيرة حول الجندي الذي وعدتهم بموته بعد لحظات ..

كان هالي يمسك بذراع جاك و يشاهدان معا الجندي و هو يبكي في مكانه يئن خوفا من الموت الذي سيأخذه نحو المجهول ..
خيّم صمت قاتل على الحلقة العظيمة التي لم يكن يُسمع فيها سوى أنين الجندي القاتل و الجميع ينتظر موته و كيف سأعصر قلبه أمامهم ليتأكد الدكتور هالي و الجميع من القوة الهائلة التي أصبحت أمتلك بعد أن وهبني الحكيم ســـرّه ..
كانت الدقائق تمر بسرعة حسب توقيت الجندي و تبطئ عند كل من يشاهد عرض الموت المباشر ..
كانت رؤوسهم كأعمدة خشبية على كلّ منها طير أسود.. الموت
لم تتحرك تلك الرؤوس و لم ينبس أحدهم بكلمة حتى بدأ الجندي يـــتـــخـــبـــط و يـــــصـــــرخ في مكانه الذي أخبرته أنه سيموت به و هو يستغيث من حوله أن ينقذوه ..
ثم أخذت عيناه تنتفخان و بدأ لون وجهه يتغير من الأصفر الفاتح الى الأحمر الداكن ثم بدأت الأوردة بعنقه تنتفخ لأن القلب توقف عن ضخ الدماء نحو الدماغ جراء الاختناق الموعود .
رفعت ذراعي أمام تلك الجماهير و أشرت لهم بأصابعي الخمسة ثم وجهتهم نحو الجندي قبل أن أقبضهم الي وأعصر قلبه ليتوقف عن الحركة و أكون آخر شخص يراه قبل أن يـــــــــــــمـــــــــــوت .

الدكتور كـوفي عماد

عمّ صمت رهيب الأجواء أمام مصرع الجندي و بدت علامات الذهول و الخوف معا على الجماهير التي شاهدت عملية قتل مباشرة لأحد مرتزقتهم من طرف شخص يدّعي أن بإمكانه تدمير الجزيرة بأكملها , كان الدكتور هالي ينظر الي بتركيز كبير و عرفت أنه يحاول إيجاد مخرج للورطة التي وضعهم فيها الحكيم , أما جاك فقد اختفت من ملامحه الوسيمة كل أمارات الغضب و المقاومة ذلك أن القدرة على قتل شخص بعيد عنه بعشرات الأمتار لا تندرج ضمن قدراته الخارقة و كان الجهل ببقية ما أملك من قوّة يمنعه من الحركة أو المقاومة , فقد أخسف بهم الأرض أو أرمي بهم جميعا نحو الشمس كما ادعيت , كانت الحرب النفسية على أشدها و كان مفتاح النصر فيها هو جاك ... إذا تمكنت من القضاء على جاك فسأقضي على البقية بسهولة .

تقدم الدكتور برنارد هالي نحوي بخطوات قصيرة و هادئة ليحاول السيطرة على الموقف الذي ما زال مشتبها عليه ثم بادرني بالحديث ..

- لا أعرف كيف تمكنت من الاطلاع على مختبراتنا , لكن يجب أن تفهم دكتور عماد أن ما نقوم به ضروري لإيجاد الحلول الناجعة و السريعة لإصلاح البشرية لا تدميرها ..

فهمت من نبرته أنه سيحاول إقناعي بوجهة نظره كما فعل في لقائنا أول مرة الى حين تمكنه من إيجاد نقطة ضعف أو أي وسيلة تمكنه و جنوده من القضاء علي قبل أن أصبح خطرا على جزيرتهم , لكنه كان يجهل أن هدفي شبيه بهدفه , لم يكن في نيتي أن أقنعه .. بل كان هدفي هو إقناع جاك ..

و لكي أتمكن من ذلك كان علي إظهار المزيد من الثقة بالنفس ..

- أنا أختلف معك و مع منظمتكم المزعومة و أرى أن من الممكن أن ننقذ البشرية بطرق عدة مغايرة لنظرتكم الخاطئة ..
- و ما هي الطريقة الأمثل في نظرك لإنقاذ هذه البشرية المتعصبة ؟
- لن أخبرك بالطريقة و لكني سأخبرك بالخطوة الأولى لإنقاذها ..
- هل بإمكانك أن تخبرنا بخطوتك الأولى ..
- نعم .. أكيد .. الخطوة الأولى هي أن أدمركم و جزيرتكم ثم أبحث عن منظمتكم و جنودها و رؤوسها المفكرة للقضاء عليهم فردا فردا ..
- لماذا تصرّ دكتور على ترهيبنا و تهديدنا .. ألا يحرّمُ دينك مثل هذه التصرفات ؟

اكتشفت أني ممثل بارع عندما ضحكت بجنون حدّ القهقهة لأزيد من توترهم جميعا قبل أن أجيبه ..

- الآن .. الآن علمت أن ديننا يحرم إرهاب الناس .. أليس من أجل مثل هذه العقائد تريد قتل الملايين ..
- نحن نريد أن ندمر من أجل البناء وليس فقط من أجل التدمير .. نريد صناعة مجتمع جديد يكون فيه المعيار الأهم هو الجودة .. جودة العقول المفكرة و العلم الرشيد الذي سيقود الإنسانية الى مستقبل أفضل .. نريد أن نعلم أطفال المستقبل الجديد أنهم متشابهون .. نريد منهم أن يتحدثوا لغة واحدة .. نريد لهم لباسا موحدا بحيث لا يشعر أحد أن الآخر أفضل منه .. نريد مجتمعا بدون كذب .. نريد مجتمعا نختار فيه للفرد وظيفته التي سيعطي فيها أفضل ما لديه من أجل البقية ..
- لقد أطلعني الحكيم على السر الأعظم الذي من خلاله سأنفذ كل ما ذكرت بالحرف .. لكن على خلفية عقدية.. سأجبر العالم كله على السجود عدة مرات في اليوم أو حضور القداس بشكل منتظم .. سأجبره على الصوم و الزكاة .. سأجبركم على الإيمان بالله قسرا ..
- ما هذا الهراء دكتور عماد ؟ كيف يمكن أن تُجبر الناس على الإيمان بما لا يقتنعون به ؟
- سأتبع طريقتك في التغيير .. القـــــوة .. سأجبر الجميع على الإيمان بالقوة .. و سأبدأ منك أنت أولا ..
- ما الذي تقول دكتور ؟ لا يمكن أن نؤمن بما يخالف فكرنا و معتقدنا ..

- حسنا .. هذا ما ستفعل شئت أم أبيت .. أنتم لا تعلمون مدى القوة التي تكمن في سر الحكيم .. و أظن أني سأقبل باستسلامكم شرط أن تنفذوا ما سنأمركم به الآن ..
- أرى أنك صرت تتحدث عن نفسك بصيغة الجمع .. لقد صِرت تحسب نفسك من الآلهة ..
- صحيح .. فعلا .. القوة التي منحني الحكيم عبر سره تعطي الإحساس بالخلود .. و الخلود لا يكون إلا للآلهة .. و حق الآلهة أن يَسجُد لها عبادها .. و هذا هو طلبي الأول لأسمح لنفسي بأن أقبل استسلامكم .. و أنت دكتور هالي ستكون أول الســـــــاجـــــديـــــن .. ثم سيسجد الجميع هنا لي إذا أحبوا رؤية طلوع شمس الغد عليهم ..

كنت أشير للجميع بأصبعي رافعا ذراعي أرسم دائرة بجسمي لتصل الرسالة الى الحلقة بأكملها .. ثم وقفت برهة أنظر جهة الدكتور هالي نظرات ملئها الجِدّ و انتظار تنفيذ الأمر و السجود ..

عم الصمت ثواني معدودة الحلقة مرة أخرى قبل أن أصـــــــــرخ بكل ما أوتيت من قوّة في وجه الدكتور هالي و آمره بالسجود فورا و أهدده بنزع قلبه حيا إن رفض ..

كانت نظراته تحمل الخوف و الرهبة مع الرغبة في التحدي .. و كان التردد جليا على حركات جسمه .. لكن الكلمة الأخيرة كانت لكبريائه ..

لقد امتنع عن السجود لشخصي و وقف متسمرا يملأه التحدي لطبيب لطالما اعتبره فأر تجارب مستقبلي ..

التفت نحو الحلقة التي كانت تنتظر ردة فعلي بخوف ثم رفعت ذراعي اليمنى عاليا و أشرت بسبابتي الى السماء و كأني سأنزل العقوبة على الجميع بسبب رفض الدكتور هالي السجود لي ..

انتظرت قليلا ..

ثم بدأت بتحريك شفتاي أمام الجمع دون أن أصدر صوتا ..

ثم وجّهت نظرات حادة للجميع ثم ابتسامة ماكرة مفادها أني سأستمتع بقتلهم جميعا قبل أن يـــــســـــــــجـــــــد أولهم في أقصى الحلقة ..

ثم الثـــــــــــانـــــــــي ..

ثم الثـــــــــــالـــــــــــث ..

و الـــــــــــــــــرابـــــــــــع ..
لقد كان الخوف من الموت أقوى من دهائهم ..

و ما هي إلا لحظات حتى خرّت المئات ساجدة لتتساقط الحلقة كأوراق الشجر بأول أيام الخريف أمامي بأكملها ثم تتبعها دموع الدكتور هالي على تجاعيد وجهه بقلب تملأه الحسرة و هو يـــــــســـــــجـــــــد للدكتور كوفي عماد أمام ذهـــــول حـبـيـبـتي مـــاريـــا التي عادت لتنقذني بعد دفن جثمان الحكيم الطاهر بعيون تتلألأ سعادة بعد الحزن ..
لقد أبصرت و هي تطفو في السماء كل سكان الجزيرة ساجدة لي ...
لقد رأت ما أخبرها به الحـــــــكـــــــيـــــم ..
رأت قـــــوتي التي لطالما تحدث عنها..

الصفحة الأخيرة

تقدمت ماريا اتجاهي وعلامات الإعجاب و الحيرة جلية على ملامحها في وقت واحد , و اتجهتُ بدوري نحو جـــاك الذي خرّ على ركبتيه دون أن يسجد و مددت يدي نحوه و أمرته بلطف أن يمسك بذراعي لأساعده على الوقوف .. ثم قلت له أمام اندهاش ماريا المستمر من المشهد ..

- لا أحبذ فكرة أن تسجد لي .. لطالما نسبتَ إلي صفة الغباء منذ عرفتك دون أن أردّ مرة واحدة على وقاحتك .. لذلك فأنا لا أرغب بسجودك بقدر رغبتي بأن تعترف أنك أنـــــت الغـــــبـــــي .. بل أنت أغـــــبـــــــى من يوجد على سطح هذه الجزيرة .. ما رأيك ؟

كانت عيناه تكاد تنفجر من شدّة الغضب و الحسرة على عدم امتلاكه القوة التي وهبني إياها الحكيم قبل أن يسألني بحقد و غلّ يملأن صدره ..

- ما الذي أخبرك به الحكيم يا هذا ؟ ما الذي مكنك من القضاء على الجندي دون أن تلمسه ؟

أجبته و الابتسامة لا تغادرني ..

- أنظر كيف جعلك الغضب غبيا أكثر من دي قبل .. كيف أخبرك بسر عظيم كهذا .. إنه السر الذي جعلك تتسمّر لساعات في مكانك بينما كان الحكيم يشرب كوب الشاي الذي طلب منا .. لكن لا بأس .. سأخبرك به إذا ما أثبتتَ لي أنك لست غبيا ..

كنت أتعمد نعته بالغبي كلما واتتني الفرصة لأجعله يقبل بمناظرتي لكي يدفع عن نفسه الصفة الجديدة التي سيصبح هدفه التخلص منها و أُبعِدهُ عن التفكير بالعنف و المقاومة بالقوة ..

تقدم خطوة نحوي و سألني بهدوء لأتأكد ساعتها أني قد نجحت فعلا في دفعه للنقاش و الحوار بدل القتال و المبارزة و يكون بذلك قد حكم على نفسه بالموت ..

- لماذا تنعتني بالغبي ؟ هل تظن فعلا أنني غبي ؟ هل تؤمن بما تقول يا هذا ؟
التفت جهة ماريا أمام استغراب جاك و طلبت منها رغم المشهد الذي كان لا يزال ملتبسا عليها بأن تحضر لي قهوة من مدينة فينيسيا الإيطالية و شمسية تقينا حر الشمس و ما يلزم للجلوس و الاستمتاع بالحديث مع الغبي الذي يقف أمامي , ثم أمرتها بعد أن قامت بتحضير جلستنا الشاطئية في ثوان معدودة و الفضول يعتصرها لفهم ما يحصل أن ترمي كل من يرفع رأسه من الساجدين بفوهة (مونا لوا) أكبر بركان نشط في العالم بجزيرة هاواي ..
ثم أشرت الى الدكتور هالي و أمرتها مرة أخرى بأن تراقبه أكثر من سواه و أن لا تقذفه في النيران إذا ما رفع رأسه ..
بل ستكون مصانع العطر و الصابون مصيره ..
جلست على أحد الكراسي تحت الشمسية التي أحضرَت ماريا بهدوء و ثقة و دعوت جاك مرة أخرى بالغبي ليجلس حتى أثبت له غبائه , ثم بدأت حصة العلاج المجانية التي ستختفي الجزيرة بسببها ..
- لقد سألتني إن كنت أومن بأنك غبي .. و ردّي هو نعم .. أنا أومن بأنك غبي رغم كل ما ضخّوا برأسك من علوم في شتى المجالات .. أعلم أنك موسوعة علمية متحركة و هم فخورون بما توصلوا اليه معك .. لكن الموسوعة العلمية التي ينقصها العنوان و المقدمة و الخاتمة.. بإمكاني أن أنعتها بالغبية .. أنت غبي لأنك تظن أنك أذكى و أقوى من الجميع .. و ها أنا الآن سأثبت لك العكس .. لمجرد اعتقاد الخاطئ بذلك...
لم يجب جاك في الحين .. تأخر قليلا و هو يقلب عينيه شمالا و يمينا قبل أن يبدأ بالحديث و يرتكب خطأ مجاراتي في الحوار الذي سينهي وجوده ..
- حسنا .. صحيح أني لا أعرف السر الذي جعلك تمتلك تلك القوة .. لكني أعلم يقينا أني لست غبيا و أن ما أملكه من علم لا يسمح لك أن تصفني بالغبي ..
- صحيح أن لديك علما غزيرا لكن هذا لا يعني أنك لا تجهل أكثر مما تعلم ..
- أنا لست جاهلا مثلكم معشر المؤمنين بالخرافات ..
- أنت تتحدث عن الإيمان و ليس العلم .. وأنا أحدثك عن جهلك بأمور عدّة .. منها مثلا ملفُك سيد جاك ..
- عفوا .. كيف .. ماذا قلت ؟

- نعم أنت غبي لأنك تجهل حقيقتك و تتحدث بالعلم و العلوم و القوة .. لقد اطّلعت على الملف الذي يحتوي على أصلك .. و لا أخفيك سرّا .. إذا عرفت ما يوجد به فستتأكد أنك أغبى من يوجد على ظهر هذه الجزيرة .. لأن الجميع هنا يعرفون أصلهم و نسبهم إلا الغبي الذي يجلس معي ..
ـ عن ماذا تتحدث ؟ ما الذي يوجد بالملف ؟

بعد أن قرأت الملف رقم 7 كما نصحني الحكيم , كان بالصفحة الأخيرة معلومات اعتبرتها المدخل الرئيس لهجومي على جاك , ذلك أن شخصيته بعد أن انفصلت عن حسن لم تكن تعلم أصلها و عالمها الحقيقي ..

كانت فرصة لا تعوض لتشكيل عقله كما يشاءون بالجزيرة ..لقد أخبروه بأنه إنسان مستنسخ و أن بإمكانهم خلق الحياة .. أن قدراته الخارقة هي محصلة علومهم و تجاربهم عليه و أن بقاءه معهم سيزيد من قدراته و أنه سيُمنح المزيد و المزيد من القوة إذا ما كان مطيعا للمنظمة و أن حسن هو التجربة السمينة الفاشلة التي يجب القضاء عليها و أن ماريا كائن مستنسخ مليء بالشوائب و قد خرجت عن السيطرة و يجب القبض عليها و إعادتها للمختبرات و تحصيل دماغها لإجراء دراسات جديدة لفهم المفارقات التي حصلت أثناء عملية استنساخها ..

كان جاك يعيش في عالم من الوهم و الكذب و كانت الطريقة الوحيدة للقضاء عليه هي إيقاظه من نومه ..

- سأخبرك بما يوجد بالملف عندما تثبت لي أنك لست غبيا ..
- و ما المطلوب مني دكتور عماد لأثبت لك ذلك ؟
- لا أصدق .. لقد نطقت أخيرا إسمي .. هذا دليل على أنك بدأت تحترم شخصي دون أن ترى قوتي الحقيقية ..جيد جدا .. لكني لن أمنع نفسي من نعتك بالغبي .. أحس بحقيقتها حينما أنطق بها ..
- هذا ليس دليلا على غبائي بل هي مجرد معلومات بإمكاني أن أتأكد منها في دقائق معدودة ..بإمكاني أن أطلع على الملف متى شئت .. لكن الغباء هو أن لا يُحكِّم الإنسان عقله في الأمور الواضحة الجلية التي تحتاج فقط الى القليل من الفهم و الوعي ..

- أولا .. لن يسمحوا لك بالاطلاع عليه حتى لو طلبت ذلك .. ثانيا .. الملف معي .. ثالثا أنت تتحدث عن الإيمان بما لا يقبله العقل .. حسنا سأثبت لك أن الغباء و الفهم المحدود هو صفة ملازمة لسكان الجزيرة و لك بالخصوص .. أين يتجلى في نظرك الغباء أيها العبقري ؟ أين ؟

كان سؤالي تمهيدا لإثبات المغالطات التي تمّ ترسيخها بدماغ جاك و أثبت له صحة مزاعمي حول شخصه و أصله و ليتيقن من حقيقة أنه فعلا غبي مُرَكّب .

الـــــــبـــــبـــــغـــــاء

استقام جاك وهو جليس ثم ابتسم , أحسستُ بشغفه للمبارزة الفكرية التي سيثبت من خلالها أنه ليس غبيا فقط لأني أدعي ذلك , ثم سألني بثقة كبيرة و هو يتقيأ على مسامعي الأفكار السامة التي زرع الدكتور هالي برأسه ..

- لا أعلم ما الذي يمكن أن يوجد داخل الملف .. لا بأس .. سأصدق أن به أمرا مُهمّا حول أصلي كما زعمت , لقد وعدت أن تطلعني عليه إذا أثبت لك أني لست غبيا , لكني لن أسعى لأدفع صفة الغباء عني , بل سأثبت لك أنك أنت الغبي بعد أن تجيبني عن أسئلة منطقية و عقلانية و التي أظنك ستجيبني كما يجيب الأغبياء منكم .. أي أجوبة روحانية و خالية من كل علم دقيق و صواب ..
- جيد جدا .. هذا هو مرادي .. أسمِعني عبقرية أسئلتك ..
- حسنا .. أنتم تظنون أن الله موجود و سيد البراهين عندكم هو قانون السببية الذي يقول أن وراء كل شيء و كل شكل سبب و أن لكل صنعة صانعا و خالقا و موجدا .. و أن الرسم يدل على الرسام و النقش يدل على النقاش و الكون بهذا المنطق أبلغ دليل على الإله الذي تزعمون وجوده ..هب أني صدقت و آمنت .. ألا يحق للأذكياء إذا ما سلّموا بقولكم أن يطرحوا نفس السؤال و بنفس المنطق الذي تتحدثون به و نـــســـألـكـــم .. من خـــلـــــق الله ؟ ألا يقودنا استدلالكم و قانونكم الى هذا السؤال ..

أكمل جـــاك سؤاله و العزة و الخُيلاء تكاد تتقاطر من تحت قدميه و كأن سؤاله كان ضربة قاضية لكل من يزعم أن الله موجود ..
ابتسمت بدوري واستقمت باستهزاء كما فعل و أنا أجيبه ..

- سؤالك خاطئ من أصله أيها العبقري .. إذا ما سلّمت أن الله خالق فلا يجب عليك أن تساوي بين الخالق و المخلوق و تجعل منه خالقا مخلوقا في نفس السؤال .. الخطأ الثاني في السؤال الغبي .. أنك تتصور خضوع الخالق لنفس القوانين التي أخضع إليها مخلوقاته .. لأن السببية قانوننا نحن و الزمان و المكان قوانيننا نحن .. و من خلق الزمان و المكان يوجد حتما فوقهما .. و هو أيضا من خلق قانون السببية .. ومن المستحيل أن يُخضع الخالق نفسه للقانون الذي خلقه .. أرى العبقري الذي أمامي يشبّهُ العرائس التي تتحرك بالخيط و الحبال و هي تسأل الانسان الذي صنعها لماذا لا يحتاج هو الآخر الى الخيوط و الحبال ليتحرك و عندما يخبرها بأنه يتحرك من تلقاء نفسه تجيبه كما تجيبون أنتم أيها الأذكياء المركبون بأنّه أمر مستحيل و أن لا شيء يستطيع الحركة من تلقاء نفسه بناء على قوانين العرائس الغبية في عالمها .. لذلك أنت لا تتصور أن الله موجود بذاته بدون موجد .. لمجرد أن كلّ ما تراه يحتاج الى موجد .. و هو أخبرنا في كلمات بسيطة الفهم للجميع أنه لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد .. فكيف لك و لذكائك المزعوم أن يحيط بمن لا حدود لحقيقته و مَن لا مثيل له ؟

اختفت ابتسامة جـــــاك فجأة و أحس بدوار خفيف مالت معه رأسه الصغيرة قبل أن يتدارك وقوعه و يرُجَّ دماغه ليستيقظ من سكرت الجواب الذي لم يكن ينتظره ... كان الجواب غريبا عن بنك معلوماته ...
ثم سأل مرة أخرى .. لكن الابتسامة اختفت من على شفتيه هذه المرة ..

- أليس عجيبا أمر إلهكم هذا الذي يتدخل حسب قولكم في كل صغيرة و كبيرة فيوحي للجميع و يأخذ بناصية الجميع من دواب و نحل و نمل و طير و يعلم سقوط أوراق الشجر و خروج الثمار من أكمامها و يحصيها عددا .. ويعلم ما تحمل من أنثى و لا تضع إلا بعلمه .. أليس عجيبا أنكم تجعلونه السبب في عثرات الأقدام و سقوط الذباب في الطعام و تعطل السيارة و سقوط المطر و الجفاف .. ألا تُشغلون إلهكم بالتوافه من الأمور بهذا الفهم ؟

كانت نظرات جاك حادة عندما طرح سؤاله و كأنه يستفسر بدل أن يجادل ..

بنك المعلومات كانت تنقصه بعض المعلومات ...

- ما رأيك أنت ؟ هل ترغب برب أعمى ؟ هل ترغب برب عاطل عن العمل لا يسمع و لا يرى و لا يعتني بمخلوقاته .. تشتهي ربا على هواك يتحرك حيث تريد له أنت أن يتحرك ؟ من أين لك أنها توافه الأمور ؟ الذبابة التي تبدو تافهة في نظرك وسقوطها التافه في الطعام نقل مرض الكوليرا الى جيوش عظيمة رجحت كفة النصر لقوم آخرين و قلبت موازين التاريخ بأكمله .. لقد قتلت بعوضة تافهة الاسكندر الأكبر ليتوقف زحف أكبر امبراطورية في التاريخ بسببها .. الخالق يجعل دائما أتفه المقدمات السبب في أعظم التغييرات و أخطر و أكبر المقدمات لا تؤدي الى شيء عنده .. هو من يختار المقدمات و النتائج .. الإله الجدير بالألوهية هو الإله الذي أحاط بكل شيء علما و هو من لا تغرب عنه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء .. أما زالت تبدو الأمور تافهة لك ؟

امتعض جاك و عض على أضراسه بقوة لأن دماغه لم يتلق يوما ردا منطقيا على الأفكار التي غرسوا به.. كانت ابتسامتي تنغص عليه تركيزه و تفسد محاولة إثبات حقيقة أنه ليس غبيا و عدم وجود إله يسيّر الكون .. ثم فوجئت به يغمض عينيه و تمسك يده اليمنى باليسرى وكأنه يقاوم حركة لا إرادية لجسمه ثم يقول ..

- أحسنت دكتور عماد .. أحسنت..

ثم فتح عينيه و هما يزيغان يمينا و يسارا و الخوف و الجزع بداخلهما .. كانت شفتاه ترتعشان و هو يتساءل حائرا ..

- ما الذي حدث ؟ ماذا حصل ؟ هل فعلتَ شيئا ؟ ما الذي فعلته بي دكتور ؟ أرجوك ؟ أنا لم أقاومك و لن أحاول .. أرجوك توقف .. لا أريد أن أموت ..

كان الملف رقم سبعة يحمل بين ثنايا صفحاته نقطة ضعف جاك , ذلك أنه ذكر بالتفصيل أن الانفصام الذي حدث للحالة جاء مباشرة بعد قيام الاشعاعات بضخ الفلسفة الملحدة بدماغه , و كانت النتيجة هي هروب حسن من سجن الشيطان الذي بداخله لأنه كان يختلف مع كل ما سيدُسّون له , و

بقي جاك يحمل ذلك العلم و تلك الفلسفة على أن فيها الحقائق العظمى التي لا يستطيع أحد أن يشكك في صدق طرحها و منطقها .. و بعد طرح جاك سؤاله الأول عن وجود الخالق تلقى صدمة الجواب الذي لم يسبق لدماغه أن تلقاه عبر الاشعاعات .. كنت أعلم أنه لن يقبل بردي و أنه سيجادل و يجادل الى آخر يوم في حياته , لكن المتلقي المطلوب عندي كان هو حـــســـــن .. لقد اختفت شخصية حسن و ذابت في اللباس الجديد الذي تم حشوه بالأكاذيب...

كانت أجوبتي موجهة الى حسن ليستيقظ و يأخذ بزمام أمور جسمه و ليس الى جاك الذي كنت أتعمد التقليل من شخصه و قوّته حتى يتمكن حسن من العودة ..

كنت أعلم أني لا أستطيع هزم جاك بالقوة لكن بالعقل و الحكمة ..

كان من الفطنة أن أبحث عن حليف قوي في معركتي ضده ..

و كان حسن هو أقوى حليف أستطيع الاعتماد عليه , لكن كان يجب قبل ذلك مساعدته في العودة و السيطرة على أوصال الجسد الجالس أمامي ..

علمت اقتراب موعد النصر ساعة تمكن حسن من التحكم و لو للحظات بجسمه .. ذلك أن الشك بدأ ينخر أوصال جاك الملحد في ذكائه ..

لقد كان حسن هنا أمامي منذ أول يوم رأيت فيه جاك .. كان يقاوم شرور نفسه التي أيقظوا فيه ..

ثم عاد الكبرياء المدمر من جديد ليتحدث بدلا من الخوف مرة أخرى .. فقال في شماتة بعد أن استعاد السيطرة و هو يتصور أنه سيخنقني و يحاصرني ..

- كيف تزعمون أن إلهكم رحمان و رحيم ثم تقولون أنه هو من خلق المرض و الشيخوخة و الفيضانات و الزلازل و البراكين و الفيروسات القاتلة .. كيف يكون رحمانا رحيما و قد خلق السم و الحر و الزمهرير و الأورام السرطانية و السيدا التي لا ترحم طفلا أو شيخا .. أين الرحمة هنا .. إذا كان الله رحيما بكم فكيف يخلق القبح و الكراهية و الشر و يسمح بالحروب و الداء و القتل , أين الرحمة عندما تضرب المجاعة بلدا بكامله .. أين الرحمة ؟ ألستم أنتم الأغبياء عندما تؤمنون بالشيء و نقيضه ؟

كان يسأل بعصبية و تشنج قبل أن أرد بهدوء و أفتح طريقا آخر و فجوة يتسلل منها حسن لكي يعلم أنه صاحب الحق و يكبح جماح الببغاء الذي أمامي ..

- سؤال غبي آخر .. ما يضحكني هي الثقة التي تتحدث بها و كأن الحق هو ما تتقيأ .. لكن سأجيبك على سؤالك الغبي مرة أخرى .. الله رحمة و خير و هو لم يأمر بالشر و لكنه سمح به لحكمته .. الأكيد أنك لم تقرأ كتابه لأنه القائل .. (إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط) .. الله أمر بالعدل و الحب و العفو و الخير .. و سمح بظلم الظالم و جريمة القاتل و نهب السارق مال غيره دون وجه حق لأنه أراد عباده أحرارا .. و الحرية اقتضت الخطأ ..و لا معنى للحرية دون أن يكون لك الحق في اختيار المعصية أو الطاعة .. لأنه إن منع الشر فسيكون قد قهرنا بالطاعة و سلبنا حرية الاختيار .. أما الجوع فسببه لصوص أحرار و مجرمون أمثالك و ليس نقص بالموارد ... و الإنسان المنصف يرى بأن الخير هو القاعدة و أن الشر هو الاستثناء .. و الصحة قاعدة أما المرض فاستثناء و الجميع يقضي عمره معافى و يمرض أياما معدودة ليعلم أن به نعمة من نعم الله .. و الزلازل تضرب في بضع دقائق من الزمن الذي يحصى بملايين السنين ليعلم الآمنون أن لا يأمنوا مكر الله .. و كذلك البراكين و الحروب .. إنما هي لمحات قصيرة في حياة الأمم و الناس و تكون جُلّها لحكمة نعلم بعضها و نجهل بعضها الآخر .. و الأصل في الحياة التي خلق الله هي السلام و الصحة و الأمن .. و جلُّ التشنجات الدخيلة عليها استثناء وُجد لحكمة .. و لك أن تتخيل قوما لم يمرض فيهم أحد مئات السنين و لم يهلك فيهم أحد بسبب الحرب أو الزلازل أو البراكين و لم يسبق لأحدهم أن عرف معنى الألم .. من أين لهم أن يفهموا معنى الأمن و السلام و الصحة .. يعرف النور بأنه نور حين يعرف الانسان معنى الظلام .. و يعرف المريض الصحة بالمرض و السلام بالحرب .. و لنا معشر البشر أن نختار ما يمكننا من العيش بسلام و صحة و أمن ما استطعنا .. كما أن المرض يخلف ورائه وقاية و مناعة و الألم يدفع الى الصلابة و الصبر و قوة التحمل و الزلازل تنفس الضغط المكبوت داخل الكرة الأرضية و تحمي

القشرة الأرضية من الانفجار و تحزم الجبال في أماكنها و الحروب تخالط الشعوب و تخلق التحالفات و تعيد رسم الخرائط لتتداول الأيام بين الناس .. كل ما يفعل الخالق خير و هو رحمان رحيم و لولا القبح ما عرفنا الجمال و لولا النقص ما عرفنا الكمال ..

لم يتحرك جاك و لم يجبني للحظات ظننت أنه قد أغمى عليه جالسا رغم الأعين الحمراء المفتوحة عن آخرها .. لكن الأمر لم يكن كذلك .. لقد كان في حرب نفسية مع حسن .. لقد بدأ القتال على أشده للسيطرة على الجسم و محو الآخر بلا رجعة .. ثم عاد جاك بعد أن كان شاردا طوال ردي على سفسطته و هو مشدود الأعصاب قبل أن يتحدث بكلمات تتقطع على شفتيه و لسان متلعثم ..

- لا .. لا .. لا أعلم ما الذي تدبره لي يا هذا .. و لا .. لا أعلم السر الذي أخبرك به العجوز .. لكني متأكد بأنّ الأغبياء هم أنتم .. نعم أنتم .. كيف تظنون أن إلهكم يُجري كل شيء في هذا العالم بقضاء و قدر و أنه قدّر علينا جميعا أفعالنا , فلماذا يحاسبنا عليها .. و لا تجبني ذلك الجواب الغبي التقليدي الذي تتبجحون به دائما .. أنـــا مُـــخـــيّــر .. إنه كذب في كذب .. لأني لم أختر ميلادي و جنسي و بلدي و لون بشرتي و لم أختر تلك الشمس و ذلك القمر .. ثم يفاجئنا القدر المزعوم بالموت .. لماذا يُكرِهُ ربكم عباده على ظروف و أفعال تَنتُج جرّائها .. ثمّ يؤاخذهم عليها .. و إذا أجبتني بأن لكم مشيئة جوار مشيئته و أنكم أحرار فيما تفعلون فستكونون قد أشركتم حسب اعتقادكم ...

انتهى من سؤاله و أطلق نفسا طويلا أحس براحة بعده و كأنها امرأة حامل انتهت أوجاعها بخروج الجنين ..
تلى سؤاله صراخ مزعج خلفي كدت أقفز جرائه خوفا من على الكرسي لكني تماسكت نفسي في آخر لحظة .. فلا يجوز للقوي الخارق مثلي أن يخاف من صرخة هنا أو هناك ..

استدرت بهدوء لأفهم أن أحد الساجدين اختُطف من قِبل ماريا و اختفت به لرميه في البركان كما أمرتها لأنه رفع رأسه و لم يبق ساجدا , ثم عادت و هي تبتسم بمكر و تصرخ في الساجدين و تخبرهم أن من سيخالف أمري سيكون مصيره الحرق في فوهة البركان العملاقة ..
أشرت اليها بأصبعي لتتقدم الي و كأنها من جنودي الأوفياء ثم همست على مسامعها سائلا بخوف و قلق و تعجب لا يحس بهم غيري عن مصير الساجد و هل ألقته فعلا في النار .. لم أكن أرغب بقتل المزيد منهم لأني لم أكمل مهمتي بعد , لكنها أجابتني و همست لي هي الأخرى بما شرح صدري و أضحكني دون أن أضحك و أبتسم عندما قالت ..

- لا سيدي لقد ألقيته قرب إحدى غواصاتهم لينقذوه .. فأنا لست قاتلة مثلك حـــبـــيـــبـــي .. بل سأقتلك إن لم تشرح لي كيف جعلتهم يسجدون لك أيها الجبان .. (مبتسمة)

كان جوابها محفزا قويا للحرب النفسية التي أقودها ضد جاك كما أنها جاءت في الوقت المناسب لتزيدني قوة و ثقة قبل أن آمرها متعجرفا أمام الساجدين بالانصراف و العودة الى موقعها ..
كنت أجيب بسلاسة و طلاقة لم أعهدها في حياتي عن أسئلة جاك .. حتى أني لم أكن أردد الكلمات و معانيها بداخلي قبل أن تخرج ..
كانت تخرج دون مجهود ..
و كأني خُلقتُ لهذه اللحظة ..
و كأني زرت الجزيرة من قبل و قضيت على جاك مئات المرات ..
و كأني أعلم مسبقا نهايته .. و أن ليس لي شيء من أمري ..
إن هو إلا نور..
ثم أجبته بهدوء ..

- عقلك مكتظ بالمغالطات و السفسطة الفارغة .. أولا .. كل أفعالك معلومة عند الله و لكنها ليست مقدرة عليك بالإكراه .. إنها مقدرة في علمه فقط .. كما يقدر الأب أن ابنه سيرتكب خطأ في حق نفسه .. ثم يحدث أن يرتكب الابن الخطأ المعلوم بحق من الوالد .. فهل أكره الوالد الابن ؟ أم كان تقديرا في العلم و قد أصاب الأب لدرايته و خبرته بابنه .. و لله المثل الأعلى ..
ثانيا .. أنتم معشر الملحدين تخلطون الأمور في تُرّهاتكم و تتصورون

الحرية بطريقة عجيبة غير واقعية .. أنت مثلا تتصور الحرية بشكل غبي و تستدل عليها بأنك لم تختر ميلادك و لونك و جنسك و طولك و تتساءل بغباء أكبر لماذا لا تستطيع تحريك الشمس و القمر .. ارفع رأسك و اطرح السؤال للخالق لترى غباءك و وقاحتك أمامه .. سأطرحه بدلا عنك لتسمع التخليط و السفسطة ..

يا رب أريد أن أخلق نفسي و أختار لوني و جنسي و طولي و أنقل الشمس و القمر حيث أشاء و أوقفهما عن مدارهما متى شئت .. أين حُـرّيـتـــي ؟ أريت من قبلُ سؤالا غبيا كهذا ؟ .. أنت تسأل عن حرية مطلقة زيادة على حرية التصرف في الكون و هذا ملك فقط ..

لله الواحـــــــد القـــــهّـــــار .. وهو القائل سبحانه (وربك يخلق ما يشاء و يختار) .. لن يحاسبك الله على طولك و لونك و جنسك و لكن سيحاسبك على التكليف .. هنا أنت حر و هنا حدودك .. أنت حر في كبح و لجم الشر الذي يرقد بداخلك .. أنت حر في زجر نفسك عن فعل الشر و الميل بها نحو الخير .. حر في أن تكون صادقا أو كذابا .. هنا تنتهي حريتك .. حرية نسبية لا مطلقة كما تعشقونها أن تكون .. لقد أعطاكم ربنا الحرية في العلو على مرضاته و معصيته لكنه لم يعط أحدا الحرية في أن يعلو على مشيئته .. إذن كُفّ عن الخلط و السفسطة و اطرح أسئلة تناسب الذكاء الذي تتبجح به ..

كنت أراقب حربا شرسة بداخل جاك و كنت على يقين أن حسن يبذل قصارى جهده للعودة , كان العرق يتصبب من على جبينه خلال ردي و صار وجهه محمرا فاقعا جراء ما كان يعانيه من حربه معنا نحن الاثنان ثم بدأ يلوك الكلمات ببطء شديد قبل أن يلقي بسؤال يعبر عن ما لا تقبله عقول المجرمين ..

- ألا ترى أن اعتقادكم بعذاب لا محدود و أبدي من أجل ذنوب تافهة ... من نحن إذا كان ربكم الذي تدّعون له كلّ تلك العظمة حتى ينتقم منا هذا الانتقام .. نحن لسنا سوى ذرة في الكون بالنسبة له .. بل لا شيء قياسا بالكون الفسيح .. أين الحكمة من عذاب الخُلد الأبدي ..

كيف تعتقدون بوجود إله يعذب عباده بهذه الطريقة ؟

ابتسمت قبل أن أجيبه مرة أخرى ..

- أولا نحن لسنا لا شيء و لسنا ذرة أو هباءً في الكون .. شأننا عند الخالق عظيم .. لقد نفخ فينا من روحه و أسجد لنا ملائكته ووعدنا بميراث السموات و الأرض .. (ولقد كرمنا بني آدم و حملناهم في البر و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) .. وهذه الذرة تستطيع أن تستوعب الكون بالعقل الذي جعلته ربّك .. لأن الإنسان هو الكتاب الجامع و الكون صفحاته .. أما عن الذنب المحدود في الزمان و العقاب الأبدي فسأجيبك بكتاب الله لتفهم سبب خلود أمثالك في النار .. (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه و أنهم لكاذبون).. وقال ايضا (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم و يحسبون أنهم على شيء الا إنهم هم الكاذبون) .. لسنا هنا أمام ذنب محدود الزمان كما تظن .. بل هو ذنب مستمر في الزمان و سيبقى حتى بعد أن يختفي الزمان و نُقدّم جميعنا للعرض و الحساب .. نحن هنا أمام نفس تحمل معها شرها الأبدي .. و من هنا كانت أبدية العذاب لهذه النفس عدلا و حقا .. لأن بعضها شعلة من الحسد و الحقد و الغيرة و الغل و الغضب و النقمة و الإجرام و كأنها نار و مأوى النار .. النـــــــــار .. و جعل الله لنفسه حق أن يغفر لمن شاء متى شاء .. وقد يغفر لك و لن يحاسبه أحد لأن ليس كمثله شيء ...

صمت جاك مرة أخرى و عض على نواجده طويلا و هو يغمض عينيه و يضع يديه على مسامعه و كأن صوتا ما بداخله يزعجه و يجعله يتصبب عرقا...

و كأن قوة ما بداخله بدأت تقتات من ضعفه في المناظرة .. ثم قام من كرسيه و رماه بقوة نحو السماء الى أن اختفى وسط السحاب الأبيض ثم خرّ أرضا و قدماه لا تستطيع أن تحملاه و هو يصرخ ..

- ما الذي تريده مني يا هذا ؟ أتركني و شأني ؟ إنّه أنا و لست أنت .. إنه ملكي .. و لن أتركه لك ..

فهمت أن حسن بدأ يستعيد السيطرة على جسمه المحتل ..

ثم نظر اتجاهي بأعينٍ حمراء تكاد تنفجر دموعا قبل أن يصرخ بقوة و هو يقول جاثيا على يديه ..

- أنا لا أؤمن بربكم المزعوم و لن أؤمن به ما حييت .. لن يُكرهني جميع من في الأرض على الإيمان به ..

قمت من مكاني بهدوء ثم تقدمت منه قليلا و انحنيت قبل أن أجيبه مبتسما ..

- من الذي طلب منك أن تؤمن به كرها .. أنت لم تقرأ كتابنا سيد حسن .. إنه يقول (لا إكراه في الدين) .. أنا لم و لن أكرهك على الإيمان به لأنه و كما قال ربي في كتابه عندما خاطب آخر أنبيائه .. (ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .. فكيف أجعلك تؤمن به يا حسن ..أنت في الأصل مؤمن برب الكون ..

تثاقلت الكلمات على لسانه و أصبحت تخرج بصعوبة بالغة و هو يجر أقدامه أرضا ثم ينخُرَ رمال الصحراء بيديه غضبا قبل أن يقول ..

- أنا جاك .. أنا جاك و لست حسن .. لماذا تلقبني بحسن .. أنا جاك ولن أؤمن بإله يجبرني على العيش بقوانينه و سننه و مشيئته .. أنا أكرهه ..أكره شانج دي .. أكره راما و كريشنا و باجافان و شيفا و شيام... أكره أشورا و اكالبوركا .. أكره إيك و أونكار و سانتام .. أكره موجايي و مبولي و جوك و نيالاك.. أكره رب بوذا و رب المسيح و رب موسى و ربك المزعوم ... و أكرهكم يا معشر الأغبياء .. و أنا لست غبيا ..

اقتربت من مسامعه و هو يجثو أرضا و الكبرياء يمنع الدموع من النزول على وجنتيه و الحقيقة تكاد تنفجر و يتأكد له من أن حسن المؤمن على وشك استعادة السيطرة على مصيره من المصنوع الذي بداخله .. ثم همست له و الابتسامة لا تفارقني ..

- يسعدني أن أضيف الى معلوماتك أنهم واحد .... يسعدني أن أخبرك يا جاك أنها أسماء لإله واحد صمد لا يفنى هو الله ذو الجلال و الإكرام ... لقد وعدتك أن أخبرك عن ما يوجد بالملف و ها أنا سأفي بوعدي .. أنت لست جاك الإنسان .. أنت لست إنسانا من الأصل .. بل عفريت الجن حسن و الدكتور هالي سخّرك لخدمته لأن الغبي المدعو جاك صدّقه ..و القدرات التي تمتلك ليست من صنيعهم بل عطاء من الخالق..

لقد قلت أنك تكره الإله الذي طالما رددت كالببغاء الغبي أنك لا تؤمن بوجوده أصلاً .. كيف تكره شيئا لا وجود له .. أليس هذا دليل قاطع على أنك فعلا غبي ويجب عليك الرحيل ..
رفع رأسه لينظر الي و قد توقف لسانه عن الحركة و تغير لون عينيه و لاح لي منهما فجأة الشعور بالامتنان .. و عرفت دون أن ينطق بكلمة واحدة أنّ الذي أمامي ليس جاك و لكنه كان حـــســـــن قبل أن يُغمى عليه .. لقد رحل جاك الذي تجسد في شخصية زود الشرير الى غير رجعة .. و عاد حـــــســـــن .. و صارت القوة اللازمة لتدمير الجزيرة بمن عليها رهن إشارتي كما تنبأ الحكيم .

هتلر

وقفت بهدوء و تنفست الصعداء أمام الحلقة الساجدة خوفا من الموت و على رأسهم الدكتور برنارد هالي و طلبت من الجميع بصوت مرتفع أن يقفوا و ينصتوا , اقتربت ماريا مني ثم وقفت خلفي عن يميني
و هي تحدق بالحضور و تركز مع تحركاتهم بحذر و حيطة ..
تذكرت قول الحكيم عندما تساءل أمامي عن الدعوة الى الله بقلب صادق و هل سبق و قمت بهذه الرسالة و لو مرة بدون غضب أو رغبة في الانتقام ..
تذكرته عندما قال أني سأصبح صاحب رسالة ..
تذكرته عندما تحدث عن موعده مع الخالق ..
موعده الذي تنبأ به قبل أن يوافقوا على طلبه ..
الطلب الذي كان الغرض منه الدعوة الى الله ..
لقد التحق بربه و هو يدعو هؤلاء القوم الى الله ..
و حان الوقت لأعرف من سمعها منهم .. و من صمّ آذانه عنها ..
حان الوقت للقضاء على الجزيرة ..
ثم خاطبتهم و دعوتهم لما أعلم يقينا أنه الحق ..

- أريد قبل أن أحدثكم عن ما جرى قبل قليل و أذكركم بالحكيم أو العجوز كما تحبون مناداته .. ذلك العجوز الذي سمح لكم بأن تُجربوا عليه كل أسلحتكم .. ذلك العجوز الذي كان رحيما بكم .. ذلك العجوز الذي لم تقتله كل إشعاعاتكم .. و كل قنابلكم المدمرة .. و كل صواريخكم الذكية .. ذلك العجوز فـــــــارق الحـــيـــــاة برصاصة يتيمة ..
لقد فهمت بعد أن ودعنا الشيخ مباشرة ..
فهمت أنه هو من طلب من الدكتور هالي القائم على الجزيرة أن تحضروا جميعا هنا .. و قد نفذ هالي الأمر مباشرة من أجل الجندي جاك و جاء بكم الى هنا لتشاهدوا بأعينكم موته علّكم تؤمنون .. ألم تتساءلوا و أنتم

العقلانيون ما الذي جعل تلك الرصاصة تؤدي وظيفتها و تقتل الشيخ ؟ ألم تتساءلوا لماذا لم تقتله كل تلك الأسلحة ثم تمكنت منه رصاصة صغيرة ؟ .. لقد طلب الحكيم من الدكتور هالي أن يصرخ الجندي بأعلى صوته و أن يذكر اسم الله قبل أن يطلق النار ليطلق سراح جاك .. لقد أراد الحكيم أن تسمعوا و تشاهدوا ما لا تصدقه عقولكم .. و تتساءلوا كيف لكلمة تخرج من فاه جندي قاتل أن تجعل الرصاصة أقوى من الإشعاع و القنبلة و الصاروخ .. كيف يعقل أن تؤثر كلمة و موجة صوتية على المادة بهذه الدرجة ؟

عمّ صمت قاتل الحلقة العظيمة حولي و لم ينبس أحد بكلمة ثم تذكرت أن لن يجيبني أحد و هم يخشون الموت , لذلك وجب أن أخبرهم بالحقيقة لكي يختاروا و هم أحرار ..

- أظن أنكم على علم بوظيفتي و إن كان منكم من يجهل ذلك فليعلم أني طبيب اختصاص أمراض نفسية .. أي أن مهمتي هي علاج من لهم مشاكل نفسية و تراكمات فكرية تؤدي بطبيعتها الى أمراض عضوية .. آخر أبحاثي تناولت فيها صلب هذه الفكرة .. ألا وهي قوة التفكير عند الانسان .. ما قد يعلمه الاخصائيون منكم و يجهله الآخرون هو أن العقل و الجسد يؤثر كل منهما على الآخر .. فما يفكر فيه الشخص و يقوله لنفسه يأخذه المخ و يفتح له ملفا خاصا في علم البرمجة العصبية بما في ذلك ردود فعل الجسم و نتائج الفكرة عليه .. ارتكز بحثي على حالة وقعت فعلا خلال الحرب العالمية الثانية حين أراد دكتاتور أن يعاقب ثلاثة من الجنود لأنهم لم ينفذوا الأوامر كما ينبغي و طلب من بعض المختصين لديه أن يعاقبوهم عقابا نفسيا شديدا فوضعوا كل شخص بمفرده في زنزانة صغيرة و شرعوا في تقطير غاز سام يؤدي استنشاقه الى الموت في ظرف ستة ساعات ثم أغلقوا الباب عليهم بمفردهم لمدة ثلاث ساعات لكنهم بعد أن فتحوا الأبواب على الجنود فوجئ الجميع بوفاة اثنين , أما الثالث فكان في حالة خطيرة .. لكن اللذين نفذوا أمر هتلر كانوا الأكثر ذهولا من غيرهم .. و السبب أن الغاز الذي وضعوا للجنود لم يكن غازا بل .. مـــــجـــــرد ماء .. لقد مات جنديان بفعل إيمانهم و يقينهم بأن الموت آت لا محالة .. لقد ركزت كل ذرة

بدماغهم على ملف الموت و انتظار الموت .. فلم يكن من الجسم إلا أن يرضخ لما آمن به الدماغ لتزداد ضربات القلب و يرتعش الجسم و يزداد الضغط و يكثر العرق لأن فكرة الموت تلح أكثر فأكثر و تزيد من تشنجات الجسم فتعود الرسالة من الجسم الى المخ و تزداد الفكرة قوة و يقينا بحتمية موتها و تستمر دورة تبادل المعلومات الخاطئة من الأساس ليصل الانسان الى الحالة التي وصل اليها الجنود .. هذا بالضبط هو ما قمت به مع الجندي قاتل الحكيم .. إلا أني رفعت سقف المجازفة و المغامرة عندما أخبرتكم أنه سيموت بعد خمس دقائق .. هـــــــــــل سـمـعـتـم ؟

هـــــــــــل فـهـمـتـم ؟ ليس لدي أية قوة خارقة و لا أستطيع أن أؤذي أي شخص منكم .. لقد استخدمت هذه الطريقة من أجل الوصول الى جـــاك هنا (أشير اليه) .. و أريد أن أعرف الآن موقفكم ..لم يكن الهدف إقناع جاك بوجود الله من عدمه لأن جاك في أصله مؤمن و كما شاهدتم لم يحتج الأمر مني سوى جلسة هادئة و بضع دقائق , و الحقيقة أني لم أهزمه فكريا أو فلسفيا حول موضوع الخالق لأنه و ببساطة لا يوجد و لن يوجد منتصر فكلانا لا يملك سوى حجج يستدل بها ليثبت موقفه الفكري و هذه هي الحرية ...

لقد ضحى الحكيم بحياته لتعلموا أن الله حق كما يحق لكم أن لا تؤمنوا به أيضا لكن وجب أن تعلموا أن ما تقومون به في الجزيرة ليس سوى جرائم قتل و إبادة و أن ما يسعى له الدكتور هالي و المؤسسون ينافي إنسانيتكم.. فليس من حقكم نزع الحياة دون وجه حق .. ليس من حقكم قتل الأبرياء فقط لأنهم لا يفكرون بطريقتكم .. ليس من حقكم تغيير معتقدات الناس بالقوة لأن الاختلاف دائم و ستأتي الأيام بمن يغير بالقوة أيضا ما تغير بالقوة و لن تنتهي دائرة الموت .. أنتم الآن تفكرون على هواهم .. فماذا سيحدث إن تغير ذلك الهوى و صار مخالفا لما أنتم عليه ؟ ألن يكون مصيركم هو العطر و الصابون .. ألا تلاحظون أنه تفكير متطرف و غبي يشبه تطرف بعض المتدينين أيضا أو من يدعون التدين , المؤسسون يقولون أنهم يريدون بناء عالم جديد لا قتل فيه و لا عنصرية .. أليست هذه مغالطة عظمى .. عالم لا قتل فيه يُبنى على جرائم إبادة جماعية .. إنهم يقولون لكم أن البشرية متجهة الى مصير مجهول بسبب عصبية البشر .. لكن الحقيقة أن العصبية

التي قتلت الملايين أنارت طريق قارة مثل أوروبا الى معنى الديمقراطية .. و حرب أهلية أمريكية دامت سنين تولّد من رحمها دستور كان اللبنة الأولى لأمريكا القوية الآن .. وليس ما توصلت اليهما أمريكا و اوروبا الآن هو نهاية المطاف .. بل البداية و ستأتي شعوب و أقوام لتضيف الى هذا العالم أفكارا و قوانين جديدة عبر الزمن ما دام الانسان على ظهر الأرض و كذلك كل الشعوب ستتعلم من أخطائها و ليس من معلم كالزمن ليخرج الى الوجود أروع ما في الإنسان .. نعم هناك قتل و هناك حروب طائفية غبية و هناك دمار .. لكن أليس من سبيل غير قتل الجميع .. ألا نستطيع أن نساعد الزمن علينا و نسرّع وثيرة تعليم الناس ما ينفعهم .. ما تنفق هذه المنظمة من أموال على إبادة الناس يمكن ترشيدها لنشر العلم النافع و توعيتهم و بث فكرة الحرية بوعي للجميع .. ليس ضروريا أن تؤمنوا بما جاء به الحكيم .. فديننا يقوم على أساس الحرية (من شاء فليؤمن و من شاء فليكفر) و من يكفر منكم بما يؤمن به الآخر فليس له الحـــــــــق في الحجر على حياته...

كان الدكتور هالي ينصت لي بغضب و أريحية في نفس الوقت ..
غضب بسبب سجوده لي .. و راحة لعلمه بعدم امتلاكي لأي قوة خارقة ..
ما إن أتممت وجهة نظري حتى تعالى الصراخ ثم انفجر أغلبهم ضحكا ثم زفير و نفير و تقليب الأيادي و بصق و هرج ثم سمعت بعضهم ينادي بقتلي و آخرون يضحكون على الفخ الذي وقعوا فيه بسخرية و البعض الآخر يرمونني بنظرات امتعاض أ و حسرة ..
تقدم الدكتور هالي نحوي قبل أن يبادرني بالحديث و الغضب لا يفارق ملامحه ..

- هل تعلم ما الذي فعلت يا هذا ؟

كان سؤالا يحمل في طياته الغضب و الانتقام لكني لم أعره اهتماما لأن مهمتي كانت على وشك النهاية ..

- نعم .. أعلم .. لقد دعوت الجميع الى الايمان و من لم يؤمن دعوته الى الكف عن القتل و أنت أولهم ..
- لقد وقعتُ فعلا في فخك .. لأنك لعبت على أغلى ما نملك .. حياتنا .. نحن نحب الحياة لدرجة لا يمكنك تصورها .. أنا أبلغ من العمر مائة و عشرين

عاما يا هذا .. و أنا من المؤسسين الثلاثة لعلمك .. و لقد جعلتني أسجد لحقير مثلك .. لذلك سيكون عقابك مسألة شخصية بيني و بينك ..

- أفهم من كلامك أنك ستواصل برنامجك و ما تعتقد صوابا بالجزيرة ؟

التفت نحو الحلقة التي تشتتت و عاد أكثر من نصفها الى البناية مستهزئين و ساخرين و صرخت في البقية الباقية ..

- هل من أحد يريد أن يعدل عن قتل الناس ؟ هل من أحد صدق الحكيم ؟

نظر الي البعض نظرة اشمئزاز ثم تعرضت للسبّ و الشتم و البصق من البقية لأن كبريائهم تغلب على الحق داخلهم ..
ثم سمعت الدكتور هالي يتحدث عبر جهازه اللاسلكي ..

- الى كل الوحدات المقاتلة العودة فورا الى قلب الجزيرة .. الى الوحدات المختصة بالجندي رقم 7 لدينا حالة إغماء مجهولة السبب .. أريد الجميع هنا حالا .. حتى حاملات الجند .. و كل حرس الجزيرة .. الرمز أحمر .. الرمز أحمر .. أكرر ..

بعد أن أكمل الدكتور هالي دعوته مباشرة سمعنا صوت هدير طائرات الهيلوكوبتر و ناقلات الجند تقترب منا بشكل سريع .. اقتربت مني ماريا و سألتني إن كان يجب علينا المغادرة فأجبتها بالنفي ..

- لا أستطيع .. يجب أن أعرف ..
- ما الذي تريد أن تعرف ؟
- يجب أن أعرف ما الذي يريد الدكتور هالي أن يفعل ..
- سيعذبك ثم سيقتلك إن بقينا هنا ..

نظرتُ الى الدكتور هالي و سألته ...

- إذا كنت من المؤسسين .. إذا بإمكانك تغيير سياسة المنظمة .. لماذا لا تترك الناس و شأنهم ؟ لماذا لا تعمل على توعيتهم بدل القتل ؟

ابتسم و قال قبل أن يعود خطوات الى الخلف ..

- لن أتركك تهرب مع هاته الجاسوسة ..

تيقنتُ بعد رده و بعد نفور الجميع من حديثي أنهم ماضون في ما هم عليه و أن لن يثنيهم شيء عن القتل ما داموا يشعرون براحة الضمير و ما دام المقتول ليس منهم و ما دام الكبر و الكبرياء ينخر قلوبهم ..
كان الدكتور قد أعطى الأمر بقتلي حين تذكر أن بإمكان ماريا أن تبعدني عن الجزيرة و قبل أن يعود الى الخلف خطوات و خطوات وقفت فوق رأسي طائرات الهليكوبتر و أطلقت نيرانها و صواريخها بينما ماريا لم تمسك بيدي بعد ..
كانت أجزاء من الثانية هي الوقت الذي يلزم للهروب ..
كانت أجزاء من الثانية هي الوقت الذي يلزم حـــــــســـــــن لإيقاف كل قنابلهم و صواريخهم و يعلقها في السماء أمام ذهول الدكتور هالي الذي لم يستوعب المشهد ..
لقد أصبح أقوى جندي بالجزيرة يدافع عني ..
لقد أصبح أقوى جندي لديهم يأتمر بأوامـــــري ..

جـــيـــفـــانا

تقدم الدكتور هالي بخطوات صغيرة و حذرة و هو مذهول من شدة الصدمة قبل أن يسأل الرجل الخارق الذي كان يطفو خلفي في السماء ..

- ما الذي تفعله جاك ؟ إنه عدونا .. لماذا أوقفت سلاحنا ؟ سيختفي إن لم تفعل شيئا ..
- أنا لست جاك أيها الشيطان .. أنا حسن و لقد دمرت ذلك الغبي الذي صنعتم بجهل داخلي الى غير رجعة .. و الفضل يعود الى صديقي الدكتور عماد ..

ثم نزل حسن بهدوء خلفي و تقدم أمام تلك الترسانة العظيمة من الطائرات في الجو و الجنود على الأرض قبل أن يسألني ..

- ما هي الأوامر دكتور عماد ؟ كل ما عليك أن تفعل هو أن تأمر و سأنفذ في الحال .. لقد فهمت عن الحكيم أن تعليماتك أوامر .. و دون تأخر ..

توسل الدكتور هالي و استفسر و سأل و قلّب كفيه دون أن يأبه به أحد منا ..
كنت أفكر في ما سيأمر به الحكيم لو كان معنا ..
ما الذي كان سيقوم به الحكيم في هذا الموقف ؟
طرحت السؤال على نفسي لحظات ..
ثـــــــــــم قررت ..
قررت بناء على فهم الحكيم و إرادته ..
لقد طلب مني الحكيم قبل الحضور الى الجزيرة أن أعفو عن الناس و أن أبذل مالي في سبيل الإصلاح ثم أن لا أتأخر بالتضحية بنفسي من أجل الإنسان .. أي إنسان .. من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ...
كانت رسالة الحكيم واضحة .. لن أستطيع هزم شرور الناس إن لم أستطع هزم شرور نفسي و هواها ..
كان طلب الحكيم هو اللبنة الأولى للتقرب الى الله و بلوغ أولى المراحل العظمى من تلك العلاقة بين العبد و ربه ..

تلك العلاقة التي لا حدود لعلومها .. و لا علم لأحد بها سوى العبد و ربه ..
تلك العلاقة التي جعلت مجاهدا أغبر من أفغانستان ضد الاستعمار يرتقي الى مرتبة الولي..
ولي من أولياء الله الذي يرى الدنيا بعين الله ..
يرى الكون على حقيقته .. و يحدث الناس بما لا يقبله عقل و لا يستسيغه حساب ..
لو كان الحكيم معنا لأمرني أن أستمر في دعوتهم الى ما لا نهاية .. فلقد دعا نوح قومه ألف سنة و لم يمل ..
لكني لست نبيا و لست الحكيم ..
أنا ما زلت في حرب مع نفسي ..
و نفسي تشتاق لقتل كل من سخر و ضحك و استهزأ بدعوتي و دعوة الحكيم بالجزيرة و تشتاق لتدميرها انتقاما للذين قُتلوا فيها ظلما ..
لكني لن آمر حسن بقتل أحد .. و هذه هي أولى الضربات التي سأوجه لهواي .. لا .. لن آمر بالقتل و لن أقتل أحدا ..
إنها معركة من معارك قادمة في حرب طويلة الأمد ضد الشر الذي بداخل الانسان .. و لن تنتهي الآن .. لأنها حرب أبدية لحين يوم البعث ..
لذلك طلبت من حسن أن يدمر كل التجهيزات والمختبرات تحت الأرض بالجزيرة و أن لا يقتل إلا من سيحاول منعه ..
تقدم الدكتور هالي مني و سألني بغضب ...

- هل تظن أنك ستقضي علينا إذا دمرت تجهيزات الجزيرة .. نحن نقطة في بحر يا هذا .. و كما صنعنا جاك سنصنع غيره .. لدينا ما يكفي لتدمير الأرض بكاملها مئات المرات .. إنها حرب خاسرة .. فكر جيدا قبل أن تقدم على ما ستفعل ..

لم أجبه هذه المرة بل جاء الرد قويا من ماريا ..

- نعم لديكم من القوة ما يكفي .. لكننا لن نكتفي بتدمير الجزيرة فحسب .. بل سنأخذ السر معنا .. ذلك السر الذي تظنون أنه مِلككم .. ذلك السر الذي سيجعلنا أقوياء بما يكفي للتصدي لمخططاتكم ..

كان رد ماريا كالصاعقة بالنسبة للدكتور هالي .. توقف عن الحركة وطفت على وجهه علامات الغضب .. لم يستطع أن يرد رغم محاولاته ..
لقد توقفت الحروف بحنجرته لأن الســـــر الذي تحدثت ماريا عنه أفقده النطق ..
رفع جهازه اللاسلكي و قال بلسان مرتعش قبل أن تبدأ الحرب ..

- الى جميع الجنود .. توجهوا فورا الى قاعة المؤتمرات .. يجب حماية التابوت رقم واحد .. لا تتركوا أحدا يقترب منه ..

ما إن أنهى الدكتور هالي أمره حتى أمسكت ماريا بيدي ..
سمعت فوقي صوت انفجار إحدى الطائرات التي قررت إطلاق النار على حسن ليحولها الى قطع غيار متفحمة في السماء و ننتقل في لمح البصر الى قاعة المؤتمرات أمام التابوت رقم واحد حيث يوجد سر الجزيرة الأعظم ..

- أي ســـــر هذا ماريا ؟ ما الذي يخشى الدكتور هالي من أن يقع بين أيدينا ؟
- إنه ســـــــــــر الحياة .. إنهم لا يؤمنون بيوم الحساب .. و من الطبيعي أن يبحثوا عن الخلود لأنهم لا يقبلون فكرة الموت و العدم بعد الحياة .. السر موجود هنا بالتابوت الأول .. يجب أن أخرجه لنرحل عن الجزيرة عماد .. انتظر ..

اختفت ماريا من أمامي لتدخل التابوت ثم عادت بعد ثواني معدودة و هي تحمل ســـــــــــر الجزيرة الأعظم ..
الســـــــر الذي لا يصحُّ أن يكون بيد الدكتور هالي و منظمته ..
الســـــــر الذي يجب أن يمتلكه قوم مؤمنون رحماء يخشون الله ..
السر الذي كانوا يسمونه .. جـــيـــفـــانـــا ..

الرصاصة

كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت ما يخبأ العلماء في التابوت , لأني كنت أظن أن به رفات أحد المؤسسين كما قالت ماريا من قبل و لكني فهمت أنها تركت أمر السر الى حين المغادرة النهائية من الجزيرة ..
خرجت ماريا من التابوت و هي تحمل فـــــيـــــلاً صغيرا ..
نعم .. لم أصدق ما رأت عيناي في بادئ الأمر ..
ســـــر الجزيرة الذي أوقف الحروف بلسان هالي كان عبارة عن فـــــيـــــلٍ صـــــغـــيـــــر ..
لكنه ليس كباقي الفيلة .. إنه فيل بحجم القطة .. بخرطوم صغير و أذنين كبيرتين و أعين سود جميلة تكاد تنطق وتتحدث ..
تشبه أعيننا معشر البشر .. لكنها أكبر حجما ..
و الغريب في شكله كان لونه و قوائمه ..
أزرق اللون و له عشرات القوائم و الأرجل الصغيرة و المتوسطة الحجم منها ما يشبه أرجل الفيلة و منها ما يشبه قوائم الاخطبوط ..
كما أن جلده كان لزجا تماما كالرخويات البحرية ..
و الظاهر عندما خرجت ماريا به من التابوت أنه كان وسط إناء مائي كما كان يبعث الاحساس بالحب و المودة لكل من حوله ..
كان ذلك واضحا جليا في عينيه الجميلتين ..
استوضحت الأمر من ماريا فورا لتخبرني عن سر ذلك المخلوق العجيب و لماذا كان يوليه الدكتور هالي كل ذلك الاهتمام ليخبأه في أحد مثوى المؤسسين الأوائل ..
كان السؤال بسيطا و واضحا لكن الإجابة كانت و رغم تأخرها تحمل في طياتها كل أسرار الجزيرة ليُسدل الستار على كل ألغازها ..

- ما هذا ماريا ؟ كيف يكون فيل صغير عجيب الشكل هو السر الأعظم هنا ؟

- أظن أن الوقت غير مناسب لأشرح لك أهمية هذا المخلوق عندهم .. يجب أن نخرجه أولا من هنا .. يجب أن نكون قرب حسن ..

أمسكت بيدي أمام نظرات جيفانا البريئة و صوته الغريب الذي كان يشبه صوت عشرات العصافير مجتمعة و فهمت من عينَي ذلك المخلوق أنه كان سعيدا بخروجه من سجنه و أن صوته الجميل ما هو إلا ضحك و بهجة .. ثم توقف و صمت و طأطأ رأسه و أخذ يحاول التسلل بين ذراعي ماريا و الخوف يملأ عينيه عندما سمع صوت الحرب التي تجمع بين حسن و جنود الجزيرة و ترسانتهم بعد أن نقلتنا ماريا الى هناك ..
كانت حربا في السماء لا يكاد يظهر حسن أمام إحدى الطائرات حتى يختفي و يترك انفجارا عظيما خلفه ثم يظهر على بعد مئات الأمتار بعيدا بسرعة البرق قبل أن تتبعه عشرات الصواريخ الذكية فيقودها بذكاء بعيدا خارج حدود الجزيرة الرملية لتنفجر بعيدا وتدمر ما شاء لها أن تدمر من بنايات و مختبرات ..
لم يدم ذلك المشهد طويلا قبل أن تناولني ماريا المخلوق الأزرق اللزج و تختفي بدورها و يبدأ الجنود بالاختفاء أمام الدكتور هالي الذي كان يعطي أوامره عبر جهازه اللاسلكي لتدمير حسن ..
لقد أمسكت بهم ماريا الواحد تلو الآخر و بدأت في رميهم حيث لا أعلم .. كانت تبدو في كل مرة بشكل مختلف ..
عادت بعد أن اختفت أول مرة بشعر و ثياب مبللين لأعلم أنها رمت بعضهم في عرض البحر ..
ثم مكسوة بالثلوج لأعلم أنها رمت آخرين في غياهب الجبال حيث البرد و القر ..
استمر الجنود بالاختفاء أمام الدكتور هالي تباعا قبل أن تحمله إحدى الطائرات بعيدا و يعود باقي الجنود الى البناية و تعود ماريا أيضا و تنقلنا بسرعة الى الشاطئ قرب الفندق العظيم حيث دمر حسن أجزاء كبيرة منه و يصل الدكتور هالي بدوره ..
نزلت طائرته أمامي ثم نزل منها يكاد ينفجر غضباً مما وصل اليه أمر جزيرته و هو على يقين بأنها ستدمّر لا محالة ..

هرب معظم علمائه الى داخل الجزيرة و صعدوا جبالها بعدما رأوه من حرب طاحنة بين طائراتهم و الشبح الذي يقاتلون و لم يبق قرب الشاطئ إلا قلة قليلة منهارة تائهة لا تعلم ما تفعل من شدة خوفها من الموت ..
كان حسن يهاجم الجنود الذين يطلقون النار عليه فقط كما أمرته ..
بعد أن طهّر الشاطئ صحبة ماريا من كل المرتزقة قام برسم دائرة عظيمة من اللهب حول الشاطئ قبل أن ينزل من السماء بقوة و يخرق الأرض لتتحرك معها طبقاتها تحت أقدامنا و نحسبه زلزالا ثم يخرج على بعد عشرات الأمتار في مكان آخر لتتبعه تفجيرات سُفلية عظيمة تتلوها نيران الى الأعلى و يعلم الدكتور هالي أن حسن يدمر كل مختبراته المدفونة تحت الأرض بما فيها مركز قيادة طائراته لتتساقط كلها من السماء كسرب من الطيور تعرض لسكتة دماغية في آن واحد..
تقدم حسن نحونا أمام دهشة الدكتور هالي بعد أن أحدث عشرات الثقوب و التفجيرات و سألني بنبرة تحمل بين طيّاتها الكثير من الاحترام والتقدير ..

- هل تريد الرحيل دكتور عماد .. لقد دمرت كل منشئاتهم و لن يستطيعوا بناء غيرها إلا بعد عشرات السنين .. سيكون ذلك كافيا لإنشاء بنية تحتية تساعدكم في حربكم ضدهم .. لأن الأمر تغير الآن .. لديكم جيفانا ..

كنت أنتظر اللحظة التي سأغادر فيها الجزيرة منذ علمت ما يحاك بها .. لكني بعد سؤال حسن تأسفت على الإنسانية و كيف وصل بنا الحال الى ما وصلنا إليه ..
العديد من الاكتشافات تمّ التوصل إليها هنا .. كان بإمكانها مساعدة ملايين البشر .. لكنهم اختاروا إبادة من يستطيعون مساعدتهم ..

تقدم الدكتور هالي مني مع ماريا و حسن و جثى على ركبتيه فوق رمال الشاطئ الذهبية و هو يتوسل ..

- لقد كان لك ما شئت دكتور عماد .. لقد دمرت كل شيء بالجزيرة .. لقد خرّبت أعواما من البحث و العمل الدؤوب .. أكثر من خمسين سنة و أنا

أحضر لمشروعي هذا و ها أنت تنسفه في لحظات .. أعترف أنك هزمت الجميع و أنا على رأسهم .. لكني أرجوك و أتوسل اليك أن تترك جيفانا هنا .. أنت لا تعرف قيمة هذا المخلوق و لا أحد سيعرف قيمته عندكم .. أرجوك دكتور .. لقد دمرتم كل أبحاثنا و كل ترسانتنا و أسلحتنا .. ما الداعي لأخذ شيء لا تعلمون قيمته ؟ أرجوك ...

- لا أستطيع أن أثق بك دكتور برنـــارد .. هـــالـــي .. أنت مجرم أصبح ضميره يجهل معنى الإنسانية .. و الأكيد أنك تريد جيفانا لغرض لا يتناسب مع قناعتي .. أما عن سره فالأكيد أن الحكيم كان يعلم به و هو من أخبر ماريا به .. ورسالتي التي طالما سألتني عنها و مراد الحكيم مني كان هو الحفاظ على جيفانا .. و الأكيد أيضا أنك لن تحصل عليه .. إذن فالجواب هو لا .. لن أترك جيفانا بين يديك ..

ما إن أتممت ردي حتى أخرج هالي مسدسا صغيرا من وراء سترته البيضاء بسرعة و أطلق النار دون تردد ..
لكن ..
ما كان ليصيبني سوء و معي حـــســـن و مـــاريـــا ..
لقد أوقف حـــــــــســـــــــن الرصاصة و جعلها تسبح في الهواء بهدوء قبل أن تغير اتجاهها نحو الدكتور هالي الذي تجمد في مكانه ..
كانت ملامحه تؤكد بعدما تدخل حسن أنه يحس بالنيران و هي تأكل جسده ..
تلك النيران الزرقاء التي جعلت جلده يتدلى من على سائر بدنه بعد أن احترق ما عليه من لباس ..
تلك النيران التي أسقطت لـــحـــم وجـــهـــه من عليه ..
تلك النيران التي أرسلها حسن لتلتهم جسده دون أن يستطيع الحركة أو الصراخ ..
التفت الى حسن و رميته بنظرات غاضبه قبل أن يترك الدكتور هالي يركض نحو المجهول و هو يصرخ و كله يقين بقرب حتفه ..

- إلـــهـــي .. إلـــهـــي .. يا إلـــــهـــي ..

الآن تذكر الدكتور هالي و قبل الموت مباشرة أن للكون خالقا ..
و أن للكون ربا يمكن أن يدعوه ساعة الموت..
جعل حسن الرصاصة الصغيرة التي أطلقها الدكتور هالي لقتلي هي خلاصه عندما أرسلها اتجاهه لتخترق رأسه و ترديه قتيلا و يختفي آخر المؤسسين لتلك المنظمة اللعينة ..
أمرت ماريا أن تُخلي الجزيرة من سكانها و أن توزعهم في جميع أنحاء الأرض حيث يستحيل عليهم التجمع من جديد .. ثم أمرت حسن أن يُغرق كل الغواصات التي تحرس الجزيرة بحيث تفقد المنظمة الاتصال و لا تستطيع العودة بسرعة ..
كان جيفانا يتسلق ذراعي و يقفز فوق كتفي مرحا معبرا من خلال صوته و حركاته عن سعادته ..
لم أستطع أن أمنع نفسي من حب المخلوق الأزرق اللزج رغم النيران التي كانت تحيط بي الى حين عودة ماريا و حسن ..
لم تمض سوى لحظات حتى كانت الجزيرة خالية من سكانها ..
لم تمض سوى لحظات حتى غرق حراس الجزيرة أيضا ..
لم يتبق لنا سوى الرحيل للوجهة الجديدة التي لم أتصور أنها ستكون ملاذي في المستقبل القريب ..

الظلام

كنت لا زلت أتساءل عن سر المخلوق الغريب و أهميته قبل أن تمسك ماريا بيدي اليمنى و حسن باليسرى بينما جيفانا يلعب على كتفي و الانفجارات تتوالى تحت أقدامنا و الأرض ترتعد بهول ما يحترق تحتها من مصانع و معامل و مختبرات ..
نظرت ماريا الي و سألتني عن الوجهة التي أرغب الرحيل اليها لكني تركت لها حرية الاختيار لأني ما زلت أجهل سر جيفانا ..
كان المهم عندي ساعتها هو مغادرة الجزيرة ..
أغمضت ماريا عينيها لنجد أنفسنا في مغارة ثلجية كبيرة ناصعة البياض ..
لقد نقلتنا الى مغارة ثلجية بالقطب الشمالي حيث لن يعثر علينا أحد الى حين تقرير وجهتنا النهائية ..
أوقد لنا حسن نارا لنتدفأ بها و عادت ماريا لي بملابس و أغراض تقيني البرد الشديد الى حين ..
لم أتأخر في طرح السؤال على ماريا بعد أن انتهى كابوس تلك الجزيرة ..
- ما سر المخلوق جيفانا ...
تلقيت الجواب من حسن لأنه كان الشاهد على إجرام الدكتور هالي و زبانيته ..

- جـــيـــفـــانا .. معناها .. الحـــــيـــــــاة في الهند .. لقد سموه بهذا الاسم لأنه فعلا يعني الحياة .. تمّ اكتشافه بالمحيط الهندي .. و ما دام فكر المؤسسين مبني على الالحاد و الكفر بالخالق و رفض فكرة الحياة بعد الموت فإن الحياة كانت هي مبلغ العلم .. و جيفانا هو مبلغ العلم لديهم ..
يوجد في أعماق البحار ألوف المخلوقات الغريبة و العجيبة التي لم يكتشفها الانسان بعد , كما أن لها مواصفات و أشكال لا تستطيع تخيلها ..
جـــيـــفـــانا يعتبر من بين تلك المخلوقات النادرة و التي لها خصوصية نادرة جدا مقارنة مع البقية .. إنه حيوان برمائي يستطيع العيش في أعماق البحار المالحة و في الوديان حيث الماء العذب و على سطح الأرض كما أنه

مخلوق ذكي يشبه الدلافين .. إنه مخلوق يتعايش مع كل الظروف و فوق كل هذا تبقى خاصية جيفانا التي تجعل منه شيئا ثمينا هو كونه لا يــمــوت .. نعم كما سمعت .. إنه لا يموت إلا إذا دمرت دماغه .. لأنه يعيد إنتاج كل الخلايا التي تتعرض للتلف في الحين .. لقد تمّ العثور على ثلاثة فقط منهم .. لقد استعملوا اثنين في تجاربهم .. فشلت الأولى .. و الثانية كانت ناجحة الى حد ما بالنسبة اليهم ..

- كيف ذلك ؟ كيف نجحت ؟ و كيف فشلت ؟ و ما هي التجارب ؟
- لقد حاولوا التعرف على سر خلود جيفانا الأول و معرفة كيفية إعادة بناء خلاياه التالفة بإجراء عملية جراحية على دماغه لكنهم أتلفوه و مات .. أما جيفانا الثاني فقد تعرض لمصير مأساوي .. لم يجد من ينقذه إلا أنت ..
- كيف ذلك ؟
- لقد أنقذتَه عندما أنقذتني .. جيفانا الذي يلعب فوق كتفك به مادة لزجة يفرزها جلده الغريب .. تلك المادة هي ما كان يريد الدكتور هالي بعد سر خلود هذا المخلوق .. لقد اكتشفوا أن اشتعالها يولد طاقة هائلة تفوق ما ينتجه اليورانيوم المخصب لإنتاج الطاقة النووية و هي مادة قابلة للاحتراق بشكل رهيب .. كما أنها لا تنطفئ بعد الاشتعال .. لقد أشعلوا النار في جيفانا الثاني علما منهم أنه يجدد بناء خلاياه بسرعة رهيبة.. لقد وضعوه في صهريج مائي عملاق و استغلوا عذابه في إنتاج الطاقة بالتوازي مع آخر ما توصّلوا له في علوم شديدة التعقيد.. أعلم أنه شيء مقزز و غير إنساني لكنهم يرون الأشياء من منظور آخر .. جيفانا وحده يكفي لِسدِّ حاجة خمس دول عظمى من الطاقة ...كما أنهم تمكنوا بفضله من اكتشاف عنصر جديد من المادة سمّوه جيفاناريوم قيد البحث سيمكنهم من إنتاج طاقة لا نهائية و لأن من يملك الطاقة يملك القوة .. وكان الثمن .. أن يخلد هذا المخلوق في النار .. لقد مات عندما دَمّرتُ الصهريج تحت الأرض و أنهيت عذابه .. جيفانا الذي بين يديك هو الوحيد المتبقي الآن .. و لا يجب أن يقع بيد أحد دكتور عماد .. لقد ائتمنك الحكيم عليه لأنك ستعرف ما الذي يتوجب عليك فعله ..

لم يكد ينهي حسن حديثه حتى دمعت عيناي ألما على الانسان الذي أعمته مصلحته و حبه للقوة أفقده إنسانيته و حجب عنه عذابات سكان الأرض من بني جلدته فكيف له أن يرحم باقي المخلوقات ..

عرفت الآن وجهتنا ..
عرفت الآن رسالتنا ..
عرفت ما الذي سنقوم به و لمن سنقوم به ..
جيفانا لا يستحق أن يبقى مع هذه البشرية ..
و هذه البشرية لا تستحق جيفانا ..
لقد أحضرني الحكيم هنا لأنه كان يعلم أني أستطيع إنقاذ حسن ..
كما كان يعلم أني سأتخذ القرار الصواب لحماية جيفانا ..
و القرار الصواب هو أن هذه البشرية ستقتل بعضها البعض من أجل جيفانا .. لذلك كان لزاما علي أن أختفي و أرحل نحو بشرية أخرى أرحم و أعدل من التي نعيش معها الآن ..
و ليس من سبيل لتحقيق ذلك سوى مكان واحد ..
ذُهلت ماريا عندما أخبرتها بالوجهة لكنها وافقت على مرافقتي وكذلك حسن .... المجهول هو ما ينتظرنا ..
كنت مصرا على الذهاب الى هناك .. لن أرضى بمكان غيره ..
لقد قررت أن نذهب الى جـــزيـــرة الظـــلام التي حدثتني عنها ماريا ..
جـــــزيـــــرة الظلام حيث يختفي كل شيء..
الجزيرة التي ستمكننا من رؤية المستقبل ..
نعم لقد قررت الرحيل دون عودة ..
العودة الى أحضان هذا الإنسان الذي فقد إنسانيته ..
لن أعود الى هذه البشرية حتى تتغير ..
ولن تتغير بدون إنسان يخاف من الحساب ..
و يعمل ليوم الحساب و يخاف الله ..
و لا يعتدي على حق أخيه الإنسان في الحياة ..
و حقه في الاعتقاد بما شاء .. و حقه في العيش الكريم حتى ولو خالفه ..
و يتعاون معه من أجل البناء ..
بناء مستقبل أفضل لجميع سكان الأرض ..
دون استثناء .. و دون تفرقة أو ميز ..

سأعود يوم أعلم أن البشرية لن تعذب حيوانا من أجل الطاقة و الخلد بل ستنقذ به ملايين البشر من أمراضها و ستخرج منه أسرار الشفاء دون أن تؤذيه لأنها ستكون رحيمة بمخلوقات الله كما أرادها الله ..
سأعود يوم أعلم أن الإنسان لن يحتاج لجيفانا لأنه سيصل الى كل ما يسعى إليه دون أن يخالف و يعصى ربه ..
دون أن يقتل و يعذب ..
دون أن يظلم نفسه ..
لقد قررت أن أكتب كل ما رأيت في كتابي هذا كما عشته أول مرة ليعرف من سيجده بعدي أنه المسؤول الجديد عن جيفانا ..
لن يمنعني من حماية جيفانا سوى الموت ..
و أنت أيها القارئ .. إنها مسؤوليتك الآن ..
نعم إنها مسؤوليتك .. ليس أن تحمي جيفانا فقط .. بل أن تدعو الناس الى خالقهم بحسن خلقك ...
إن وجدته فعليك حمايته ..

- هل انتهيت ؟ مضت ثلاثة أيام و أنت عاكف على مذكرتك ..
- نعم لقد انتهيت ماريا ..
- أمسك بيدي إنهم قادمون ..
- من ؟
- لقد أرسلوا خلفنا كل جنودهم و أساطيلهم و ترساناتهم .. إنهم يريدون استرداد كنزهم الثمين .. جيفانا ..
- لن يعثروا علينا إذا دخلنا جزيرة الظلام .. هيا بنا ..
- مستعد حسن ؟
- نعم ..
- أمسك بي جيدا جيفانا .. سنرحل الى جزيرة أخرى هذه المرة ..

نعم سنرحل الى جزيرة أخرى ..
و عالم آخر .. الله أعـــلـــــم .

و تحسب أنك جرم *** و فيك انطوى العالم الأكبر

داؤك منك و ما تبصر *** داؤك فيك و ما تشعر

تحسب أنك جرم صغير *** و فيك انطوى العالم الأكبر

النـهايـة